الدكتور عبد الملك مرتاض

نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر

1925 _ 1954

- النهضة الفكرية
- النهضة الصحفية والأدبية
- النهضة التاريخية



الدكتور عبد الملك مرتاض

نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر

1925 - 1954

الطبعة الثانية

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

رقم النشر 1254 / 82
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر 1983

مقدمة الطبعة الثانية

لقد كان هناك فراغ مذهل في مكتبة» الدراسات الجزائرية ، حين جئت أكتب فصول هذا الكتاب خلال سنة خمس وستين وتسعمائة وألف ، بحيث لم تكن ظهرت الى تلك السنة أي دراسة أدبية مفصلة على نحو ما ، جادة في منهجها وأحكامها . وكل ما في الأمر أن الغيورين على الأدب الجزائري ، ممن كانوا حديثي عهد بالتخرج في الجامعات العربية على اختلاف أقطارها ، حاولوا في حماسة واباء واصرار ، القيام بدراسات عالجت بعض القضايا الأدبية والثقافية والفكرية الجزئية . ولكنهم ظلوا في الغالب يجتزئون بنشرها في صورة مقالات أو فصول متقطعة في بعض المجلات الجزائرية التي كان عددها قليلا جدا .

وربما كان التفكير في تدبيج دراسة أدبية أو ثقافية جادة عن النهضة الجزائرية في تلك الفترة المبكرة من عهد الاستقلال ، شيئا لعله أشبه ما يكون بالمغامرة العلمية .. ولذلك ألفينا السنين الأولى من عهد الاستقلال تمتاز بكتابة المقالات والدراسات القصيرة التي تجد مجالها في الصحف والمجلات ، لا في الكتب ولا في المجلدات ...

ولكن الاهتمام بالدراسات الجزائرية على اختلافها ، سواء منها التاريخية والادبية والفكرية ، ظل قائما متطورا متجددا ، منذ بداية الطريق ...

وفي غمرة هذه الاهتمامات المخلصة بالقيام بدراسة جزائرية من نوع ما ، وفي نشوة الإيمان بأن الأدب العربي في الجزائر لابد ان يلقي منا الانصاف ، ولابد ان نؤدي ماله علينا من حقوق ، فننفض عنه الغبار ، ونرمح عن حوزته طغيان الظلم ، بعد ان كان عاني من اضطهاد الاستعمار الفرنسي ، والمتعصبين على اللغة العربية وأهليها ، ما عانى - جئت الى هذه الفصول فكتبتها ، ثم أذنت بنشرها الذي جاء متأخرا عن سنة التأليف بزهاء ست سنوات . ولكن هذا الديدن ليس غريبا في وطننا الذي خرج من ظلمات استعمار ضار دام أكثر من قرن وربع قرن ، فان كتبا كثيرة ألفت قبل سنة خمس وستين - فيما أقدر - في الجزائر ، ولما تنشر الى يومنا هذا . ولعل الشركة الوطنية للنشر والتوزيع مزمعة اليوم على أداء رسالتها في نشر الدراسات الجزائرية بشرف ، حتى تغدو الثقافة العربية في الجزائر متصلة بالجماهير

الشعبية على اختلاف مستوياتها الثقافية والفكرية ، وعلى اختلاف طبقاتها الاجتماعية ، فتصبح الثقافة العربية طعاما سائغا يلتهمه الفلاحون والعمال ، بالاضافة الى الطلاب والمعلمين .

وقد كتبت هذه الفصول في جو علمي ضنك ، تنقصه المصادر ، وتعوزه الوثائق الغنية التي من شأنها ان تنير سبيل البحث ، وتعطي الحكم الفصل في مواطن الشبهات العلمية التي كثيرا ما تنشأ في ميدان الدراسات الجزائرية عن تحقيق ميلاد جريدة ، أو حول البحث في نشاط جمعية أدبية ، أو حول التاريخ لناد ثقافي شهير أو غير شهير ، أو حول قضايا أدبية وثقافية أخرى مشابهة .

وحتى الدراسات التي كانت ظهرت يومئذ ، لم تكن في المستوى العلمي اللائق ، إذ لم يفلت معظم أصحابها من الوقوع في أخطاء كثيرة . فكان لامناص لدراسة مبكرة ، مبتكرة في كثير من فصول مادتها ، ان تتسم ببعض الأخطاء العلمية .

ولقد كان معولي الأول في كتابة هذه الدراسة التي اعتبرها ثقافية تفيد القاريء العادي ، وحتى الجامعي غير المتخصص في الدراسات الجزائرية ـ أقول : كان معولي في كتابتها على مجموعات من الصحف المتفرقة المتقطعة الاعداد ، وعلى مجموعة ضخمة من مجلدات الشهاب . ولم يكن ظهر من الكتب التي أنشأها مختصون جامعيون من الباحثين الجزائريين شيء كثير يذكر .

من أجل ذلك يلاحظ الباحث المتخصص ان هذا الكتاب قد تعتوره نقائص كثيرة أو قليلة . لقد كنت أكتب هذا الكتاب وكأنني استمد من ماض بعيد ، واستقي من مصادر يسيطر عليها المجهول أكثر من المعلوم . ولذلك وجدتني مضطرا الى اصطناع المنهج الروائي في كثير من المواقف العلمية ، قبل الاقدام على تقرير رأي أو اصدار حكم . والحق أن الدراسات الجزائرية لا يزال من طبيعة منهج البحث فيها ، التعويل على الرواية والاتصال الحي بالأشخاص الذين لهم اهتمامات أدبية وثقافية وتاريخية معروفة في الجزائر ، ممن امتد بهم العمر المبارك ، حتى عاصروا عهد الاستقلال ، بعد ان كانوا عايشوا فترة الظلام التي سبقت قيام ثورة التحرير الوطني العظيمة .

وكان يجب علي أن أعيد النظر في كل ما ورد في هذا الكتاب ، فأصحح بعض اخطائه المطبعية ، وأعدل من بعض الأحكام التي قد لا تخلو من مبالغة أو غموض أو اضطراب أو ضعف ، ثم أنقح بعض الألفاظ التي لم أعد عنها راضيا ، واغير المنهج العام الذي الذي لم يعد يرضيني ، هو أيضا . وأضيف بعض الفصول الضرورية ، ولاسيما في الباب الذي وقفته على النهضة الأدبية حيث أشعر بأنه ضحل المادة من حيث كان ينبغي أن يكون غزيرها . اذ اعتقد أنه كان من الضروري أن يتفرع الى عدة فصول ، وذلك حتى يمكن معالجة المقالة الأدبية ودورها ، والمسرحية وخطرها ، وحركة التأليف ونشاطها وخصائصها ، وحركة الخطابة ورجالها وعوامل نشأتها وازدهارها ، بالاضافة الى الحركة القصصية التي لم أتناول

من أصحابها الا كاتبا واحدا هو المرحوم أحمد رضا حوحو . مع ان هناك قصاصين آخرين كان ينبغي التعرض لهم بشيء من التفصيل ، أو الاشارة الدالة على الأقل ، منهم محمد السعيد الزاهري الذي حاول أن يكتب في فن القصة ، اذ هو أول من نشر من الكتاب الجزائريين محاولة قصصية بعنوان . «فرانسوا والرشيد» ، وذلك في شهر يوليو من سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف . بالاضافة الى محاولاته الأخرى التي كان نشرها في مجلة «الفتح» ثم جمعها في كتاب نشره تحت عنوان . «الاسلام في حاجة الى دعاية وتبشير» . ينضاف الى كل ذلك محاولات أخرى متفرقة منها . «اني أرى في المنام» . وقد كان الزاهري نشرها في مجلة «الرسالة» للزيات .

ومن الذين حاولوا ان يكتبوا في فن القصة الكاتب الصحافي المرحوم محمد العابد الجلالي الذي نشر طائفة من المحاولات في مجلة الشهاب الباديسية خلال سنوات خمس وثلاثين وست وثلاثين وسبع وثلاثين ، وكان يوقعها باسم مستعار هو «رشيد» .

ومن القصاصين الذين برزوا فيما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، أحمد بن عاشور الذي نشر أقاصيص كثيرة في جريدة البصائر الثانية ، بوجه خاص .

وكان ينبغي التمهيد لكل ذلك بنبذة تتناول نشأة الفن القصصي في الجزائر ... ولكن هذا كفاناه اليوم باحثون آخرون ، منهم الدكتور عبد الله الركيبي ، ومنهم صاحب هذا القلم الذي عالج الموضوع نفسه على نحو آخر ، وحاول أن يستدرك فيه بعض الأشياء التي فاتت الدكتور الركيبي ، وذلك في دراسة ستظهر في الحين المقدر لها .

ولو شئنا ان نثير الحديث حول المسرحية لقلنا شيئا يشبه الذي قررناه حول الفن القصصي . ومما يذكر ان أي دراسة شاملة لم تصدر الى يومنا هذا حول الفن المسرحي في الجزائري ، ماعدا دراستنا التي لا تبرح مخطوطة بحكم أنها انشئت لنيل درجة جامعية ، ولعلها ان تلقي بعض الأضواء على هذا الفن وتطوره في الجزائر ، حين تذاع بين الناس .

ونحو ذلك قله في المقالة والخطابة والمذكرات والسيرة الذاتية والخاطرة ، وهلم جرا من هذه الفنون النثرية التي عالجها كتابنا خلال الفترة التي حاول كتابي هذا أن يلقي على ظلامها الكثيف بعض النور الشاحب .

والحق انني لو حاولت ان آتي ببعض ذلك ، لغيرت في هذا الكتاب كل شيء ، وربما أدى ذلك الى انقراض عنوانه الأصلي نفسه ، لأنه لن يصبح معبرا عن محتواه الحقيقي . وما ذلك الا لأن الدراسات الجزائرية قد تطورت بصورة سريعة وطيبة ، فظهرت في العشرة الأعوام الأخيرة كتب ، وهيئت رسائل جامعية في الداخل والخارج ، ونشرت مقالات وفصول مكثفة . كلها يحاول القاء الضياء على الحركة الأدبية التي عرفتها لجزائر قبل قيام ثورة التحرير ، والتي كانت بمثابة ارهاضات كبرى أدت ، مع عوامل أخرى مختلفة ، الى قيام هذه الثورة العظيمة التى حررت الجزائريين من ربقة الاستعباد الفرنسي الذي أوشك ان يذيبهم ويمحوهم من الوجود ...

اني لو جئت أعيد النظر في هذا الكتاب من جديد ، لغيرت فصوله كلها ، ولا ضفت اليها فصولا أخرى ، ولخرج الكتاب حينئذ في مجلدات كثيرة . وذلك على ضوء تقدم المعرفة ، وتعمق التجربة خلال العشر السنوات الأخيرة بصاحبه الذي وقع على وثائق جزائرية كثيرة مخطوطة ومطبوعة ومرورية . كل هذا ، والأمر يتصل بالنثر لا بالشعر ، لأنني آثرت ان لا أخوض حديث الشعر والشعراء ، هذا الحديث الذي ظللت أمني النفس بتناوله فأخرج دراسة حول الشعر الجزائري تمثل الجزء الثاني ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، لموانع وقواهر . وكثيرا ما تحول الحوائل بين المرء وارادته .

واكرر ان الذي زهدني في اعادة النظر في فصول هذا الكتاب ، ولا سيما فصول البابين الأول والثاني ، انني قمت بدراسات أخرى مشابهة ، لعلها ان تكون تصحيحا لبعض الهفوات ، وتفصيلا لبعض الأفكار المركزة ، وتوضيحا لطائفة من الآراء التي قد تبدو غامضة يعوزها الدليل الخريت ، وتفتقر الى الحجة الدامغة التي تفضي بها الى الثبات والبقاء . ومن هذه الدراسات التي نفضت يدي منها «فنون النثر الأدبي في الجزائر (١٩٣١ — ١٩٥٤)» . وهو بحث مطول استغرق اكثر من ثمانمائة صفحة ، ويقع في جزئين اثنين . وقد كتبته صاباً فيه جهود عشر سنوات من البحث والتنقيب والمقارنة والتحقيق ، لأنال به درجة جامعية .

أما الفصل الذي خصصته للصحافة العربية في الجزائر فاحسبه ، هو والفصل الخاص بالفن القصصي الذي سبق لي ان نبهت على نقائصه في هذه الكلمة العابرة — من أضحل فصول الكتاب مادة . ولذلك جئت الى هذا الموضوع فأخرجت فيه كتابا ضخما ، تحدثت فيه عن الصحافة العربية في الجزائر من حيث نشأتها وتطورها وكتّابها وقراؤها ، ومن حيث لغتها وأسلوبها ، ومن حيث نضالها أو اضطهاد الاستعمار لها ، ومن حيث وقوع الكتّاب العرب في اخطاء فادحة في الحقائق — حين كتبوا عنها . كما جئت الى هذه الصحافة صحافتنا ، فوضعت لها دليلا عاما ، أرجو ان يقدم غناء للدراسات الجزائرية ، حين يتاح له ان يذاع بين الناس .

* * *

ذلك ، وأود في الأخير ان أشكر القراء الكرام الذين شجعوني بثقتهم ، والأساتذة الذين نقدوني بآرائهم — وان كنت أسجل ان الكتاب لم يلق الرواج اللائق في مجال النقد ، فهل لعدم وجود نقاد مختصين ؟ اوكان ذلك لعلة أخرى ؟ — كما أشكر طلاب الجامعات الجزائرية بوجه خاص على الاقبال الحار الذي لقيه هذا الكتاب البسيط المتواضع منهم ، اذ أخذوا يستعينون به في دراستهم بالقياس الى مادة الأدب الجزائري الحديث .

ولا أنهي هذه الكلمة العجلى ، حتى أزجي الشكور الحميم بين يدي الى المسؤولين في الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الذين قرروا اعادة طبعه طبعة ثانية ، بعد ان نفذت الطبعة الأولى في نهاية سنة خمس وسبعين وتسعمائة وألف .

وأسأل الله جل جلاله ، ان يوجهنا الى سبيل الخير ، وان يكلّل أعمالنا الناقصة بالتوفيق والقبول ، ويجزينا عما قمنا به جزاء أوفى .

وهران ، في مايو ١٩٧٦

عبد الملك مرتاض
جامعة وهران .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(1)

هذا موضوع شائكة جوانبه ، عويصة طرائقه ، متشعبة عناصره ايما تشعب ، لانه يخوض في امر الصحافة ، والادب ، والتاريخ ، والاصلاح بانواعه المختلفة ؛ اي انه يخوض في موضوع الفكر الجزائري المعاصر .

ولكني ارجو ان لا ينخدع القارىء فيحسب اني تناولت هذا الفكر الجزائري منذ مطلع هذا القرن الى العهد الحاضر ، فذلك ما لم يقصد اليه هذا الكتاب ، وانما تناولت عصرا محددا ، وعهدا معينا ؛ اذ كانت المنهجية العلمية تفرض علينا بعض ذلك فرضا . والعهد الذي تناولناه لا يتجاوز تسعا وعشرين سنة ، وهي الفترة التي تفصل ما بين سنتي خمس وعشرين وتسعمائة والف ، واربع وخمسين وتسعمائة والف .

(2)

ولأمر ما آثرنا ان نخوض في هذا العهد ، لاننا نعتبر بداية النهضة الحقيقية كانت سنة خمس وعشرين من هذا القرن حين اسس ابن باديس جريدة « المنتقد » ، وحين اسس مبارك الميلي قسمين للدراسة العصرية المنظمة بمدينة قسنطينة . اما انهاء هذه الفترة من نهضتنا الادبية بسنة اربع وخمسين ، فلعله واضح . لان ثورتنا العظيمة أذابت كل العبقريات ، والاتجاهات ، والملكات ، والخبرات ، والقوات ، والثقافات ، وجعلت منها مصدرا واحدا يتفجر منه الكفاح من اجل الحرية ، وتستمد منه الوحدة الوطنية المقدسة . فكانت هذه السنة تحولا عظيما في تاريخ

الشعب الجزائري في هذا القرن ،بل كانت انقلابا خطيرا في مفهوم الثورات الاجتماعية والسياسية • فمن خطل الرأي وسفه العمل اذن ، ان ندخل ما بعد هذه الثورة من زمان في اطار النهضة التي نتناولها بالبحث في هذه الدراسة ، ذلك بان الثورة يجب ان تكون اوجا للنهضات ، ولا يمكن ان تكون هناك ثورة بالمفهوم الصحيح في تاريخ امة بدون نهضة ما ، تسبقها وتمهد لها السبيل تمهيدا •

اما هذا البحث في حد ذاته فقد قسمناه الى ثلاثة اقسام رئيسية : احدها يبحث في الشؤون الفكرية والاصلاحية للامة الجزائرية ، وثانيها يبحث في الحركة الادبية من صحافة ، وقصة ،ومقالة ،وثالثها يتناول حركة التأليف في التاريخ • وقد فصلنا كل قسم الى فصول اعتبرنا فيها جانب الوحدات الموضوعية الداخلية ، والتنسيق في الملاءمة والمؤاخاة بين المواد التي تشكل هذا البحث •

(3)

ونجد اليوم مثقفين من شبابنا ، من لا يرعوون ان يشيعوا فكرة غريبة خاطئة ، وهي جديرة بان نناقشها في هذه المقدمة ، وهي ان لا وجود لنهضة ادبية حقيقية بالجزائر على عهد ابن باديس والابراهيمي اللذين يشكلان محور هذه النهضة • اذ كان اولئك القوم من مثقفينا ، قبل الثورة ، قصروا حياتهم على الدين ، ووقفوا امرهم على التربية ، وعنوا دهرهم بالتوجيه والاصلاح • على حين ان النهضة ، في نظر هؤلاء ،عبارة عن حركة ادبية وفكرية واسعة الآفاق ، شاسعة الاطراف ، بعيدة المدى ، فيها شعر غزير ، ونثر وفير ، وفلسفة ذات مذاهب ونظريات ، وفيها ، نتيجة لكل ذلك ، مؤلفات ضخام ، يقودها رجال مفكرون جبابرة العقول، عباقرة النتاج ، أقل ما يوصف به ادناهم انه مؤلف خصب المادة ، عميق التفكير ، غني الخيال ، لا يمسك قلمه عن الكتابة حتى يخرج للانسانية كتابا مؤلفا من عدة مجلدات •

ونحن نريد ان نرد على هؤلاء بأن مثل هذه الشروط التي يشترطون لقيام نهضة حقيقية شروط مثالية جدا ، وهي لا تتوفر الا في أوج النهضات الادبية الكبرى في حياة التفكير الانساني • اما طلائع النهضة ، فكثيرا

ما تبتدىء بالنزر القليل ، فينضاف نزر الى نزر ، ومقال الى مقال ،وخطبة الى خطبة ، وقصيدة الى قصيدة ، وبحث الى بحث ، واقصوصة الى اقصوصة ، وحديث الى حديث ، وكل شيء الى جنسه ، وكل مادة الى ما يشاكلها ، فاذا النزر القليل كثير ، واذا الخطبة خطب ، واذا الحديث احاديث ، واذا الاقصوصة اقاصيص ، واذا النهضة قد اكتملت شروطها ، وبلغت ذروتها • واذا هي نهضة لا من باب التجاوز او التسامح في الاطلاق ولكنها نهضة من باب الحقيقة التاريخية التي لا يتسرب اليها الشك ؛ ولا يسرى اليها الارتياب •

(4)

ونحن جئنا لنثير في هذا البحث ، حديث نهضة الادب العربي المعاصر في الجزائر ،على اساس علمي سليم ، وعلى مبدأ منطقي صحيح ، وهو أن لو جمعت جميع مقالات وابحاث الكتاب الذين تناولناهم — الى جانب من لهم كتب مؤلفة فعلا — ثم عزيت تلك المقالات الى اصحابها على حدة ، لشكلت عدة مجلدات • ويجب ان لا ننكر قضية الكم في النتاج الادبي لان الاقتصار على النتاج القليل وان كان بالغا في الجودة والكمال ، لا يتيح لصاحبه الشهرة المطلوبة ، كما يجعله ، من وجهة ، شبه عاجز عن تسجيل كل شيء يحدث في عصره • وعلى ان هذه القضية تفتقر الى نقاش معمق اكثر لتتضح جوانبها •

وقد ظهر لابن باديس بعد خمس مجلدات ضخام جمعت بعد الاستقلال • وفي هذا ما يدل على ان النهضة الادبية كانت ذات وجود حقيقي في الجزائر قبل الثورة •

وليس يضير هذه النهضة ان لا تكون قائمة على التأليف المباشر ، على الرغم من أنها تتوفر على عدد محدود من الكتب المؤلفة ، بل لعل وجود حركة تاليفية خصبة ، مما يميز نهضتنا عن غيرها بكونها تعول على المقالات الادبية المحكمة الراقية •

ويجب ان لا ننسى الظروف العصيبة التي كانت تحدودق باولئك القوم ، فالدولة كانت استعمارية ، وكانت لا تشجع قدر ما تثبط وتحارب ، كما ان المطابع ودور النشر لم تكن ذات وجود في الجزائر • فلما اغلقت

الابواب في وجوههم عمدوا الى طريقة اخرى يكتبون بها ويسجلون ويعبرون ويصورون آلام الشعب الجزائري وآماله ، وهي الطريقة الصحافية البحتة .

ثم من هو هذا الأديب ، في الشرق او في الغرب ، الذي لم ينشر نتاجه في الصحف والمجلات ، قبل ان يجمعه ويذيعه بين الناس في هيأة كتاب ؟ ولكن ما كل مقال نشر في صحيفة يعد ادبا ، ففي هذه المسألة عناصر لا يمكن ايضاحها او نقاشها في هذه المقدمة القصيرة .

كما لا يضير نهضتنا الادبية ان تستميز بهيمنة الظاهرة الدينية عليها. فليس معنى وجود العنصر الديني ، او الاصلاحي ، او التوجيهي ، في هذا النتاج الادبي ، مما يجعلنا نعتقد ـ كما يعتقد ذلك بعض الناس اما جهلا او تعصبا او خطأ ـ ان هذا النتاج لا يتسم بالروح الادبي وما ينبغي له . وهو من اجل ذلك الى ان ينضاف الى التفسير او كتب السنة والفقه، اولى له ان ينضاف الى الآداب .

(5)

ومن الحق اننا لو أبنا القهقرى الى تاريخ الادب العربي القديم ، لالفنياه متسما بالظاهرة الدينية منذ مهده ، تجد ذلك عند بعض الجاهليين امثال زهير في اشعاره ، وقس بن ساعدة في خطبة . كما ان طرفة لم يعدم شعره مسحة دينية ولا سيما معلقته التي كثيرا ما اثارت قضية الموت ، وهذه القضية ليست وقفا على الفلسفة وحدها ، بل ان القرآن الكريم كثيرا ما دعا الى الاعتبار بمصيبة الموت . كما اننا نجد حسان يصور كثيرا من المواقف التي حدثت على عهد الرسول ، وهذه المواقف في جملتها ذات صبغة دينية . حتى اذا تقدمنا قليلا وجدنا كثيرا من الشعراء ينافحون عن مذاهبهم الدينية ، كما نجد ذلك عند الخوارج والشيعة . ومن الخطأ أعتبار مذهبي الخوارج والشيعة على انهما مذهبان قائمان على السياسة وحدها ، فان المبادىء الاولى لتلك الفرق لم تك في اصلها سياسية ولكنها كانت دينية ، او انها لم تك ، تتظاهر على الاقل ، بالنزعة السياسية البحتة.

(6)

ولو سملنا بان النهضة الادبية في الجزائر ، ليس ينبغي لها ان تسمى

كذلك ، لان اصحابها في معظمهم رجال دين ، او هم اشبه ما يكونون برجال الدين ، او هم ساسة ، او اشبه ما يكونون بالساسة ؛ اذن لنبذنا عن الادب العربي القديم اجمل ما فيه من آثار ، ولتركناه اجوف بلا شيء . فلا احاديث النبي ، صلى الله عليه ، ادب ؛ ولا خطب علي الرائعة ادب ؛ ولا خطب باقي السلف الصالح ادب ؛ وانما الادب وحده شعر امرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة ، والعرجي ، وجرير ، والفرزدق ، والاخطل ، وابي نواس ... اذ كانت تلك الخطب الرائعة في معظمها قائمة على الدين ، وهي الى ذلك لا تخلو من سياسة . والدين والسياسة في رأي هؤلاء الناس من بعض شبابنا يبعدان الأدب عن دائرته ، ويخرجانه عن مصامه .

ان العنصر السياسي ، او الديني ، او الاجتماعي ، او الاقتصادي ، او الاصلاحي ، اذا سيطر على حركة ادبية ، ليس معناه ان هذا الادب دين او سياسة او نحوهما ، ولكن معناه انه ادب حي ملتزم يهتم بالفرد من حيث ما هو مضطرب في مختلف مناكب الحياة .

وكأن هؤلاء يأبون ان يطلقوا لفظ « الادب » الا على كل ادب عاطفي ، او كل ادب يعنى بالذاتية الشخصية كالادب الرمزي المريض .

(7)

ولو كان هؤلاء الناس يرون مثل هذا فحسب ، لهان امرهم علينا ، ولما ناقشناهم في هذه المقدمة ، وانما يرون ــ مخطئين ــ بان نتاج من أعدهم انا من رجال النهضة الادبية ، بارد بل ركيك ، لم يبلغ من الرقي والنضج مكانا محمودا ، فهو من اجل ذلك ليس شيئا . ومن الخير ان يهمل اهمالا ، ويغفل اغفالا .

ونحن نقول لهؤلاء الناس : ان المؤلف أو الكاتب حسبه ان يكتب ثم للتاريخ بعد ذلك ان يتولى تبعة الحكم . فمن ألف كتابا في التاريخ من رجال نهضتنا الادبية ، فهو قد ألف حقا في التاريخ . وليس مذنبا اذا لم ينل شهرة ابن خلدون في هذا المجال . ومن كتب شيئا في الادب ، فهو قد كتب في الادب فعلا ، وليس ملوما ان لا يصيب سمعة الجاحظ في هذا الفن .

فليس يملك الكاتب الا ان يكتب • اما عملية التقويم – ولا اقول « التقييم » – فامرها متروك للزمان ، والتاريخ ، والناس واتجاهاتهم اولا واخيرا •

(8)

اما ما يزعمون من ان شعراءنا كانوا في جملتهم وتفصيلهم شعراء مناسبات واعياد ، فلا عليهم ان يكونوا شعراء مناسبات الف مرة ومرة• واي شاعر على الارض في القديم او في الحديث ، في الشرق او في الغرب، لم يك شاعر مناسبات ؟ والشاعر الذي لا يكون من هذا الصنف ليس بشاعر ، بل ليس بانسان على الاطلاق • لانه اما ان لا يتأثر بما يضطرب حوله ، واما انه يعيش في عزلة ذاتية تخيم عليها الدموع ، ويكتنفها الاوهام والاباطيل •

فما قال هوميروس ابو الشعراء الشعر ، الا متاثرا بمناسبة حروب طاحنة عرفها الاغريق • وقد اعتبره تاريخ النقد الادبي زعيما لشعراء الانسانية طرا • وما قال الشعر امرؤ القيس الا فيمناسبات لهوه وملذاته • وقد عده تاريخ النقد الادبي اميرا للشعراء العرب قاطبة • وما كان حسان الا مسجلا لمناسبات او مواقف وقعت للنبي واصحابه • ولم ينف احد من المؤرخين عنه صفة الشعر لمجرد انه كان كذلك • وما كان المتنبي الا شيئا من ذلك ،ولم يجرؤ احد ان ينكر بانهاكبر شعراء العربيةجميعا •وقل مثل ذلك في ابي تمام الذي قال قصيدته الرائعة متاثرا بمناسبة فتح عمورية فخاطب المعتصم منشدا :

السَّيفُ أَصدَقُ أَنباءً منَ الكُتُبِ   في حَدِّهِ الحدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

فما المناسبات الا حوادث الحياة في شمولها ، وليس معناها الا تكيّف الشاعر او الكاتب بالمجتمع الذي يضطرب فيه ، وانفعاله بما يلم عليه من الامور الجسام •

(9)

ثم رأينا قوما منا ينعون علىالباحث الذي لا يستكشف لهم شخوصا جددا ، وانما يحدثهم عمن يعرفون ، او عمن يخيل اليهم انهم يعرفون .

وهؤلاء لا ريب ، يطلبون من الامر مستحيله ، ومن التاريخ باطله • فليس الناقد او المؤرخ او الباحث من يستطيع ان يخلق للناس شخصيات لا يعرفونها ، وانما الناقد او الباحث هو من يستطيع ان يستنبط عناصر جديدة كانت مجهولة الجوانب في المواضيع او الشخصيات التي يتناولها •

ثم ان الجديد في حد ذاته يجب ان يكون ذا مفهومين اثنين : فاما ان تكون قد عرفت شيئا فاحدثك عنه فتعده قديما او معروفا ، واما ان لا تكون قد عرفت ذلك الشيء ، ولم يكن قد تناوله احد على نحو ما تناولته، فأحدثكه فتعتبره انت ، ان شاء الله ، جديدا •

ثم ان دراسة الشخصيات وآثارها ، والرجال وتراثها ، ليس هو معرفة اسمائها مجردة عن كل شيء ، فكثيرا ما يخيل الينا اننا نعرف عن مسألة كل شيء ، ولو ناقشنا انفسنا وخلونا اليها ، لوجدنا اننا لا نعرف، مما كنا نعتقد اننا نعرف ، الا النزر القليل •

(10)

فاذا رأيتني اليوم جئت لأرسم صورة مصغرة لبعض أنواع النثر قبل الثورة ، سواء اكان صحافيا ام ادبيا ، ام تاريخيا ، ــ وقد تكون هذه الصورة غامضة ، وقد تكون واضحة ، وقد تكون غير ذلك ، ولكنها صادقة خالية من التحيز في الحكم والهوى والعاطفة في تقرير الآراء ــ فبما ايمان مني بان نهضتنا يجب ان يؤرخ لها ، وبأن أدبنا يجب ان يثار حوله الجدال ، ويساق فيه البحث ، ثم بما حب شديد مني للبحث الخالص المجرد عن كل هدف غير محاولة استكشاف الحقائق التاريخية ورسمها •

وقد اجتهدت في ان يكون بحثي هذا قائما على الدلائل المنطقية ، والوثائق التاريخية في كثير من الحالات • غير انني ربما اهملت احيانا الاشارة الى مصدر الفكرة مجتزئا بما اثبت في آخر هذا البحث من مصادر • وعلى ان كثيرا من الامور لا مصدر لها في هذا البحث في حقيقة الامر غير المعاصرة والاطلاع الشخصي • فان بعض المسائل لم يكتب حولها احد على نحو ما كتبت انا في هذا البحث كالصراع بين العربية والفرنسية، وكالمراكز الثقافية بالجزائر قبل الثورة • وهذا مما اهتدينا اليه بفضل

المعاصرة ، لا بفضل استيحائه من مصدر خاص سبقنا الى اثارة ذلك •

فليكن هذا البحث من اجل البحث عن الحقائق التاريخية بما فيها الادب المنثور ، والصحافة ، والصراع الفكري بين الجزائريين والفرنسيين المستعمرين ، والمحاولات التي كتبت حول تاريخنا •

وهـران ، في ١٩٦٩/٨/٢١

عبد الملك مرتاض

الباب الأول

النهضة الفِكْريّة

- الصراع بين العربية والفرنسية .
- المراكز الثقافية في الجزائر قبل الثورة .
- ابن باديس زعيم النهضة الفكرية .

الفصل الأول

الصِّراع بَين العَربيّة وَالفرنسيّة

(1)

يعود الصراع بين العربية ، وهي لغة الجزائريين الوطنية ، وبين الفرنسية ، وهي لغة دخيلة اكتسحت نفوس بعض الجزائريين وتسربت اليهم عن طريق الاستعمار السياسي للجزائر من قبل الفرنسيين ، الى نحو قرن ونصف من الزمان . ونحن حين نستنطق التاريخ ، ونستفسر بعض ما بقي لنا من آثاره وذكرياته ، يجيبنا بأن العربية كانت هي اللغة الرسمية للدولة الجزائرية والشعب الجزائري معا ، قبيل الاحتلال الفرنسي . ومن آيتنا على ذلك ان الامير عبد القادر ، وهو رئيس هذه الدولة ايام حرب المقاومة اثناء القرن الماضي ، كان عربيا ، بل لم يكن عربيا فحسب ، ولكنه كان شاعرا واديبا حفظت لنا الايام كثيرا من قصائده الشعرية التي ان لم تكن في ذرى الفنون الشعرية فانها تدل بحق على روح عربي صاف ،وعلى عاطفة انسانية رقيقة .

(2)

وفكرة الصراع بين لغتين : لغة غازية ، ولغة مغزوة ، ليس مما يحلو فيه الحديث ، اذا اعتبرنا انها فكرة معروفة في التاريخ السياسي ، والتاريخ الادبي جميعا . فليس الفرنسيون وحدهم الذين محوا لغات الشعوب التي استعمروها واستبدوا بسيادتها بقوة الحديد ، ولكن معظم الدول الاخرى ـ ان لم اقل جميعها ـ القديمة والحديثة فعلت ذلك ايضا . وفي طليعة اولئك العرب .

وعلى اننا لا نملك الا ان نخرج العرب من قائمة المستعمرين ، سواء

علينا أأراد ذلك مؤرخو الغرب ام لم يريدوا ، لان التاريخ اصدق منهم ولان الحق افصح لسانا من كتاباتهم التي كثيرا ما تزوغ عن قصد السبيل حين يتناولون مسألة من مسائل التاريخ الاسلامي ، او قضية من قضايا الفكر الغربي بوجه عام . اقول : لا نملك الا ان نقرر بان العرب كانوا فاتحين ، ولكنهم كانوا ناشرين للحضارة الروحية التي كانت تتمثل في الاسلام ومبادئه السمحة ، في الحين ذاته . فلم يكن العرب يرغمون المتمسحة ، ولا المتهودة ، على الاسلام ، او يحضّونهم عليه ويغرونهم باعتناقه ، وانما كانوا يفعلون ذلك مع المتمجّسة ممن لم يكن لهم دين سماوي .

واذن ، فانما كان دور العرب المسلمين ، فيما فتحوا من اقطار ، دورا تمدينيا وتهذيبيا . كما ان نشر اللغة العربية لم يتم عن طريق تعمد محو اللغات التي كانت سائدة قبل الفتح ، وانما تم في معظم الاحوال ، عن طريق التمازج التام بالسكان ، والتزوج منهم ، وعدم الترفع عنهم في الحياة اليومية الاجتماعية .(١)

على حين انك ترى الدول الغربية المستعمرة في العصر الحديث ، تسلطت على شعوب اخرى فاحتلتها ، واكتسحتها بقوة العدد والعدد ، واستولت على ارزاقها واقواتها وخيراتها ، فافقرتها وحرمتها ، وجهلتها وأخرتها . وان وقع في بعض الحالات ، تمدين او تحضير ، فانما كان على حساب محو التاريخ الوطني ، ومسخ الشخصية الاصيلة ، وطمس الحضارة القومية وهدم اركانها . كما كان يحدث بالقياس الى الاطفال الجزائريين الذين كانوا يتعلمون في المدارس الفرنسية ، فان هذه المدارس كانت تعلمهم مع الفرنسيين تعليما فرنسيا محضا : يمجد الحضارة الفرنسية ، ويدرس التاريخ الفرنسي ، ويمقت كل ما هو عربي . وهذا حق مبين لا يرتاب فيه الا من كان جاهلا بالاوضاع الثقافية التي كانت سائدة في النصف الاول من هذا القرن في الجزائر .

(3)

لا غرو اذا رأينا الفرنسيين اول ما يفعلون ، بعد ان استقر بهم المقام

---

(١) د.حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة : ٥١ ــ ٥٢ (القاهرة : ١٩٥٧) .

بعض الاستقرار ، هو ان يبادروا الى محاولة محو الشخصية الجزائرية الاصيلة عن طريق فرنسة الالسنة والعقول • ولكن هل وجد الفرنسيون في مهمتهم بعض السهولة واليسر ؟ ثم هل استطاعوا ان يقنعوا الجزائريين المخلصين بان اللغة الفرنسية هي اللغة التي ينبغي ان يتخذوها لهم لسانا، او يصطنعوها حين الكتابة والتفكير ، او يعتقدوا ـ الى جانب كل ذلك ـ انها لغة العلم والحياة ؟

انا نزعم لأنفسنا ان الإجابة عن هذه الأسئلة مما يسهل علينا ، ومصدرنا في ذلك معاصرتنا للاستعمار الفرنسي في الجزائر • والجواب : ان المستعمرين الفرنسيين كابدوا في ذلك كل عناء ، فلم يكن غرس لغتهم في قلوب الجزائريين بالامر الهين عليهم ، اذ كان الجزائريون اصلب الناس عودا ، واشدهم عنادا ، واكثرهم تمسكا بشخصيتهم التاريخية العريقة • ولم ينجح المستعمرون في بعض ذلك الا في المدن الكبرى ، والا في العقود الاخيرة من وجودهم • وذلك حين تقدمت الوسائل العلمية التي كانوا يصطنعونها لهذه الغاية اصطناعا •

ولسنا نتحدث عن اللغة الفرنسية بعد الاستقلال ، فقد كان لها دور تعليمي بحت ، فلم يعد الجزائريون ينظرون اليها اليوم على انها لغة الغالبين المتسلطين المتعنتين ، وانما اصبحوا ينظرون اليها نظرة مجردة عن مثل هذه العواطف والاحقاد ، فاقبلوا على تعلمها باعتبارها احدى اللغات الحية الهامة ، الى جانب اقبالهم على تعلم لغتهم العربية ، دون ان يجدوا في ذلك شيئا كثيرا من التناقض والبأس •

وان كنا نادي بالغاء تعليم الفرنسية من المدارس الابتدائية الغاء تاما ، والابقاء عليها في المدارس الثانوية والجامعات فقط •

(4)

وكان الفرنسيون : سواء منهم من كانوا عمالا بسطاء ، ام موظفين في الشرطة ، أم موظفين في ادارات حكومية اخرى ، كثيرا ما يندهشون ويلم عليهم ما يشبه الذهول ، حين كانوا يتصلون بالجزائريين فيجدون معظمهم لا يتحدثون الفرنسية لانهم لا يتقنونها • فقد كان يبدو للباحث الاجتماعي ، او الباحث في علم النفس الاجتماعي للشعوب ، وهو يشاهد

هذه الظاهرة المذهلة ، ان امل كثير من مستعمري الفرنسيين قد خاب ،وان خططهم قد فشلت ، وان خطواتهم قد شلت فاصبحوا من الخاسرين . والا فكيف يمضي اكثر من قرن على وجود هذا الاستعمار في الجزائر ، حتى اذا يمم مواطن جزائري الربوع الفرنسية طلبا للعمل ، لم يجد جملة واحدة صحيحة يحادث بها الفرنسيين في المعامل والمتاجر والشوارع ، والحال انه كان يحمل الجنسية الفرنسية ؟

ومن اغرب ما رأيت من الفرنسيين ، اني لما كنت طالبا بفاس في مطلع النصف الثاني من هذا القرن ، مرض احد الطلاب الجزائريين منا ، فارتأينا ادخاله المستشفى ، فلما قصدنا ادارة البلدية لملء استمارة معلومات ،اتفق ان كان رئيس مكتب تلك الادارة فرنسيا ، فأنشأ يسائل الطالب المريض الذي كان لا يفهم من الفرنسية شيئا . فغضب الموظف الفرنسي غضبا شديدا وقال لنا في امتعاض مر :

ـ ما رأيت عجبا عجابا كاليوم!؟ اجزائري ولا يتكلم الفرنسية ؟!انه يخيل الي ان هذا جاسوس متستر بستار الجنسية « الفرنسية » ليس غير، والا فكيف يعقل ان يكون جزائري على الارض وهو يجهل لغته ... ؟؟؟

وقد اجاب الطالب في شيء كثير من التحدي والاعتزاز ، بانالفرنسية في الجزائر لا تكاد توجد الا في المدن ، حيث ان معظم السكان فيها فرنسيون ، اما السواد الاعظم من الشعب الجزائري الذي يقطن البوادي والارياف في غالبيته ، فهو لا يعرف عن الفرنسية شيئا كثيرا . وانا الذي تراني ، وتتحدث معي ، أحد اولئك الذين لا يفهمون الفرنسية،فما تنكر من امري ؟ فقد وجدت آبائي يتحدثون العربية فانا اتحدثها ، كما اتنفس الهواء في الفضاء ، وكما اشرئب الى النور ، وكما احب الحرية ، وكما احرص على الحياة .

اني جزائري ، ولغتي عربية ، على الرغم من ان القانون الدولي يعتبرني ، ظلما ، فرنسيا . ولكن القانون سواء كان دوليا ام محليا ، لا يعني انه يحترم الحقائق الثابتة ويقوم عليها قياما . فكم من قانون كان جائرا ، وكم من قانون جر على الانسانية كثيرا من الشقاء والآلام ، وكم من قانون حرم الانسان من التعليم ، بل كم من قانون حظر عليه الخبز والماء ، وهما قوام حياة البدن ..

ولكن المترجم كان لبقا ، فلم ينقل كل كنه هذا الحديث الى الموظف الفرنسي الذي كان الحقد باديا على صفحات وجهه ، فكفى الطالب الثائر المريض كثيرا من الاذاة •

ان هذه الحادثة النفسية تدلنا بوضوح عى مدى العسر الذي كان المستعمرون من الفرنسيين يكابدونه في نشر اللغة الفرنسية واحلالها محل العربية في الجزائر •

واذن ، فلم يستطع المستعمرون الفرنسيون أن ينجحوا كل النجاح في فرنسة العقول الجزائرية • ولكن ما شأن هؤلاء الكتاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية وهم جزائريون ؟ اليس ذلك دليلا خريتا على نجاح المستعمرين في غرس لغتهم في قلوب الجزائريين ؟ ثم كيف اننا نجد كثيرا من الجزائريين يحسنون الحديث بهذه اللغة ؟

اما تعليل عدم نجاح الفرنسيين في فرنسة الجزائريين نجاحا باهرا ، فلان الامة الجزائرية عريقة في عروبتها ، اصيلة في تاريخها ، عنيدة في ابائها ، شديدة التمسك بما تراه حقا • فلم يكن الجزائريون يوما ينظرون الى الفرنسية الا على انها لغة الاجانب • ثم ان احدا من عقلائهم ومفكريهم ، وعوامهم ايضا ، لم يكن يعتقد او يحاول ان يعتقد بانه فرنسي من الفرنسيين • فقد كانوا يرون ذلك ، تلقائيا ، خيانة ليس من بعدها خيانة ، واي خيانة ابشع من ان يتنكر المرء لأصله ، ويخرج عن دائرة جنسه ، ويهجر لغة قومه ؟

بل اننا نستطيع ان نذهب الى اكثر من ذلك ، فنزعم بان الامة الجزائرية كانت من الحصانة اللغوية والوطنية ، ما لم يكن من السهولة واليسر ان يؤثر فيها وجود الاستعمار ولو دام قرونا طويلة • ولا يعود ذلك الى عوامل نفسية صرفة ، بل يعود ايضا الى الطبيعة والجغرافيا ، فقد كانت كثير من القبائل العربية الجزائرية متحصنة وراء جبال شامخة ، وبين انهار ووديان ، تعيش آمنة في دينها ، مطمئنة في نفسها ، لا تعرف عن الفرنسيين المستعمرين قليلا او كثيرا • وكانت تقيم في قراها تلك الحصينة ، وكانها منفصلة عن ذلك الاطار العام الذي فرضه الاستعمار على الجزائريين في المدن والحواضر فرضا •

ثم ماذا ؟

ان المستعمرين كانوا يزدرون الجزائريين ويحتقرونهم ـ واقول هذا لا للثلب ولكن للتاريخ ودليلنا على هذا الازدراء ، انهم لم يؤسسوا لهم مدارس في بواديهم وقراهم ، ولم يجبروهم على التعليم ، بل لم يحثوهم عليه • ولكن الفرنسيين لم يربحوا من وراء هذا التجهيل شيئا ، وخسروا كل ما كانوا يرمون اليه من ذلك • فهم خسروا من حيث ارادوا ان يربحوا ، واخفقوا من حيث ارادوا ان يوفقوا • لان الجزائريين حين حرموا من المدارس الرسمية العصرية ، اقبلوا بابنائهم على الكتاتيب القرآنية ، ثم على المدارس العربية الحرة التي اسسها ابن باديس ونفر آخر من مخلصي الجزائريين الوطنيين ، فاتسعت الشقة بين العربية والفرنسية ، وازداد الصراع بينهما واحتد احتدادا •

ولو فتح الفرنسيون مدارسهم في وجوه الجزائريين ، وعاملوهم معاملة ابنائهم ، فدروا عليهم المنح ، وساعدوهم بالتشجيعات المختلفة ، لكان لتاريخ اللغة العربية في الجزائر شأن غير هذا الذي كان لها •

ولم يكن ميسورا على الاستعمار ان يعلم الجزائريين جميعا لبعض هذه الاسباب :

١ ــ ان الاستعمار كان يحتقر الجزائريين ، ويراهم ، فيما يبدو ، ليسوا اهلا للتلعيم •

٢ ــ ان تعميم التعليم في جميع ربوع الجزائر بما فيها القرى النائية ، يسبقه تعبيد الطرقات ، وتهيئة جيش من المعلمين الاكفاء او غير الاكفاء ، وهذا ما لم يكن الاستعمار متأهبا ليحتمل تبعته الثقيلة •

٣ ــ ان اجبار الجزائريين على التعلم من جانب آخر ، كان يتطلب تخصيص ميزانية ضخمة لهذه الغاية • ولم يك مثل هذا ميسورا للاستعمار الجشع ، لان معظم خيرات البلاد من مزارع ومعامل ومتاجر ضخمة ، وشركات عامة ، كانت تحت قبضة كمشة من المعمرين ، بحكم النظام الرأسمالي • فكانت خيرات الجزائر تتقاسمها السلطة الاستعمارية والمعمرون والشركات الاحتكارية بدون مراعاة لحقوق الشعب الذي جوع وجهل •

وقد رأينا ان الحكومة الجزائرية خصصت اليوم ما يقرب من مائة مليار فرنك قديم ، ولا يزال التعليم لم يشمل ابناء الجزائريين قاطبة .

ونتج عن ذلك نتائج ايجابية بالقياس الى الشعب الجزائري منها :

١ ــ ان الجزائريين ظلوا بمعزل في معظمهم عن الاحتكاك بالفرنسيين المستعمرين .

٢ ــ ان الجزائريين ظلوا ، من اجل ذلك ، جاهلين بلغة الفرنسيين وحضارتهم ، فزادهم ذلك تعلقا بالحضارة الاسلامية ومقوماتها الروحية السامية ، وتشبثا بلغتهم الوطنية .

(6)

وإما ان هناك كتابا باللغة الفرنسية وهم جزائريون ، فهم بالرغم من انهم لم يكونوا يصطنعون غير هذه اللغة في التعبير عن آرائهم ،وافكارهم ونظراتهم الى الوجود ، ومذاهبهم في الحياة ، فان هذه الآراء في حد ذاتها لم تكن تعدم في كثير من عناصرها ، واصولها ، الروح الجزائري النابض . فقد كان الذين يكتبون منهم عن الحياة في فرنسا مثلا ، يحتالون في ان يتحدثوا عن موضوع له صلة قوية ، او ضعيفة بحياة الجزائريين هناك ، كما نجد في رواية «رصيف الازهار لم يعد يجيب » . اما الذي كان يعالج الحياة في القبائل الكبرى ، او الحياة الجزائرية في غير القبائل من ارض الوطن ، فانك لا ريب تشعر وانت تقرأ ما كتب ، بان الشخصية الجزائرية تتجلى بقوة ووضوح في هذا الادب .

ولو نجح الفرنسيون في فرنسة العقول الجزائرية نجاحا كاملا ، لما راودت اي جزائري منا فكرة العربية والعروبة ، ولما حن احد منا الى ماضيه العظيم ، ولا الى تاريخه المشرق ، ولا الى اصله العريق ، ولا الى حضارته الغنية بالمقومات الروحية والانسانية والاخلاقية .

(7)

وعلى اني لا اريد ان اعطي لهذه الآداب الجزائرية التي كتبت بالفرنسية كل هذه الاهمية التي قد تدرك من بعض ما قررت ، وان اضعها

في غير ما وضعت فيه ، فان رأيي في هذا الادب سيء جدا ، وقد اكون فيما ارى ، وقد اكون قاسيا فيما احكم ، ولكنني لا اريد ان اكون منافقا في آرائي ، فاجهر بغير ما اخفي ، واظهر غير ما ابطن .

ولو اردت ان اقول ما اعتقد ، لقررت بان هذا الادب غريب في نفسه ، ومنفي من موطنه الذي كتب فيه . ولم يستطع ان يلعب دورا كبيرا في نهضة الادب المعاصر بالجزائر ، فضلا عن ان يلعب دورا خطيرا في اذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري ان يكسر قيود الاستعمار الثقيلة . وقد قررنا منذ قليل بان حرمان معظم الجزائريين من التعليم الرسمي الفرنسي ، ادى الى نتيجة عكسية خطيرة بالقياس الى وجود الفرنسيين في الجزائر . وانما يدل هذا على ان الجزائريين الذين لم يتعلموا الفرنسية ، او تعلموها الى جانب تعلمهم العربية ، ظلوا ينظرون الى هذه اللغة الاستعمارية نظرة حذرة فيها كثير من الخوف والاشفاق . فكان ذلك مما باعد الشقة بين الجانبين ، وعسر التفاهم بين الفرنسيين كمستعمرين ، وبين الجزائريين كمواطنين وطنيين .

(8)

وقد ظل هؤلاء الكتاب الجزائريو ن ، بالفرنسية ، في معظمهم ، معجبين كل الاعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص ، والحضارة الغربية بوجه عام ، جاهلين بالتاريخ العربي ، غير ملمين بمعالم الحضارة الاسلامية اذ أنى لهم ان يدركوا شيئا من ذلك وهم محرومون من الالمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي وكنوز حضارته الغنية بمعطياتها الانسانية اطلاعا حقيقيا خاليا من كل الشوائب والشرور ؟

فقد كانت هذه الحضارة العربية ومعطياتها ، بالقياس الى كتابنا بالفرنسية ، في بيت مغلق وهم لا يملكون مفتاحه ، ولم يكن لهم سبيل ليملكوه .

لسنا نتهمهم بغير هذا ، فلم تكن تنقصهم الوطنية ، ولم يكن ينقصهم الشعور بالمسؤولية كما يقال ، وانما كان ينقصهم شيء واحد فقط ، ولكنه عظيم الاهمية ، وهو الالمام باللغة العربية التي كان شعبهم يتحدثها ، فحرموا كل شيء .

وعلى ان تعلمهم الفرنسية جر عليهم مصيبة لا تبرح بعض آثارها ماثلة في المجتمع الجزائري الى اليوم ، وهي انهم اقبلوا على محاربة العربية مع من يحاربها من الفرنسيين ، متهمين اهلها بالجمود ، رامين اصحابها بالقصور ، مسلطين عليهم كل وصمة ، وملحقين بهم كل عار وشنار .

والذي يتأمل هذا الامر ويسبر اغواره ، يعذر هؤلاء القوم ... فهم ليسوا مذنبين من حيث انهم اقحموا في مدارس فرنسية وهم اطفال لا يملكون من امرهم شيئا ، فشربوا من ألبان هذه اللغة ، وتغذوا بغذائها ، والموا بتاريخها ، وتشبعوا بآدابها . فهم اذن من هذه الوجهة معذورون .

ولكن هذا العذر الذي التمسناه لهم ، لا يلبث ان يزول ، اذا ذكرنا انهم تنكروا للغتهم ، وحكموا عليها بالقصور والجمود وهم لها جاهلون . ومن الخطأ العظيم ، والاثم الكبير ان تحكم على شيء وانت اجهل الناس له ، وابعدهم عن معرفة حقائقه ، وفهم كنهه . ولو حكم قاض على متهم بجريمة او مخالفة بالسجن او الاعدام ، دون ان يكون قد الم بملف المتهم فاشبعه دراسة ، معتبرا كل القرائن والظروف التي تحيط بالجريمة او المخالفة ، لما ارتبنا في انه قاض غشوم ظلوم لا يعرف الحق ، ولا يحترم العدل والانصاف .

فكيف بهؤلاء الذين حسبوا العربية لغة الجمود والتأخر ، فراحوا يكيلون لها التهم ، ويرجفون في شانها بالاباطيل التي لا تقال . ولعل اشد هؤلاء مغالاة كاتب ياسين الذي لا يبرح يغط في بعض النوم ، حين يزعم ان العربية قد تبقينا متأخرين ، فقد نشر منذ نحو سنتين فصلا في بعض صحفنا المكتوبة بالفرنسية يزعم فيه بعض ذلك ...

(9)

فكأني بهؤلاء السادة وهم يحسبون ان اللغة هي التي تقدم الشعوب ، ولو ادركوا الحق واهتدوا الى سبيله ، لعلموا ان الشعوب الحية العاملة هي التي تقدم اللغات . فكم من شعب متأخر وهو يتحدث الفرنسية ، ولم تنفعه هذه اللغة في شيء . وكم امة خاملة لا شأن لها في

النباهة والمجد ، وهي مع ذلك تتحدث الانجليزية •

وقد وجدنا اللغة الصينية من اللغات التي لم تنتشر في العالم ولم يقبل على تعلمها الناس ، ومع ذلك فان الصينيين صنعوا بها القنبلة الذرية، وامسوا من الدول التي يحسب لها الحسبان • وقل مثل ذلك في اليابان وما حققته من تقدم صناعي عظيم ، دون ان تتبنى لغة اجنبية اكثر انتشارا واشهر في العالم ذكرا •

انما اللغة كائن حي يتطور ويجمد ، ويتأخر ويتقدم ، ويحيا ويموت كالانسان بالذات • فعسى ان يقتنع بعض هؤلاء الناس ، بان الامة التي تريد ان تتقدم حقا ، وتسود حقا ، فان اول ما ينبغي ان تفعله ، هو أن تقبل على لغتها فتحييها وتتشبث بها ، ولا سيما اذا كانت لغة حضارية كالعربية • والا فهي امة مهرجة لن يكون لها شأن في التاريخ اذا راحت تبحث عن نفسها في لغات غيرها من الامم •

(10)

وعلى ان هنالك مسألة نفسية لا بد من اثارتها في هذا المقام ، ولا بد من اعطاء راينا فيها واضحا ، ذلك بان كثيرا ممن يجهلون حقيقة روح المواطن الجزائري ، يرون ان الجزائري متفرنس بالطبع ، طالما كان يصطنع الفرنسية ويرطن بها • ونحن نحسب ان هذا الرأي سيء جدا ، وهو غير قائم على اساس من الحق والنصفة ، فلم يكن الجزائري بمتفرنس القلب البتة •

وتدل على ذلك دلائل ، وتشهد له شهادات ، وتبرهن عليه آيات بينات • وما اخال الا ان اكبر هذه الايات واعظمها ثورة الجزائريين على وجود الاستعمار الذي نحن بصدد الحديث عن لغته ، ومدى تاثيرها في حياة الشعب الجزائري وتفكيره .

هذه واحدة •

واما الثانية ، فهي ان الثقافة الفرنسية ــ كما اسلفنا ــ لم تتمكن تمكنا عميقا الا من نسبة من الجزائريين الذين اتيح لهم ان يدرسوا في المدارس الفرنسية على نحو واسع ، مما جعل عامة الشعب الجزائري يظل جاهلا بالادب الفرنسي ، والتاريخ الفرنسي ، والفكر الفرنسي في عمقه

واصالته .

وحتى اولئك الذين كنت تجدهم في المدن الجزائرية ، يتحدثون اليك بالفرنسية ، حين يدعوهم داعي الاضطرار ، او داعي الاختيار سواء، ليسوا في حقيقة امرهم ، الا اصحاب كلمات فرنسية معدودة لا تكاد تعبر الا عن المعاني السطحية والمظاهر الحسية . اما ما وراء ذلك من المعاني العميقة ، والافكار العالية ، فقد تجدهم عنه بعيدا .

واذن ، فاصالة الشعب الجزائري ، وحنينه الى عروبته ، واهمال الانسان الجزائري في البادية اهمالا كليا واغلاق ابواب المعرفة في وجهه ، كل هذه العوامل تجعل الباحث يقرر بحق ، بان الجزائر كانت مستقلة من الناحية الاجتماعية ، عن الاستعمار الفرنسي استقلالا يكاد يكون تاما . ولا نكاد نستثني من ذلك الا بعض المدن التي كانت تكتظ بالاوربيين كبلعباس ووهران مثلا .

فهل يحق لنا ان نقول بعد كل هذا : ان البادية والقرى الجزائرية لم تفد من وجود الاستعمار الفرنسي الذي كان طويل العمر في هذه الارض ، لا اقتصاديا ، ولا حضاريا ، ولا ثقافيا ، ولا اجتماعيا ، ولا لغويا ، بل ظل المجتمع الجزائري في البوادي والقرى النائية ، على ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسي : لم يتقدم ولم يتأخر ، ولم يتبدل ولم يتغير ؟

انا نميل الى ذلك كل الميل .

ذلك بان تحويل المجتمع من طور الى طور ، يستدعي التمازج والتخالط والتعامل على نحو من المساواة تام . وقد وجدنا الاستعمار الفرنسي منطويا على نفسه ، بحيث لم يكن اهله يمازجون الجزائريين ،ولم يتعاملوا مع الشعب على نحو من المساواة قط ، ولم ينظروا الى هذا الشعب في مجموعه على انه يتألف من بشر جديرين بالاحترام والحرية والحياة ، فساء ظن الجزائريين بالمستعمرين ، وعزفوا عن عاداتهم ، ونظروا اليها نظرات حذرة فيها كثير من الاشفاق .

وقد ظل هذا الصراع الاجتماعي الحاد قائما بين الجانبين الى ابان الثورة الكبرى ، بل الى سنة اثنين وستين من هذا القرن ، وهي السنة التي اعترفت فيها فرنسا بسيادة الشعب الجزائري .

(11)

واذا كان الفرنسيون ظلوا مشفقين من ان يقتبسوا شيئا هاما من العادات والتقاليد الفرنسية عن طيب نفس ، فانهم كانوا اكثر إشفاقا ،واشد حذرا ، من ان يبعثوا بابنائهم الى المدارس الفرنسية لانها كانت تلقن الاطفال الجزائريين الذين يسمح لهم بولوج هذه المدارس لغة ليست منهم وليسوا منها في شيء ، ولانها كانت تقدم اليهم معارف غربية بعيدة عن الروح الجزائري .

تلكم بعض الاسباب الرئيسية التي حظرت اللغة الفرنسية وثقافتها من ان تتمكن من عقول عامة الشعب الجزائري .

(12)

ومن الظلم ان يعتقد معتقد بأن الشعب الجزائري كان يأتي شيئا مما ذكرنا من عزوف عن الفرنسية تلقائيا ، دون ان يوجهه في ذلك موجه ، او يقوده قائد ، فان مثل هذا الاعتقاد لا يستقيم .

فماذا اذن ؟ ان الذين يلمون بتاريخ الفكر الجزائري المعاصر لا يمترون في ان الرجل الاول الذي ايقظ الامة الجزائرية خلال المرحلة الزمنية التي نعالجها في هذا البحث وبعثها من مرقدها ، وذكرها بعروبتها، وجدد لها مفهوم الاسلام في عمته وشموله وسماحته ، انما هو عبد الحميد ابن باديس .

واذا كان كثير من مثقفي الجزائر ـ ثقافة تقليدية ـ قبل ابن باديس ، كانوا يعتنقون مثل ما كان يعتنقهو من آراء ،فان اولئك المثقفين لم يصدعوا بالدعوة ، ولم ينهضوا لنشرها بين المواطنين ، ولم يغامروا في تحدي الاستعمار على ضراوته وشراسته وحقده على العربية واهلها ، والاسلام الصحيح ومعتنقيه .

فابن باديس هو اول من صدع بالدعوة جهارا ، وانبرى لاذاعتها بين الشعب الجزائري على اختلاف طبقاته . هذا هو الفرق بين ابن باديس وبين اولئك المصلحين الاخرين المنزوين . وما قيمة آرائي اذا ظلت متوارية في اعماق نفسي ؟ وما شأن ثورة انتوي القيام بها ولا افعل ؟

ومن اعظم مظاهر ثورة ابن باديس في رأينا ، تاسيسه مدارس عربية، تدافع عن الشخصية الجزائرية ، وتنافح عن اصالة عروبتها من ان تطغى عليها العجمة والرطانة .

(13)

حقا ، ان الفرنسيين اسسوا آخر الامر مدارس ثلاثا : في تلمسان ، والجزائر ، وقسنطينة ، ولكن ما ذا ؟ اليس أن الذين كانوا يدرسون بها ، اساتذة فرنسيون ؟ بلى . ودعني من اساتذة الفرنسية وآدابها ، فلست عنهم اتحدث ، وانما اتحدث عن اساتذة العربية . وانت ان كنت تجد في هذه المدارس بعض المدرسين الجزائريين ، فان كثيرا منهم كانـوا ممن تتلمذوا على المستشرق هنري بيريس . واي خير يرجى ممن يتلقى عـلوم العربية على المسيو بيريس ؟ أو تلامذة المسيو بيريس ؟ انه من السفـه والضلال ان يظن ظان أن تلامذة المسيو بيريس يحسنون العربية ويعرفون مقدارا صالحا صحيحا عميقا من آدابها .

ودعني ممن عمل منهم عملا عصاميا ، وجاهد نفسه جهادا شديدا حتى انسلخ من اطار روح المسيو بيريس واصحابه ، ثم ذاب في الـروح العربي القح في صفائه ونضرته فدرس العربية في مصادرها الصحيحة الاولى، وحاول ان يتلقاها عن اهلها ، فاتقنها ونال منها اطرافا صالحات ، فلست عن مثل هذا اتحدث ، ولست اليه اسوق هذا القيل العنيف . فليطمئن بالا ، وليظن خيرا .

(14)

ويخيل الينا ان خريجي هذه المدارس الثلاث ، مع احترامنا لكثير منهم احياء وامواتا ، لم يقدموا للجزائر في مجال المحافظة على اللغـة العربية خيرا كثيرا ، ولم يضيفوا الى مجدها شيئا ، فهـم فيمـا بينهم يتحدثون اكثر ما يتحدثون بالفرنسية ، وهم فيما بينهم وبين انفسهم لا يؤمنون بالعربية ايمانا ثابتا ، ولا بالحضارة العربية ايضا . ولست انطق الا بما اعلم ، فقد خالطت كثيرا منهم فوجدت فيهم بعض هذه الصفات التي اذابتها الثورة فلم نعد نراها اليوم فيهم الا لماما . وانما نحن نتحدث عن الفترة التي تقع قبيل الثورة الكبرى .

فقد كان هؤلاء الخريجون موظفين لدى الدولة ، قد أمنوا الجوع وشره ، والبؤس وخزيه ، فغدوا يحيون في النعيم ، ويرفلون في البذخ وادعين مطمئنين ، لا تحاربهم الشرطة الفرنسية فيمن تحارب ، ولا تزدريهم فيمن تزدري • في حين كان زملاؤهم خريجو المعاهد العربية مهانين ، فزعين ، غير آمنين على انفسهم من الاستعمار وسطوته ، وغير مطمئنين على اهليهم من أن يلم عليهم الجوع ! والجوع في لغتي هو الفقر الشديد، او البؤس الذي يبلغ حد الخزي • فكانوا يباشرون اعمالهم في المدارس التي كانت تسمى حرة ، وهم خائفون فزعون : لا يفرخ لهم روع ، ولا يسكن لهم جنان • وكيف لا يفزعون ، وقد كانوا يعلمون لغة ما اشد بغض الاستعمار لها ، واخوفه منها ؟

فلم تكن هذه المدارس الا ثورة ثقافية في الجزائر ، ولم تكن الا نذيرا او بشيرا ، بقرب نهاية وجود الاستعمار ونظامه القذر •فكان الطفل الجزائري الذي يختلف الى هذه المدارس العربية ، كأنما يدرس في دمشق او القاهرة او بغداد : كل شيء عربي ، وكل مادة تعليمية تقدم اليه بالعربية، في لهجة فصيحة سليمة : تحث على الخير ، وتهدي الى الفضيلة ، وتذكر بجلال الوطن ، وعظمة الاجداد ، وتبعة المستقبل •

كانت هذه المدارس بمثابة حرب شعواء على وجود المدارس الفرنسية، والضعضعة من قيمتها ، والحط من سمعتها • فبعد ان كان الاطفال في الجزائر يزاولون ضربين اثنين من التعليم لا ثالث لهما وهما :

اما ان يترددوا على المدارس الفرنسية الرسمية ، وهم اذن انما يدرسون في « ليكول » • واما ان يختلفوا الى الكتاتيب القرآنية في القرى والمدن ليحفظوا القرآن الكريم وشيئا من « المرشد المعين » لابن عاشر ، او طرفا من اجرومية ابن جروم • واذن فهم انما يدرسون على « فقيه » ، وهم « محضرة » • (بفتح الميم وفتح الحاء المشددة وسكون الضاد) •

بعد هذه المرحلة ، اصبح الاطفال في الجزائر يزاولون لونا ثالثا من التعليم ، وهو الاقبال على مدارس عربية ، معلموها جزائريون عرب، وهذه

المدارس مدارس ، وليست « مساجد » او « جوامع » او « خرابيش » [1]

وهكذا اصبح الطفل الجزائري الذي كان يختلف الى هذه المدارس العربية العصرية يختال على التلميذ الجزائري الذي يتردد على مدارس فرنسية رسمية ، لانه لم يعد ذلك الطفل المهمل الجاهل الذي يردد آياً من القرآن الكريم ويحفظها دون ان يعرف عن الحياة شيئا اكثر من ذلك •

(15)

والشيء الذي يزيد من اعجابنا بهذه النهضة المباركة ، انها لم تنشأ في ارض سيدة تحكم نفسها بنفسها ، كما انها لم تنشأ في شعب كان من الوعي الثقافي بحيث يستمع الى الحق فيتبعه ، ويسترشد بالرشاد فلا يزوغ عنه • وكيف ترجو من شعب خيم عليه الاستعمار دهرا متطاولا ، ان يكون واعيا كل الوعي ؟ فلولا بقية من ذكاء هـذا الشعب ، وقبس مـن نور الاسلام ، وطرف من تاريخه الاصيل ، لأمسى معدودا في المتلاشيات • اذ لم تكن مهمة الاستعمار الفرنسي تستهدف الحكم والسيطرة السياسية وحدها ، بل كانت ايضا ترمي الى التفرقة والفساد ، والى تشجيع الشعبذة والضلال • مما جعل الشعب الجزائري ، وكل شعب استعمر ، يجتر هذا الشر الى اليوم ، ومما جعل المصلحين والمفكرين والثوريين الجزائريين ، يلاقون اعنف المعارضة •

ولسنا نريد ان نقول ان الشعب الجزائري غير ناضج ولا ذكي ،فهو لا يميز بين الخير والشر، ولا بين الحق والباطل، ولا بين الحسن والقبيح، وانما نريد ان آثار الفساد التي بثها فيه الاستعمار ، كادت تزيحه عن مصام الحق فغدا يصطرع مع نفسه : بين البقاء على شيء عرفه في الماضي ، وبين التطلع الى شيء جديد يغير له كل المفاهيم للامور التي كان يعتقد انها صحيحة سليمة ، او كان يرى فيها المثل الكامل للحياة •

فهو اذن صراع ذاتي ، ولكنه قوي عارم : بين ان يخلص من ماض

---

(1) كان يطلق الخربيش على غرفة اقراء القرآن ، وهو غير المسجد ، لان المسجد كان خاصا بالصلوات والاحتفالات الدينية والمقامات العامة ، اما الخربيش فكان بمثابة القسم الدراسي اليوم .

مفعم بالعنف والبؤس والاضطراب ، وبين ان يتبنى مذهبا جديدا في الحاضر يكفل له السعادة والعيش الكريم في مستقبل الايام .

وهذا الصراع الذاتي دليل على حيوية الشعب الجزائري ووعيه ، كما كان الصراع اللغوي مظهرا من مظاهر الصراع السياسي الذي عنف بل انفجر في فاتح نوفمبر وادى الى السيادة والحرية .

(16)

ولكن ذلك الصراع بأنواعه لم يك الا استجابة طبيعية لنفسية هذا الشعب الذي حارب الرومان حربا شديدة ، وقاوم المحتلين الاقدمين مقاومة رائعة ، فلما جاء العرب فاتحين باسم الاسلام ، لم يستقبلهم استقبالا حسنا ، بل حاربهم اعنف حرب ، واسلم ثم لم يلبث ان ارتد مرارا تترى . ولم يدن بالاسلام حتى اطمأن بأن نية العرب المسلمين طيبة ، وطويتهم سليمة ، فانضم اليهم ، ولم يلبث ان غدا يفتح معهم بلدانا اخرى.

وكل ذلك يدل على صلابة هذا الشعب ، وقوة عزيمته .

ثم ماذا ترى من آية ، بعد ذلك ، تستدل بها على عناد هذا الشعب وصلابته ؟

ان الاستعمار الفرنسي مع ما يملك من مال ، وعدد، وعدة، واجهزة، وشعبذة ، وتضليل ، وتسخيف ، وتخدير ... لم يستطع ان يصنع له شيئا حين ازمع على ان ينبذ عنه سربال المهانة ، ويلقي عنه لباس الذلة . واي ذلة اخزى من ان يظل شعب عربي يحمل الجنسية الفرنسية ؟ على ما قدمت الحضارة العربية للانسانية من معطيات لا تبرح كثير من آثارها ماثلة للعيان الى اليوم في اوربا وغير اوربا من الارض ؟

(17)

فلا عجب اذا رأيت هذا الصراع يحتد ويمتد حتى يشمل الجزائر كلها، والجزائريين في معظمهم ،فاذا الجزائريون المثقفون بالعربية ينهضون لصراع الاستعمار وكأنه صراع طبيعي لتأصل جذوره في انفسهم ، مع ما كان يجشمهم ذلك الصراع من عذاب ونكال .

وان ادري اتستطيع ــ والخطاب ليس للجزائريين المعاصرين ، وانما

هو للاجيال الصاعدة وللامم التي تريد ان تعرف شيئا من تاريخنا — ان تتصور الحنق الذي كان المستعمرون يحملونه لكل من يتحدث العربية بالجزائر ، بله ان يعلمها، بله ان ينادي بأن تكون لغة وطنية تعلم في المدارس الثانوية الى جانب الفرنسية[1] ، ام لا تستطيع ؟

ثم ان ادري أتستطيع ان تتصور الحقد الاسود الذي كان المستعمرون يحملونه لكل ما هو عربي ، ولكل ما فيه طرف من عروبة ، ام لا تستطيع؟

فان كنت لا تستطيع ذلك ، فما انا بقادر على ان اصنع لك شيئا ذا بال • لان مثل هذا التصوير ، ان اردنا ان يكون دقيقا او قريبا من الدقة، ينبغي ان يملأ المجلدات الضخام ، والاسفار الكبار • واحسب ان هناك اشياء ، لا سبيل للاقلام عنها ، ولا للالسنة عليها ايضا ، لانها فوق قدرة الالسنة ، ووراء طاقة الاقلام •

فقد كانت العربية ، بالقياس الى فرنسية المستعمرين في الجزائر ، بمثابة الضرة الغيور ، والعدو الحقود اللدود •

ارأيت لولا هذي العربية التي شاء القدر ان يكون مؤثلا مجدها ، عريقا تاريخها ،طويلا ماضيها ، ساحرة الفاظها ، جميلة انغامها ، دقيقة تعابيرها ، واسعة موادها ، غنية مجازاتها ، واسعة استعمالاتها، لما شق على الفرنسية ان تتبوأ من قلوب الجزائريين المنزلة التي كانت تريد •

(18)

وقد سقط في ايدي المستعمرين بالجزائر فلم يدروا ما يصنعون ازاء هذه الظاهرة اللغوية القويه ، فلم تك هذه العربية لغة الجزائريين وحدهم، ولا لغة الحياة اليومية وحدها ، اذن لما عسر عليهم ان يمحوها من قلوبهم والسنتهم مهما تجشموا في ذلك من متاعب ومصاعب ، ولكنها كانت لغة العرب جميعا ، ولغة الاسلام في شعائره وصلواته • وما يصنع المستعمرون الفرنسيون ازاء كل هذا ، والعرب عن ايمان الجزائريين وعن شمائلهم ؟

فلم يجدهم ما جنسوا به العرب الجزائريين من جنسية فرنسية ، ولم تنفعهم جميع الشكليات الادارية والسياسية والقانونية التي قيدوا بها

---

(١) عيون البصائر للابراهيمي : ١٧ .

ارجل الجزائريين وايديهم تقييدا شديدا • فلا هذه الفرنسية تمكنت من قلوب هؤلاء العرب المغلوبين على امرهم كل متمكن ، ولا هذه العربية امحت وعزفت عن نفوس هذا الشعب الشديد العناد ، الصعب القيـاد ، ولا الفرنسيون المستعمرون خففوا من وطأة هذه التضييقات ، وهـذه الاكبال فيستريحوا ويريحوا! •

ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، فاشتد احتدام الصراع بين العربيـة والفرنسية في الجزائر ، خلال الفترة التي تتحدث عنها ، اشتدادا لا نظير له ، لقي فيه اهل العربية كثيرا من العنت ، واحتملوا كثيرا من النعسف والهوان : فسجن الابراهيمي ، وهو احد معلمي العربية يومئذ ، وسجن غيره كثير ممن لا يحصون عددا •

والذي يدل ايضا على مقت الفرنسيين الحاكمين يومئذ ، للعربية ، ما كانوا يبدونه من معـارضة وتلكؤ ، حين كان اهل مدينـة من المدن الجزائرية يريدون بناء مدرسة عربية•فقد كان اهون وايسر على الجزائريين ان يصنعوا كل شيء ، الا ان يفعلوا ذلك • ولم يكن احد من الجزائريين العقلاء يطمع في الاستعمار ان يعين بمال مثل هذه المشاريع التعليميـة ، او يشجعها ببعض التسهيلات ، فقد كان ذلك لونا من المحال •

ومن مظاهر هذا الصراع ايضا ، ما كان يعانيه مقرىء القرآن مـن اهوال قبل ان « يشارط »[1] في قرية من القرى النائية ،فان الاستعمار كان لا يرضى ان يفعل شيئا من ذلك حتى يتقدم بطلب رخصة • واضحك ان اردت الضحك من هذه الرخصة • لان معناها المعارضة الشديدة في الاذن له باقراء القرآن ، أي معنى كل ذلك ان السلطة كانت ترفض ، او تتلكأ تلكؤا شديدا ، في منح هذه الرخصة لذلك « الفقيه » المحروم •

(19)

وان تعجب فانما عجب من شعب يربأ بأبنائه ، ان يبعث بهم الـى

---

(1) كانت تطلق هذه الكلمة على الاتفاق الذي يقع بين مقرىء القرآن الصبيان ، وبين اهل القرية الذين كانوا يسمون « الجماعة » من حيث هو كان يسمى « الفقيه » ولو لم يكن فقيها . وهم شارطوه وهـو شارطهم ، وبينهم الشرط . وهذا شعير الشرط .

مدارس فرنسية ، على ما فيها من مغريات ، وعلى ما تقدم لتلاميذها من تشجيعات ، وعلى ما تهبهم من صلات ، وينشط في جمع الاموال ، ويحض الناس على تقديم التبرعات والزكوات الشرعية ، حتى يتم له بناء مدارس عربية بحتة ، وهنالك يرسل اليها ابناء ، وهو راض سعيد •

فما اروع هذه الظاهرة في تاريخ هذه الامة العظيمة ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون !

لم كان هؤلاء الجزائريون يرسلون ابناءهم الى المدارس العربية الحرة ، ويقاطعون — في كثير من الاحوال — المدارس الرسمية الفرنسية ؟ وكيف آثروا الاولى على الثانية ؟ وماذا كان يدفعهم الى ذلك الصنيع ؟

والجواب على هذه الاسئلة واضح معروف عند من الم بتاريخ الجزائر المعاصر : فهم انما جاءوا ذلك لانهم كانوا يؤثرون ان يكونوا عربا لا فرنسيين ، وسادة لا عبيدا ، وكراما لا لئاما •

فلم يكونوا ينظرون الى الفرنسية الا على انها لغة اجنبية ، يتكلمها قوم اجانب عنهم ، وهم لا بد عنهم يوما من المنجلين او المطرودين •

(20)

وكان الاستعمار يدرك هذا ادراكا تاما ، ولذلك كان ينصب على مدرسي هذه العربية بالحرب ، ويصب عليهم اسواط العذاب ، ويقذفهم بالتهم ، ويلحق بهم كل اذاة ومكروه •

قد تبدو هذه الاراء لاهل العلم ، انها تعول على العاطفة ، وتستند الى الهوى ، لاني لم ادلل عليها بالدلائل ، ولم ابرهن عليها بالبرهانات ، وانما انا اتحدث بعيدا عن الاستشهاد بالنصوص ، واسوق دراسة خالية من اراء سواي من الناس •

وان اكاد لاقرر بان هذه تهمة لا تستقيم ، ووجه لا ينتظم ، اذ كنت اتحدث عما شاهدت ورأيت ، ولمست وجربت ، وبلوت وسمعت • وما بعد المشاهدة من دليل ، وما فوق العيان من بيان •

ولاهل العلم ان يعدوا هذا الفصل بمثابة تقرير رجل معاصر يسجل

فيه ما كان يرى ويسمع [١] .

(21)

وكذلك ظل امر هذه العربية ، وهذا الاستعمار ولغته يصطرعان . ولكن العربية كانت تصرعه ولغته . وكان يغالبها ، ولكنها كانت في معظم الاحوال تغلبه ، فيزيد حقده عليها ، ونقمه منها ، وبغضه لها ، ويضاعف غيظه عليها اضعافا لا تبرح بعض آثاره ماثلة لكل متتبع لمظاهر النهضة الادبية في الجزائر .

ومن اكبر الدلائل على ذلك ، ان طلاب معهد ابن باديس بقسنطينة، وطلاب جامعة القرويين بفاس ، وطلبة جامعة الزيتونة بتونس ، كانوا يستنطقون من قبل اعوان الاستعمار حين كانوا يؤبون الى اهلهم بالقرى النائية اثناء العطل الصيفية . وكان هؤلاء الاعوان متكالبين على هؤلاء الطلبة تكالبا شريرا خسيسا ضاريا يجعل هؤلاء الطلاب المساكين يقضون عطلهم في جحيم ، بحيث لا يكادون يظهرون في الاماكن العامة والاسواق علنا . اذ كانوا مطمئنين الى ان هؤلاء الاعوان كانوا يتربصون بهم الدوائر، ويرقبونهم في كل مكان .

وقد اشتد هذا وازداد ابان قيام الثورة الكبرى في سنة اربع وخمسين .

(22)

تلك بعض مظاهر هذا الصراع العنيف الذي ظل مضطرما قائما بين العربية والفرنسية خلال المرحلة التي نحاول ان نلقي عليها شيئا من الضياء بهذه الدراسة ، فكان المستعمرون يزدرون شيوخ العربية ويهينونهم في نفوسهم ، ويؤذونهم جسومهم ، فلا يزيد ذلك هؤلاء الا تمسكا بهذه اللغة ، وايلاعا بنشرها بين التلامذة في هذه الارض .

فظلت العربية والفرنسية تصطرعان ، وتظاهرت العربية بالضعف والخور ، الى ان امكنتها الفرصة العظمى : فرصة الثورة العقائدية بعد الثورة السياسية ، فانقضت عليها انقضاضة عاتية فصرعتها .

وها هي ذي اليوم ، اللغة الوطنية الاولى : يتكلمها الاطفال افضل من آبائهم ، ويلقنونها في مدارسهم فيقبلون عليها اقبالة الظامىء على الماء البارد الزلال .

---

(١) هناك نصوص كثيرة دالة على ذلك فاتنا اثباتها في هذا الفصل ، ومن اراد ان يلم ببعضها فليعد الى جريدة البصائر مثلا في الاعداد التالية : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٨ (السلسلة الثانية) .

الفصل الثاني

المراكز الثقافيّة في الجزائر قبل الثورة

(1)

لا يستطيع الباحث ان يجلو الغموض الذي يرين على هذه المسألة ما لم يعرج على الاسواق الادبية التي كانت نافقة قبل اندلاع الثورة ، ويعرج على امكنتها او مراكزها يستنطق التاريخ . ولا اقول : يبكي الاطلال ، ويندب الديار .

فلا تقوم للادب قائمة ، ولا تربح له سوق ، ولا تخفق له راية ، حتى يكون له رجال ينافحون عنه ، ويدافعون عن كيانه ، ويحتفون بشخصه . ثم لا يكون لهؤلاء الرجال شأن ، حتى يكون لهم امكنة يضطربون فيها ، ونواد يغشونها آناء الليل واطراف النهار . وبعبارة اخرى قد تكون اوضح ، فان الظاهرة الادبية ، كالظاهرة التاريخية سواء، لا يكون لها وجود ما ، حتى ينبغي ان تكون ذات مكان وزمان .

اما الزمان فقد حددناه في هذا الكتاب ، واما المكان ، او الامكنة التي نريد ان نتناولها في هذا الفصل فهي كثيرة ، وانما آثرنا ان نبحث في اعظمها شأنا ، واشهرها اثرا، وهي ثلاثة : تلمسان، والجزائر، وقسنطينة .

وقبل ان نبحث في شأن هذه المراكز الثلاثة نود ان نعذر الى الناس بأننا لا نستطيع ان نأتي ذكرا على جميع المراكز التي عرفت نشاطا ادبيا قبل الثورة ، لان مثل هذا العمل يستدعي جهدا مشتركا ضخما ، ونحن لم يتهيأ لنا بعض هذا .

١ ـ نادي الترقي بالجزائر :

(2)

لا يغالي الباحث في جوانب نهضة الادب العربي المعاصر في الجزائر،

اثناء العقد الرابع من هذا القرن ، ان يعد نادي الترقي بمدينة الجزائر ، بل في مجموع الوطن ، كعكاظ في الجاهلية في جزيرة العرب ، وكالمربد في البصرة اثناء القرن الاول الهجري . فقد كان هذا النادي مأقطا عظيما يطفح بالنشاط الادبي ، ويفيض بالخصب الفكري ، ويكتظ بالعلم والعلماء ، ويحفل بالخطب والخطباء .

والذي ضاعف من اهمية هذا النادي ، انه امسى مجتمعا لابن باديس وصحابه من اعضاء جمعية العلماء الاسبقين ، ييممونه كل حين ، فيسمعون فيه الى المحاضرين الذين لم يكونوا الا منهم ، ويتحاورون في قضايا الادب ، والسياسة ، والمجتمع ، والدين .

وقد كان النادي ضخما فخما ، بحيث يسع خمسة آلاف شخص ، وكان يشتمل على قاعات وابهاء . [1]

ونحن نؤثر ان نثبت نصا كتبه محمد السعيد الزاهري يصف فيه اجتماعا للعلماء الجزائريين بهذا النادي[2] ، فهو اولى ان يثبت هنا ، لان صاحبه كان يصف ما يرى ويسمع ، فهو بمثابة تقرير امين ، ولما كان هذا النص طويلا لا يحتمله البحث ، فاننا نجتزىء منه بما فيه الشاهد والدليل :

(وعقد المؤتمر في ... نادي الترقي ، وغص هذا النادي بالوفود القادمين من اطراف هذا البلد ، وتنازل الاعضاء من سكان العاصمة وضواحيها عن امكنتهم وكراسيهم لضيوفهم واخوانهم الوافدين ، واكتظ النادي ، وامتلأت مدرجته الفسيحة . واكتظ كل ما فيه من رحاب وابهاء ، وغرف وحجرات ، واكتظت المماشي والممرات ، وامتلأ السلم وكل ما يحيط بالنادي من المقاهي والساحات . وكان ضروريا الخضوع للامر الواقع ، واستعمال عدة مكبرات للصوت .

ولو انت احصيت كل هؤلاء الحاضرين لاحصيت منهم في الاقل خمسة آلاف) [3] .

---

(١) مجلة الشهاب : غشت : ١٩٣٤ ص ٣٧٢ (المجلد العاشر — الجزء التاسع) .

(٢) في الاجتماع السنوي العام للجمعية لسنة : ١٩٣٤ (استقاء من نفس المصدر) .

(٣) الشهاب : م ١٠ — ج ٩ ، ص ٣٧٢ .

يبين لنا هذا النص ان نادي الترقي كان فسيحا واسعا ، وكان يتسع لنحو خمسة آلاف شخص . ولكن ليس هذا الذي نبحث عنه في هذا النص ، وانما الذي يعنينا هو نشاطه الادبي وما كان يستقبل من رجالات الفكر والادب من سائر ربوع الجزائر . وفي النص التالي طرف من ذلك حيث يتحدث لنا الزاهري عن احدى خطب ابن باديس في هذا المجمع العظيم :

« ثم قام الاستاذ الرئيس (ابن باديس) مرة اخرى ، وعرض على الناس الحالة الادبية للجمعية في خطاب استثار الحماسة والحمية في النفوس ، والنخوة في الرؤوس ، واسال من العيون الدموع والعبرات . وكان خطابا محكما وجيزا . وكان آية من آيات البيان » (١) .

ولو وقف الامر عند خطبة ابن باديس وحدها ، وما اثارته في النفوس من مشاعر وحماس ، وما بعثته في الحاضرين من اعجاب واعتزاز ، لما تحدثنا عن هذا النادي ولما خصصنا له كل هذا البحث . ولكن الخطب استمرت فياضة بالبلاغة ، طافحة بالبيان ، اذ قام بعده (الاستاذ الشيخ محمد بشير الابراهيمي) وكيل جمعية العلماء ، والقى خطابا قيما كان له احسن وقع في النفوس . وكان غاية في الاصابة وسداد الرأي (٢) .

والحق ان هذه الكلمة التي ارتجلها الابراهيمي ارتجالا ، صنيع سواه من اساطين النهضة الادبية ، كانت مثار اعجاب شديد ، حتى ان المؤتمرين الحوا عليه ان يعيد عليهم تلك الخطبة في جلسة تالية ، فان كان قد ذهل عنها وانسيها ، فلا اقل من ان يتحفهم ببعض ما يذكر منها على نحو قريب او بعيد مما كان قد حلاها به من البيان العجيب .

وهذه فقر من تلك الخطبة البليغة التي القيت بنادي الترقي حول حياة جمعية العلماء . يقول الابراهيمي :

« ثلاث سنوات مرت من عمر الجمعية ، وما هي بالشيء الكثير في اعمار المبادىء والمشاريع التي تستمد حياتها من العناصر الخالدة ، وان

---

(١) الشهاب : المجلد ١٠ ، ج ٩ ، ص ٣٧٣ .
(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة .

كانت شيئا كثيرا في اعمار الكائنات الحسية التي تستمد حياتها من العناصر الفانيـــة •

ثلاث سنوات مرت ، فعددناها باليوم والشهر والسنة ، اذ كان من حق التاريخ ان يقول عنها كلمة ، ومن حق هذه الكلمة ان تكون منتظمة، ومن حق النظام ان يكون على وضع زماني مخصوص » [١] •

والخطبة طويلة • وفيما اثبتنا منها كفاية • وقد لاحظنا ان لغتهـــا راقية جدا ، فكأني بأولئك الخطباء انما كانوا يتبارون في الفصاحـــة ، ويتنافسون في اظهار التفوق البياني العجيب • ونفهم بعض ذلك مـــن عبارات السعيد الزاهري الذي كان يعلق على الكلمات التي كانت تلقى في هذا الاجتماع ، كأن يقول معلقا على كلمة الابراهيمي : « فأبدع كل الابداع ، واتى بالعجب العجاب » [٢] • او كأن يقول معلقا على احدى الجلسات : « وكانت ميدانا للفصاحة وسحر البيان » [٣] • او كأن يقول في موضع آخر : « ولقد شاهدنا ان الخطابة قد تقدمت تقدما محسوسا بل تقدما عظيما » [٤] •

(4)

وعبارات السعيد الزاهري توضح لنا ان الخطباء والمخطوب فيهم جميعا ، كانوا يحرصون على التفاصح ، ويميلون الى التشدق • وكـــان الحضور من الناس يعجبون وينشطون عند سماعهم الفصحاء ، ويفترون عند سماعهم الاغبياء والاعيياء • كما نفهم من بعض هذه العبارات ان هذه الخطب لم تك فصيحة فحسب ، وانما كان اصحابها يرتجلون الكلام ارتجالا ، ولا يقيدونه على القرطاس تقييدا • ومن المعروف ان المستمعين لا يصيبهم الملل حين يستمعون الى خطيب بليغ يرتجل ، ويشنف الاسماع بآيات ساحرات من البيان • في حين انهم يملون ويضجرون بسرعة حين يحضرون محاضرة تلقى عليهم مكتوبة في كتاب • حتى ان الناس اعجبوا

---

(١) الشهاب : عدد غشت ١٩٣٤ ص ٤٠٣ .
(٢) : الشهاب : غشت ١٩٣٤ ص ٣٧٥ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٧٦ .
(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة

بخطبة الابراهيمي ، وحق لهم ان يعجبوا بالبيان الساحر اذا فاض ، فشق عليهم ان تضيع هذه الخطبة هدرا،فألحوا عليه انيعيدها عليهم ليسجلوها وقد جاهد نفسه جهادا شاقا ليستعيد بعض ما كان قال فيها من قبل ، ثم نشرت في عدد من اعداد الشهاب [1] .

(5)

ولو حاولنا ان نتحدث بتفصيل واسهاب عما اضطرب من نشاط فكري في نادي الترقي ، خلال ثلاثة اعوام وحدها ، وهي الايام التي استغرقها اجتماع ابن باديس وصحبه في اغطست من سنة اربع وثلاثين وتسعمائة والف ، لكتبنا حول ذلك مجلدا ضخما ، فكيف نستطيع ان نتحدث عن نشاط هذا النادي النابض طوال اطوار حياته كلها . ارأيت ان اكثر من عشرين خطيبا وشاعرا دوت اصواتهم في جنبات الترقي خلال الايام الثلاثة .

وهذا ثبت لاسماء بعض الخطباء والشعراء الذين تناولوا كلمات في ندوة عام اربعة وثلاثين بهذا النادي :

١ ــ خطبة لابن باديس .

٢ ــ خطبة للابراهيمي .

٣ ــ خطبة للعربي التبسي .

٤ ــ محاضرة لابن باديس .

٥ ــ محاضرة للطيب العقبي .

٦ ــ محاضرة للابراهيمي حول موضوع : الادب العربي في الحركة الجزائرية الحاضرة .

٧ ــ قصيدة للسعيد الزاهري .

٨ ــ خطبة لبلقاسم الميموني .

٩ ــ حطبة اخرى لابن باديس بمناسبة تجديد انتخابه رئيسا للجمعية .

---

(١) نشرت هذه الخطبة في الجزء التاسع من المجلد العاشر من مجلة « الشهاب » .

١٠ ــ خطبة وقصيدة للهادي السنوسي الزاهري •
١١ ــ خطبة للسعيد الزاهري •
١٢ ــ قصيدة للشاعر ابي اليقظان •
١٣ ــ قصيدة للشاعر محمد العيد •
ثم خطب اخرى وقصائد مختلفة لـ :
١٤ ــ مصطفى بن حلوش •
١٥ ــ بلقاسم الزغداني •
١٦ ــ عمر بن البسكري •
١٧ ــ ابي يعلى الزواوي •
١٨ ــ يحيى حمودي •
١٩ ــ مولاي الحسن التلمساني •
٢٠ ــ بلقاسم بن العيد السوفي [١] •

(6)

والمنصفون من الناس لا ريب يسارعون الى الاقتناع بأن هذا النادي لعب دورا خطيرا اشبه ما يكون بالادوار التي تلعبها الجامعات الحية النشيطة من بعض الوجوه•فالقاء هذا العدد الضخم من الخطب والمحاضرات والقصائد ، في ظروف سياسية وثقافية عصيبة مما يعجب بل يدهش • بالرغم من ان كثيرا من هذه الاسماء التي ذكرت انها حاضرت او خطبت ، لم تكن من الاسماء اللماعة ذات الشأن في تاريخ النهضة ، فان الكتاب الناجحين من هذه الاسماء الكثيرة قليل • ولكن من المؤكد ان كل احد من هؤلاء المذكورين في هذه القائمة كان مخلصا في كلامه ، كما انه من المؤكد ان كل احد من هؤلاء كان يحاول ان يجود في خطبه ، وان يحاول التداني من الملال • فكانت هذه الاجتماعات السنوية في هذا النادي معرضا للتباري الخطابي • فكان كل واحد من اولئك يجاهد نفسه ويشق عليها ويعنتها ، اثناء سنة كاملة ، فيطالع ويحفظ ، ليجدد شبابه العلمي ، وينمي معارفه العامة من العربية وسواها •

---

(١) الشهاب : ج ٩ م ١٠ غشت ١٩٣٤ .

(٧)

ولا نملك الا ان نختم حديثنا هدا عن نادي الترقي بأبيات من قصيدة كان القاها بهذا النادي الشاعر ابو اليقظان ، يتناول فيها هذا النادي ، ويعدد بعض مزاياه :

حيٍّ في نادي الترقي أنفُساً ذاتَ مزيّة
صاحِ هل تعرف ما هي مزاياها السنيـة ؟
في حِمَى النادي تصافَتْ انفُسُ الشعب الزكية
في حمى النادي ترائَتْ للوَلا آيٌ جليّة
في حمي النادي تلاشَتْ هَمزاتُ العنصريـة
في حمى النادي تعالَتْ صَرْخَةُ الشعبِ الدوية
فعلَى النّادِي سلام وتحيّات شديـة [١]

٢ ـ مركز قسنطينة :

(8)

قسنطينة وما قسنطينة ؟ ثم ما ادراك ما قسنطينة ؟ مدينة السحر والجمال ، والروعة والخيال ، والطبيعة والآثار ، والاجبال الشامخة ، والانهار الجارية ، والقناطر المعلقة ، والاشجار الباسقة ، والحصون الضخمة .

كان الاقدمون يطلقون عليها « قسنطينة الهواء » [٢] . وهذه الصفة التي اختيرت لها توحي بما كان فيها من سحر ساحر منذ اغبر العصور . ونحن لا نعلم بالضبط متى بنيت ، ولكن من المؤكد انها عريقة

---

(١) الشهاب : ج ٩ م ١٠ ـ عدد غشت ١٩٣٤ ص ٤١٩ .
(٢) ذكرها ياقوت تحت اسم : « قسنطينة » (بضم اوله، وفتح ثانيه. ثم نون ساكنة ، وطاء مكسورة ، وياء مثناة من تحت ، ونون اخرى بعدها ياء خفيفة وهاء) :

في القدم • ويؤيد قولنا هذا ما ذكر ياقوت من انها مدينة ازلية [١] والازل فيه معنى اعرق من القدم •

(9)

وقد كان لهذه المدينة اهمية قصوى من الناحية العسكرية من حيث ما كان فيها من حصون منيعة ، ومن الناحية الفلاحية من حيث ما كان فيها من امواه واشجار • وقد كانت « مدينة ازلية كبيرة آهلة ذات حصانة ومنعة ، ليس يعرف احصن منها » [٢] •

ويبدو ان كر الايام قد غير من وجهها التاريخي شيئا كثيرا ، فقد زعم المؤرخون الجغرافيون ان انهارها كانت تمخر بها السفن ، فأين اليوم هذه الانهار ؟ وقد ذكروا انها كانت تقع «على ثلاثةانهار عظام تجري فيها السفن قد احاطت بها ،تخرج من عيون تعرف بعيون اشقار (تفسيره :سود)• تقع هذه الانهار في خندق بعيد القعر ، متناهي البعد ، قد عقد في اسفله قنطرة ثانية ، ثم بني على الثانية قنطرة ثالثة ، من ثلاث حنايا • ثم بني فوق ذلك بيت ساوى حافتي الخندق ، يعبر عليه الى المدينة • ويظهر الماء في قعر هذا الوادي من هذا الموضع كالكواكب الصغير لعمقه وبعده [٣] •

(10)

هذا شأن قسنطينة في الزمن القديم ، فما خطبها في الربع الثاني من هذا القرن؟

اننا نعتقد ان مدينة من مدن الجزائر لم تقدم الى هذه الامة ما قدمته قسنطينة من علم نافع للشباب ، وتربية عالية للناشئين، فلا عجب اذا رأيتهم مندفعين يتبارون في التفوق ، ويتنافسون في نيل المكارم ، ويتسابقون الى الظفر بأسمى الدرجات العلمية •

فيالك من مدينة ما اخلد تاريخك ، واطيب ذكرك ، وانشط رجالك•

وما اعظم ان يثير الباحث ذكرى مثقلة بالمجد المؤثل ، طافحة بالنشاط الحثيث ، رائعة بما فيها من اصالة ، نقية بما تتسم به من صفاء وصدق

---

(١) معجم البلدان : ٨٩/٧ (القاهرة) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

واخلاص . ذكرى مدينة عظيمة قادت نهضتنا الادبية والفكرية ردحا من الزمان . فأصبحت عاصمة علمية للبلاد زمنا .

(11)

وليس هنالك من ريب في ان ابن باديس هو اول من بعث فيها الحياة في مطلع الربع الثاني من هذا القرن ، وجلب اليها الشهرة التي تبوأتها في المشرق والمغرب . كان ابن باديس يدرس الطلبة الشباب بمسجد «الاخضر» وكان يلقي محاضرات دينية وتوجيهية على الشيوخ وعوام الناس اثناء الليل . وكان الى ذلك ، يصدر مجلة « الشهاب » التي عمرت نحو خمسة عشر عاما ، وكانت ملكا له ، وقفة عليه ، يحررها بنفسه ، ويحتمل في اصدارها شهريا اثقل الاعباء (١)

ومن الغريب حقا ان يظل ابن باديس حياته بقسنطينة لا يغادرها الا لماما . ولكن هذه الغرابة تنجاب حين نذكر ان الرجل كان قسنطينيا ، فأحب ان يفي لمسقط رأسه بالمقام هنالك آخر لحظة من حياته . وان كان ابن باديس قد اجبر على البقاء بها في اواخر ايامه .

(12)

ولا نستطيع ان نبلغ في هذه المسألة بعض ما نريد ، حتى نقسم حركة قسنطينة الى مرحلتين اثنتين :

فأما المرحلة الاولى ، فتبتدىء بتأسيس مجلة « الشهاب » في نحو سنة خمس وعشرين وتسعمائة والف . وتمتاز هذه المرحلة بالخطابة اكثر مما تمتاز بالكتابة الفنية والتسجيل . حتى ان ابن باديس كان يمضي نهاره في الدرس ، وقد بلغ عدد طلابه سنة ثلاث وثلاثين من هذا القرن ثلاثمائة وستين طالبا . وكانوا جميعا يستمعون اليه ويحضرون دروسه التي كان يلقيها بالجامع الاخضر (٢) . وكان يلقي دروسا خاصة في التفسير ، وقد ختم تفسير القرآن كله ، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا من هذا التفسير الا شذرات قلائل لا تعد شيئا بالقياس الى ما اغفل تقييده ، واهمل تسجيله ونشره ، فران عليه النسيان الابدي . وقد جمع تفسيره هذا الذي كان

---

(١) جريدة البصائر : العدد : ٣٥ (٤٨/٥/٣) .
(٢) المصدر السابق .

ينشر في « الشهاب » فلم يجاوز مجلدا واحدا ٠ والذي يمعن الناظر فيما فسر في هذا المجلد ، يرى ان الذي ذكر ونشر شيء قليل ، وان الذي اهمل شيء كثير ٠

فهل نتدانى من الحق اذا قررنا بأن اهم حادث فكري في هذه المرحلة، في مدينة قسنطينة ، ما تم من ختم تفسير القرآن من قبل ابن باديس ؟

وعلى ان هناك احداثا فكرية اخرى هامة ، مثل تأسيس جمعية العلماء ، ثم اصدار جريدة البصائر الاولى ، وانهاء كتاب « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » من قبل مبارك الميلي ٠

ولكن القطب الذي كان يدور حوله في قسنطينة ــ بل في الجزائر كلها ــ هذا النشاط الفكري والثقافي انما هو ابن باديس ٠ فلا تعجب اذا رأيته يستحوذ على هذه الدراسة حتى في غير الامكنة التي لم تخصص له٠

وتنتهي المرحلة الاولى في مدينة قسنطينة بانتهاء حياة ابن باديس سنة اربعين من هذا القرن ٠

(13)

واما المرحلة الثانية فانها تبتدىء باصدار البصائر الثانية سنة سبع واربعين من هذا القرن ٠ وواضح ان هذه المرحلة يتزعمها محمد البشير الابراهيمي بعد ان خلف ابن باديس في قيادة النهضة الثقافة العربية ٠ يدل على ذلك ان اول عدد صدر من البصائر الثانية في خامس وعشرين يوليوز من سنة سبع واربعين ، كان مستهلا بمقالين طويلين للابراهيمي استغرقا نحو اربع صفحات من الجريدة ، أي ما يعادل نصف صفحاتها ٠ وهذا يبرهن من وجهة اخرى ، على ان الابراهيمي كان يريد ان يعول على نفسه وقلمه بالدرجة الاولى في بعث نشر البصائر من جديد ٠

واهم ما في هذه المرحلة الثقافية في قسنطينة،تأسيس معهد ابن باديس سنة ثمان واربعين وتسعمائة والف ٠

ونحن ادخلنا اصدار البصائر في اطار السوق الثقافية بقسنطينة ، بالرغم من انها كانت تصدر بالجزائر ، لاننا نعتقد ان قسنطينة هي التي كانت تمد هذه الجريدة بالنتاج الضروري ٠

والظاهر ان قسنطينة اصبحت في المرحلة الثقافية الثانية اهم منها في

الاولى ، لان تأسيس معهد للدراسة الثانوية المعربة لاول مرة في تاريخ الجزائر المعاصر حادث هام جدا ينبغي ان يقدر حق قدره •

فقد امست قسنطينة بذلك المركز الاول للثقافة العربية في الجزائر ، وغدا الطلاب ييممونها من اقصى الوطن الى اقصاه ، بل كان بالمعهد بعض الطلبة المغاربة ايضا • ومصدري في ذلك انني كنت احد اولئك الطلاب بالمعهد الباديسي سنة اربع وخمسين ، وخمس وخمسين •

(14)

وقد نشأ عن تأسيس المعهد الثانوي بهذه المدينة حركة ثقافية واسعة شملت تجارة الكتب وتأليفها ، وطبع المنشورات العربية على اختلافها • وتلك نتيجة طبيعية لتكاثر طلاب المعهد وارتفاع عددهم من سنة لاخرى، حتى انهم بلغوا ــ حسب ما حدثنا به من قبل المسؤولين عن المعهد مرارا ونحن طلاب ــ في اكتوبر من سنة اربع وخمسين ثلاثة عشر وتسعمائة تلميذ • وهذا عدد ضخم من الطلاب اذا اعتبرنا تجهيزات المعهد البدائية، وموارده المالية الفقيرة المحدودة جدا •

ونحن نحسب ان سمعة هذا المعهد كانت اكبر من شأنه ، فقد كانت بنايته ضيقة ، وقد كانت قاعات دراسته اضيق • ومع ذلك فقد كانت القاعة الواحدة ربما زج فيها بسبعين تلميذا او نحو ذلك • ولقد يستطيع ان يشهد بهذا كل من درس في قسم « الممر » سنة اربع وخمسين ــ خمس وخمسين •

كما ان الاساتذة الذين يلقون الدروس لم يكونوا جميعا في مستوى الاساتذة الاكفاء الجديرين بحمل هذا اللقب استحقاقا ، فان بعض المبتدئين منهم كانوا ربما عجزوا عن القيام بدرس ناجح مفيد للتلاميذ في نواصب الفعل • ولست اتحدث الا بعلم •

بيد ان الارادة العنيفة الجبارة التي كان الطلاب والاساتذة جميعا يتحلون بها ، جعلت مما لا شأن له ذا شأن عظيم •

(15)

واريد ان اثير مسألة هامة للذكرى ، او للتاريخ ، وهي ان مشيئة المحتلين شاءت ، فيما شاءت ، ان لا تقدم اية منحة لطلاب هذا المعهد ،

على اساس انهم يدرسون العربية وبعض علومها • وكل من يدرس العربية كان شبه مجرم في رأي اولئك المحتلين الحاقدين •

اما تخفيضات السفر المعمول بها في سائر دول الارض المتحضرة ،فان طلبة المعهد المنكودين لم يكونوا يعرفون عنها ، او يجرؤون على المطالبة بها بوجه من الوجوه •

وبالرغم من هذه العقبات الكأداء ، فان هذا المعهد ادى مهمته على احسن وجه ، وان اساتذته بذلوا كل ما يملكون ــ على ما كان ينقصهم من اختصاص وتبحر في المواد التي كانوا يدرسونها ــ وان طلابه اليوم يكونون الرعيل الاول لاساتذة العربية في الجزائر ، بل هم ايضا الرعيل الاول للكتاب والادباء •

فكأن حركة معهد ابن باديس المتمثلة في نشاط طلابه ، تعد استمرارا لتلك الحركة النشيطة التي أوقد نارها ابن باديس ولا تزال في اضطرام واشتعال ولن تخبو الى ان يرث الله الارض •

(16)

وكيف لا يكون بعض قدماء طلبة هذا المعهد كذلك ، وهم كانوا يستبطئون السحر ليهبوا من النوم ، لينكبوا من بعد ذلك على دراسة العلم ؟

وما قول التاريخ فيمن كانوا ينهضون قبل ان تنار الاضواء من غرفة المراقب العام ؟ ولما كانت قاعات النوم الاربع الضخمة ، مظلمة الا من مصباح خافت عند الباب المؤدي الىالحمامات ، فان الطلبة كانوا يتسابقون الى نحو هذا المصباح ليطالعوا ، او يحفظوا ، على ما ينبعث منه من بصيص خافت شاحب لا يغني من الظلام المطبق شيئا •

وكان اولهم لا يرضى ان يمر اليوم الواحد عليه دون ان يحفظ فيه القصيدة الطويلة ،او يقرأ الكتاب المتوسط الحجم في يوم واحد ، ولا سيما في ايام العطل الاسبوعية • وآخرهم كان يحفظ الابيات ، ويلم ببعض فصول الكتاب الواحد في يوم واحد ايضا •

ثم ما قول التاريخ في طلاب كان يوقظهم العربي التبسي في السحر قائلا :

ـ « انهضوا يا من تفتخر بكم الجزائر !

ـ انهضوا يا أمل الجزائر !

ـ انهضوا يا شباب الجزائر » !

من كلمات طويلة كان الشيخ يلقيها على الطلبة تمضي على هذا النحو .

(17)

ولا اغادر الحديث عن هذه المرحلة ، حتى اثير مسألة التأليف فيها ، فقد بدأت بعض المؤلفات تظهر بين الفينة والفينة ، ومن ابرزها في قسنطينة ما اصدره رضا حوحو من اقاصيص ، مثل « غادة ام القرى » و « صاحبة الوحي » [١] ، و « حمار الحكيم » يضاف الى ذلك رواية كتبها ونشرها احمد بن ذئاب ، وقد كان عنوانها : « امرأة الاب » [٢] .

وبالرغم من ان هذا لا يعد شيئا اذا قيس بالنهضات الثقافية الكبرى، فانه يدل في الجزائر عامة ، وقسنطينة خاصة ، في تلك الفترة العصيبة على حيوية هذا الشعب وتطلعه الى الخلق والابتكار ، واشرئبابه الى الثورة ، وحرصه على الخير ، وتذوقه للجمال ، وتذمره من الشر .

(18)

ان المرحلة الثقافية الاولى في قسنطينة كانت بزعامة ابن باديس وشهابه ، وقد رأينا ان المرحلة الثانية فيها كانت بقيادة الابراهيمي وبصائره . واذا كانت البصائر انما كانت ملكا لجمعية العلماء ، فانه كان رئيسها ، ومحركها الاول ، وكان بمثابة كل شيء لها . فلا مدعاة للاعتراض على قولنا : « بصائره » . فان هذا الرجل كان امة قائمة . وما احسب ان البصائر كان يقدر لها ان تبعث ذلك البعث الجديد الرائع ، لولا قلمه السيال ، وفكره الثاقب ، وتوجيهه السامي .

والله يعلم انا لا نعرف الابراهيمي شخصيا ، ولم يقدم لنا اية منفعة شخصية كمنحة دراسية مثلا ، ولذلك فما نقوله في حقه اليوم ليس مدحا

---

(١) صدرت سنة : ١٩٥٤ . وأحسب أن حمار الحكيم صدرت في سنة ١٩٥٣ .

(٢) صدرت في سنة ١٩٥٤ أيضا .

ولا اطراء ، وانما نقول ما نعتقد للتاريخ ليس غير •

(19)

والحق ان حركة جمعية العلماء لم تك كل شيء في قسنطينة ، فقد كان هناك تيار ثقافي آخر في هذه المدينة ــ ولا اقول مضاد ، لان الثقافة يغذي بعضها بعضا ، ويتأثر بعضها ببعض فهي عملية احتكاك عقلي ــ وهو تيار الزاوية الكتانية • وكان لهذه الزاوية مدرسة ضخمة اصح من المعهد الباديسي موقعا ، واضخم منه بناية • بيد ان اقبال الطلبة عليها لم يك كثيرا • وكان طلابها نتيجة لذلك اقل عددا من طلاب المعهد • وربما كانوا ادنى منهم مستوى من حيث النشاط التربوي العام • ومع ذلك فقد بلغ عدد طلاب هذه الزاوية آخر الامر ، وفي سنة اربع وخمسين بالذات ، نصف عدد طلاب المعهد او نحوهم •

ومثل هذا العدد يبين لنا اهمية هذه المدرسة التي كانت خاضعة للزاوية الكتانية ، وانها قامت بدور محترم في تاريخ النهضة التعليمية والثقافية بقسنطينة •

ونجد اليوم كثيرا من قدماء طلبتها قائمين بوظائف عالية في الدولة ، وفيهم من يتبوأ في هذه الدولة منصبا اعلى من كل ذلك •

(20)

ومع ذلك ، فاني اعتقد ان اساتذة المعهد الباديسي كانوا اكثر عددا ، واثرى مددا ، واوسع ثقافة ، وارحب افقا من اساتذة المدرسة الكتانية التي لم يكن الشعب عموما ، والطلبة خصوصا ، يعرفون عنها مثل ما كانوا يعرفون عن المعهد •

ولا نحسب ان ذلك يعود الى طغيان الدعاية « العلمائية » على الكتانية ، فان المثقفين وعوام الشعب معهم ، كانوا يتطلعون الى نظام دراسي جديد ، يفتح في وجوههم الابواب ، ويحقق لهم الآمال العراض• فما اكثر ما كانت تنتشر المراكز الثقافية التقليدية في الجزائر ، وما اكثر ما كان شيوخ الطرق يعبثون بعقول الشباب والشيوخ معا • فكان بعض الناس على الاقل ، كانوا ينظرون الى المدرسة الكتانية بقسنطينة على انها

استمرار لحركة الطرقية التي كانت تطمح الى قيادة الشعب على النحو الذي يحلو لها .

٣ ـ مركز تلمسان :

(21)

ظلت مدينة تلمسان ردحا من الدهر مركزا ثقافيا نشيطا . ولكن ازهى ايام تلمسان كانت قبل قيام الحرب العالمية الثانية . والذي كان يقود هذه الحركة محمد البشير الابراهيمي . وكان لاينى يلقي دروسا في شتى العلوم التقليدية التي كان يتقنها ويبدع فيها ايما ابداع .

وهذا الابراهيمي ذاته يحدثنا عن بعض جوانب هذه الحركة الثقافية التي كانت قائمة في تلمسان ، ويبدو ان ابن باديس كان كثير الزيارة له بهذه المدينة الصغيرة الساحرة . ولذلك يتحدث الابراهيمي عن ابن باديس فيقول :

كان ، رحمه الله ، يشتد علي في اللوم ، ويصمني بالتقصير في حق البصائر (الاولى) ، فاذا زارني بتلمسان ، ورأى الدروس تنتظم الساعات وسمع درس التفسير بالليل ، ودرس الموطأ في الصباح الباكر ، ورأى اقبال الجماهير وتاثرهم ، ابتهج ابتهاج الظافر ...

واذكر انه صادف في ليلة من تلك الليالي الزاهرة بحياته درسا في دار الحديث من تلمسان في قوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة » ، فقال لي ، رحمه الله، بعد تمام الدرس ما معناه : « ان هذا الدرس وحده كاف لاحياء امة مستعدة . ولقد زادني هذا الدرس ايمانا بقوله صلى الله عليه وسلم في القرآن : « لا تنقضي عجائبه» . وان ما سمعته منك في معنى اتخاذ البيوت قبلة هو ما حوم عليه علماء الاجتماع في مبدأ تكوين الوحدة الاجتماعية للامم . واين هداية التجارب من هداية كلام الله ؟ ولوددت لو ان المسلمين كلهم يسمعون مثل هذه الدروس ... ولو ان التلاميذ اوتوا حظا من النشاط والتوفيق ، لما ضاعت هذه الدروس ، ولنشرت كما هي ففزنا بالحسنيين » .

فقلت له : عزائي عن هذا ، ان دروسك لم تكتب ، وقد شارفت ختم القرآن ، واين هذا الوشل من ذلك البحر ؟ [1] .

(22)

فالذي يفهم او يؤخذ من هذا النص ان الابراهيمي كان امة قائمة في تلمسان ، فكان يلقي دروس التفسير بعد الغروب ، ودروس الموطأ بعد صلاة الفجر . وقد كان الناس ييممون هذه الدروس ويتهافتون عليها تهافتا . ولو كان من الحق لقلنا : ان الابراهيمي فتن أهل تلمسان فتنة شديدة ، حتى انقسموا فريقين : فريقا يقذف فيه ويطعن عليه ، وفريقا يعجب به ويثني عليه . وهذا شأن جميع عظماء الرجال حين ينجمون في امة من الامم ، او ارض من الارضين .

وواضح ان الابراهيمي كان يصطنع الفصحى لسانا . وقد زعموا انه كان يلقي هذه الدروس اول الامر بالفصحى ــ وهذا نقلا عن شاهد عيان ــ فشق على بعض العواصم من الحضور ذلك ، فطلبوا اليه ان يلقيها باللغة العامية . ولكنه لم يكد يفعل ذلك ، حتى ثارت ثائرة الاخرين منهم، وطالبوه بان يلقي دروسه عليهم بالفصحى الساحرة كما كان يفعل من قبل.

ولم يسر ابن باديس بدرس الابراهيمي حتى شاهد عددا ضخما من الطلبة والمستمعين الى هذا الدرس .

والذي يحاول ان ينكر ان تكون تلمسان كانت مركزا ثقافيا يوما قبل الثورة ، ينكر ، لا ريب ، فضلا عظيما ، وجانبا مهما من نهضتنا الثقافية .

ومع ذلك فان هذا المركز كان ضعيف الخطر ، ولم يمتز بشيء امتيازه بهذه الدروس التي كانت تلقى بدار الحديث . وحسب هذا المركز المتواضع فخرا ، انه خرج كثيرا من الطلبة الذين ينهضون اليوم بوظائف عربية محترمة في المجتمع الجزائري .

(23)

ولم تك دار الحديث التي بلغ معلموها في سنة ثمان واربعين

---

(١) البصائر : العدد : ٣٢ (١٩ ابريل ١٩٤٨) .

عشرة [1] ، مدرسة ابتدائية تدرس بها العلوم الاولية كما قد يخيل الى بعض الناس ، وانما كانت دار الحديث قبل ذلك ناديا ثقافيا نشيطا يستقبل علماء الجزائر وعلماء المغرب جميعا • وقد كانت ربما قامت فيه قوائم الادب على نحو رائع يدعو الى الاعجاب • ولعل اروع مثل لذلك قصيدة القيت سنة ثمان واربعين ، وهي السنة المشؤومة على العرب ـ وعلى انه لو حق لنا ان نصف السنين بالشؤم لعددنا كثيرا منها مشؤومة علينا نحن العرب ، ولا نزال ننتظر السنة التي ستكون شؤما على اعدائنا وحدهم ـ بمناسبة عقد قران احد ابناء الابراهيمي •

وهذه القصيدة ليست قصيرة النفس قليلة الابيات ، ولا ضعيفة النسج مضطربة الوزن ، وانما هي قصيدة رائعة تفيض رقة واحساسا ، وتطفح جمالا وخيالا •

وقد القيت هذه المطولة التي شارفت المائة بيت « بمدرسة دار الحديث بتلمسان ، عشية يوم الاثنين ١٣ جمادى الثانية ١٣٦٨ بمناسبة عقد الشاب المهذب محمد الابراهيمي نجل الاستاذ الرئيس محمد البشير الابراهيمي » [2] •

وهذه مختارات من هذه القصيدة التي قرضها عبد الوهاب بن منصور ، والقاها بين يدي الابراهيمي :

قُمْ في المحافل منشدا ... شِعْراً يُذِيبُ الُجلْمُدَا

شعرا كازهار الريا ... ض ضحى ترقرق بالندى

شعرا كنفح الطيب يعبق ... في الفضا متجددا

شعرا كأنْفاسِ الرَّبيعِ ... إذا الربيع تورّدا •

* * *

(١) البصائر : العدد ٥٦ .
(٢) البصائر : العدد : ٨٠ .

قم في الحشود مهنئاً	وَمُبارِكاً ومُحمِّدَا
ومرحّبا بجماعـــة	شرقت بمجمعها العدا
لبس الثرى جذلا بها	من سندس خضر ، رِدَا
وكسَا الحدائق زهرها	والعندليب بها شدا
وتمايل الغصن النضير	مسرة وتـــاوّدا
وجرى بها الماء النمير	من الحبور مبردا
وتزينت «دار الحديث»	بها وامست منتدى
وقضى الزمان بعدله	وعن الضلام تجردا
اكرم بها فئة توفق	سعيهـــا وتسددا

* * *

يهنيك عَقْدٌ صُغْتَه	وجلوتَـــه فتوقدا
عقد حوى سِمْطَيْنِ من	علم بفضل أيِّدا
دم « كاهن الحي »المجيد	المستطاب الأَوحدا
يا من جمعت على الصفا	خديجـــة ومحمدا
إجمع على صفو الحياة	خديجـــة ومحمدا[1]

(24)

ونحن لم نرد من ذكر بعض ما جاء في هذه القصيدة لانها تمدح فلان بن فلان ، او لان قائلها فلان — فثلاثتهم بحمد اللـــه لا اعرفهـــم ولا يعرفونني ، وهذا ما يتيح لي الحياد في هذه الدراســـة — وانمـــا ذكرنا

---

(١) البصائر : العدد — ٨٠ .

القصيدة من حيث انها قيلت بدار الحديث امام الابراهيمي وهو يومئذ اكتب كتاب الجزائر بلا منازع ، واكبر زعماء نهضتهم الادبية بلا معارض، لندلل على ان تلمسان عرفت حركة ادبية مهمة خلال الفترة التي نحاول القاء بعض البصائص من الضياء عليها • واذا كان بعض ذلك حقا ، فما اولى ان تعد تلمسان في المراكز الثقافية بالجزائر ، وان تعتبر عاصمة للعلم في الغرب الجزائري خلال هذه الفترة نفسها •

ثم لندلل من بعد ذلك على ان الابراهيمي استطاع بشخصيته الغنية القوية ، وبمقامه الطويل ايضا بتلمسان ، ان يؤثر في اهل مدينة تلمسان تاثيرا قويا جعلهم يلهجون به مطرين عليه او طاعنين فيه • ارأيت انه لولا الابراهيمي لما ارتحل صاحب القصيدة التي اثبتنا قسما منها ، من ندرومة الى تلمسان •

واذن فالتاريخ الادبي المعاصر في الجزائر ، يؤكد ويثبت قوة تاثير الابراهيمي في سائر المناطق الجزائرية على تباعدها الجغرافي • فحيثما حل فالقصائد تلقى ، وحيثما الم فالخطب ترتجل • ولكن تاثيره في تلمسان كان اوضح واقوى • ولعل ذلك يعود الى صغر المدينة ، وطول مقامه بها • الى جانب ما كان يتمتع به ، طبعا ، من سمعة ادبية وعلمية عالية •

(25)

وعلى ان هناك كثيرا من المراكز الثقافية الاخرى كان لها شأن لا ينكر في النهضة الثقافية في الجزائر ، ولكن هذه المراكز كانت من الكثرة بحيث لا نستطيع ان نلم بها كلها • ويجب ان نقول كلمة حقا للتاريخ ،فان الطلبة الذين كانوا يقبلون الى معهد ابن باديس او الى الكتانية ،بقسنطينة لم يكونوا ياتون من مدارس جمعية العلماء وحدها فحسب ، ولكنهم كانوا يأتون اليها ايضا من اماكن نائية ، ومن زوايا ثقافية مختلفة ، فان كثيرا من المساجد والزوايا في البدء والحضر ، كان بها علماء يلقون دروسا في العلوم التقليدية : وخصوصا منها النحو والفقه ومبادىء المنطق • ومن هذه المراكز في الغرب الجزائري «مازونة»،و «مغنية» قبل ان تغزوها دعوة جمعية العلماء ، وقبل ان تؤسس بها مدارس او اقسام تابعة للجمعية وحزب الشعب • بل انني اعرف مراكز ثقافية كانت في اعماق

البوادي والقرى الصغيرة جدا ، كما نجد ذلك في قرية « بغاون » ، قرب الغزوات ، وقرية « اغرم » بمسيردة . فان هذين المركزين كانا بمثابة مدرسه ابتدائية تهيىء الطلاب الى الدراسة الثانوية المنتظمة . وكان اخر مثل هؤلاء الطلاب اذا ذهب الى قسنطينة او القرويين ان يربح سنة واحدة على الاقل ، بعد ان يجري عليه امتحان شكلي لاختبار معارفه العامة . ولم يكن ينقص هذه المراكز البدوية الا العلوم الرياضية . وعلى ان هذه العلوم كانت ضعيفة حتى في القرويين وغيرها من المعاهد العلمية المشهورة .

يضاف الى كل ذلك ان الاسواق الرئيسية بالغرب الجزائري ، كانت بها نواد لحفاظ القرآن الذين كان كثير منهم لا يعدمون الماما حسنا بعلوم العربية والدين . وكانت هذه النوادي تستقبل كثيرا من المستنيرين من افاضل الناس . واذكر ان الشيخ محمد بن الشيخ اقبل يوما في زيارة الى سوق « الصبابنة » من « الساحل » ، ودعي الى نادي حفاظ القرآن في هذه الناحية ، والقى درسا ناجحا فيهم ، نال به اعجابهم واطراءهم . بل اننا ربما كنا ننظر الى هذا الدرس على ان صاحبه أعلم العلماء ، وابرع الادباء . وكان مثل هذا الدرس بمثابة محاضرة حقيقية على كل حال .

(26)

فمن الظلم اذن ان نسدل على مثل هذه النوادي ، وهذه الزوايا التي قامت بدور مشرف في حفظ الثقافة العربية ، ستائر الاهمال والنسيان ، فنعزو كل فضل الى المراكز الحضرية التي يعرفها العام والخاص . فاننا كدنا ننسى كل شيء عن هذه النوادي والزوايا التي هدمت وخربت في معظمها خلال حرب التحرير من قبل المحتلين الفرنسيين .

كما ان هناك مراكز ثقافية اخرى هامة كانت بالصحراء ولا تزال قائمة ، وربما كانت مراكز غرداية والمزاب ، اهمها شأنا ، واكبرها حظا من النشاط الفكري . بيد ان اهل الصحراء لم يستطيعوا ان يصنعوا شيئا في منطقتهم ، وانما امتزجوا ثم ذابوا في النهضة الثقافية العامة . ولو جئنا نبحث في انساب الرجال الذين كان لهم بلاء حسن في قيام الحركة الثقافية قبل الثورة ، لوجدنا كثيرا منهم من اهل الصحراء .

ونخرج من هذا الفصل بما يلي :

كان في الجزائر ــ وواضح اننا نعني الفترة التي نعالجها في هــذه الدراسة فلا داعي لان ينصرف ذهن القارىء الى عموميات زمنية غامضة ــ نواد ثقافية ازدهرت ونشطت : فكان فيها الضعيف الفاتر ، والقــوى الخصب النشيط • فكانت الخطابة الرائعة ، والشعر الجميل ، والمقالــة الحسنة ، والاقصوصة المصورة ، والمحاضرات المتبحرة • وقد رأينــا ان قسنطينة كانت اهم هذه النوادي او المراكز الثقافية في الجزائر اطلاقا • وقد عللنا ذلك بوجود ابن باديس فيها اولا ، وهو من هو في قوة شخصيته، وخصب علمه ، وعظيم نشاطه ، ثم بما انشيء فيها من معهد ثانوي للدراسة المنتظمة ثانيا ، وما نشأ عن كل ذلك من اتصال علمي ، ونشاط فكري ، واصدار صحف ، وطبع كتب ، والقاء محاضرات •

الفصل الثالث

ابن باديس
1889 — 1940

(1)

النهضة الجزائرية بانواعها المختلفة من سياسية ، وثقافية ، وتعليمية، ودينية ، تدور رحاها على قطب متين عظيم هو ابن باديس • هذا الرجل الذي شاء القدر ان يكون من اعظم رجالات القرن العشرين في الجزائر ، وهو اعظم من عاشوا في النصف الاول من هذا القرن في الجزائر بلا منازع •

ولذلك فان الحديث يخصب ويطيب ، والقلم ينشط ويسيل ،والفكر يعمق ويسمو حين ينصرف الى ابن باديس يعالجه ، ويتحدث عنه • ولكن اي حديث ؟

فقد كان الرجل ، بالقياس الى تلك الفترة التاريخية في الجزائر المهانة في شرفها المتمثل في الحرية والدين واللغة ، كل شيء •

انه لا يستقيم عن ابن باديس حديث ، ولا ينتظم حوله بحث ، حتى يعالج على انه صحفي في الصحفيين ، ومصلح في المصلحين ، وزعيم سياسي في السياسيين ، وثائر متحفز في الثائرين ، وعالم دين من العلماء البررة الصالحين • بل يجب ان يتناول ايضا على انه خطيب مصقع في الخطباء المصاقع •

فهو الرجل الفاضل المثالي الذي يجعل التاريخ الجزائري المعاصر يعتز به كل الاعتزاز •

(2)

وفي هذا الفصل القصير الذي اعقده له في هذه الدراسة العامة حول

النهضة الادبية والثقافية في الجزائر ، احاول ان اتناول ابن باديس من بعض هذه الجوانب الواسعة الخصبة الغنية ، ولكنني اعلم مسبقا انني لن ابلغ من امري بعض ما اريد • لان ابن باديس من الرجالات الذين لا نجتزىء فيهم الا بالمجلدات الضخام • ويمنعنا من الافاضة في هذا الفصل عن ابن باديس اشياء كثيرة منها :

١ ـ ان هذه الدراسة عامة ، بحكم وضع البحث ، ولا يمكن ان نختص الرجل بقدر ضخم منها ، فيفسد التدبير في تصنيف فصول الكتاب •

٢ ـ ان كثيرا من الناس تناولوا ابن باديس من جوانب كثيرة ، وان كنت انا احاول ان اتناوله من بعض الجوانب الجديدة ما استطعت الى ذلك سبيلا •

٣ ـ انني كنت سودت كتابا خاصا يشتمل على نحو ستة فصول في سنة خمس وستين ولا يبرح مخطوطا في مكتبتي ، ومن العبث ان اعيد هنا ما كنت كتبته هنالك •

كما اني لن اتناول حياته بالدراسة لهذه الاسباب نفسها •

وانما ساعالج ابن باديس في هذا الفصل من ثلاث زوايا :

١ ـ ابن باديس الخطيب •

٢ ـ ابن باديس المصلح والمربي •

٣ ـ ابن باديس الصحافي والزعيم السياسي •

(3)

١ ـ ابن باديس الخطيب :

وهدفنا من وراء عقد هذه الفقرة من هذا البحث ، هو ان نجلو بعض ما لا يزال غامضا حول الخطابة في الجزائر قبل الثورة من وجهة عامة ، وجلاء اثر الخطابة الباديسية في النهضة الثقافية من وجهة خاصة •

فلم يكن ابن باديس مصلحا دينيا ، يعنى بالدين وحده ، عازفا عن كل ما عدا ذلك كما قد يخيل لبعض الناس ، بل كان رجلا مثقفا ملتزما ازاء مجتمعه وازاء وطنه ، يقبل على الكتابات الدينية حينا ، ويعزف عنها حينا اخر الى المواضيع الاخرى المختلفة •

وكان يضطره الى طرق هذه المواضيع المختلفة ، ما كان يتمتع به من مكانة اجتماعية كرئيس لجمعية العلماء ، وكمدير لمجلة ذائعة الصيت طائرة الذكر ، وكزعيم شعبي محبوب • فهو يخطب هنا لانه استدعي في مناسبة ، وهو يلقي هنالك قصيدة لان الحماس الوطني فاض على قلبه فلم يستطع له ردا •

واخال ان ابن باديس لم يبرز في ناحية ادبية تبريزه في الخطابة التي يجب ان يكون اخطب الخطباء في النصف الاول من هذا القرن في الجزائر • فقد كان فارسها المعلم ، وزعيمها المقدم ، وقائدها البارع في الاستحواذ على قلوب المخطوب فيهم بما أوتي من مواهب عالية في اثارة المشاعر ، وايقاظ العواطف ، وتهييج القلوب •

كان ابن باديس اخطب الناس في الجزائر على عهده ، شهد له بذلك معاصروه جميعا من اعدائه واصدقائه • ويشهد له بذلك ما لا يزال بين ايدينا من آثاره الخطابية • وهذه خطبة كان القاها بنادي الترقي بمدينة الجزائر (1) :

نموذج من خطب ابن باديس

(4)

اما بعد فسلام عليكم ••• يا اعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اجمعين ، وسلام على مساجنكم في المساجين ، وسلام على متهميكم في المتهمين ، وسلام على منكوبيكم في المنكوبين • سجون واتهامات ونكبات • ثلاث لا تبنى الحياة الا عليها ، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة الا على اسسها • فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث ، اثبتت الجمعية في تاريخ الاسلام وجودها ، وسجلت في صحيفة الخلود رسمها ،ونقشت فيقلوبابناء المستقبل اسمها، وبرزت في ذلك كله اسماء اولئك المسجونين ، والمتهمين ، والمنكوبين ، نجوما متألقة تاخذ بالابصار •

هذا الاستاذ العقبي برأته العدالة من التهمة الباطلة ، ثم ابت تلك

---

(1) يوم السبت ٢٩ رجب عام ١٣٥٧ (الشهاب : ج ٤ المجلد : ١٤)

النواحي المظلمة من الحياة الجزائرية الا ان تعود به الى التهمة ...

وهذا الاستاذ الابراهيمي سيق الى المحاكمة على حفلة علميـة ، وقضي عليه بالغرامة . فلم يكتف في حقه بذلك فرفعت القضية للاعادة وهو ينتظر ما يكـون .

وهذا الشيخ عمر دردور سجن في سبيل نشر العلم والفضيلة ، ثـم انصفته العدالة فاطلقت سراحه ، فأبت تلك النواحي الا ان تعود به الى القضاء وهو ينتظر الى اليوم فصله ...

وهؤلاء اهل « سوف » قد ذاقوا من التغريم والنفي والسجـن ما ذاقوا ، وروعوا في ديارهم واهليهم افظع ترويع ثم لم يثبت عليهم شيء مما رموا به الا رغبتهم في العلم ، وطرحهم لسربال الطرقية الوسخ الثقيل ..

وهؤلاء رجال التعليم في بجاية ، وباتنة ، وغيرهما ، يساقون الـى المحاكمة المرة بعد الاخرى ، ويغرمون من اجل التعليم ويهددون بالسجن.

وهذه مدرسة دار الحديث بتلمسان مغلقة الى اليوم . وكم اذكر ؟ وكم اعدد ؟ فلقد هبت الامة لتعلم دينها ، ولغة دينها ، في جد ونشاط فاق السنوات المتقدمة فعوجلت بهذه البلايا والمحن . حقا لقد كانت سنتنـا الماضية سنة عمل ، وسنة ابتلاء ، واي عامل صادق في عمله لا يبتلى ؟

وفيم هذا كله على من ثرتم ؟ والى من أساتم ؟واي حدود تعديتم؟ وما ذا تبتغون ؟

لا ، والله ما ثرتم الا على الجهل والرذيلة ، وما اساتم الا للاثـرة والجبرية ، وما تخطيتم الا حدود الجمود والخرافة ، ولا تبغون الا الحق والخير والعدل والاحسان .

الا في سبيل الله ما لقيتم ، الا في سبيل الله ما انتم لاقون ...

ايها الاخوان ،

فقد اعتدنا في كل اجتماع من اجتماعاتنا ان نرفع شكواناواحتجاجنا الى الولاية العامة ، والى الحكومة العليا ، ولم يرد لنا جواب مرة واحدة، بلى . يكون الجواب بزيادة الارهاق وتضييق الخناق .

فصدر قانون النوادي الذي يرمي الى اخلائها ، وحرمان الكبار من التهذيب في نواديهم ، بعد ما حرموا منه في مساجدهم وصدر قانون ٨

مارس الذي يرمي الى غلق المدارس وحرمان المسلمين من تهذيبهم ،وتلقين دينهم ، وآداب فنهم ، ولغة دينهم ، وصار من شروط اعطاء الرخصة للقليل الذي اعطيت له ان يعلم على الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب، ذات العصا والفلقة والحصير ، في العصر الذي تتقدم الامم كل عام في اساليب التعليم ، نرد نحن الى الوراء .

فاسمع وتعجب يا عصر المدنية والنور ... [1] *

(5)

تحليل خطبة ابن باديس :

تبدأ الخطبة هادئة لينة ، وساكنة رفيقة ، حتى اذا ما وقع الخبر في اذهان المخاطبين والموا بطلائع الموضوع الذي يريد ابن باديس ان يطرقه امامهم ، ويلقيه عليهم ، انقلب الهدوء صخبا ، واللين شدة ، والسكون اضطرابا ، والرفق عنفا .

وكأن ابن باديس باصطناعه مثل عبارة « هذا » وما يتفرع منها ، اراد ان يكدس شحنة هائلة من الحماس المضطرم ، والغضب المتأجج ، والحمية الحادة ، في قلوب الحاضرين ، فتثور لذلك ثائرتهم ، وتنوم قائمتهم ، وتضطرم حمياتهم ، ليثوروا ثورة ازلية على الاستعمار الذي اهان الجزائريين ، على هونه ، في كرامتهم ــ على ما كانوا يتبنكون فيه من عزة قعساء ــ ومسهم في صميم دينهم ، واعتدى على معتقداتهم ، فاصبحوا يلقون في ذات الله ، وفي ذات الوطن ، وفي ذات الكرامة جميعا، من النكال الفظيع ، والشر المستطير ، والهول العظيم ، ما لا تحتمله النفوس ، ولا تطيقه القلوب .

(6)

ونحن لسنا نرتاب في ان ابن باديس كان قد حفظ كثيرا من الآثار الادبية العالية مما جعله يتاثر عفوا او قصدا بفطاحل الخطباء العرب

---

(١) الشهاب : ج ٤ المجلد ١٤ ص ١٠٠ ــ ١٠٣ .

* تراث ابن باديس تقديم عمار الطالبي : المجلد الثالث ٥٦١ ــ ٥٦٤ (دار اليقظة) .

الاقدمين • فمقدمة هذه الخطبة تذكرنا بخطبة علي بن ابي طالب في اهل العراق حين اغار سفيان بن عصوف الازدي على الانبار • ومن يستطيع ان ينكر ذلك وعلي هو الذي يقول :

« هذا اخو غامد قد وردت خيله الانبار ••• وقتل منكم رجالا صالحين »[1] ؟ وليس عيبا ولا نقصا ان يحفظ الاديب او الكاتب ،فيتأثر بما يحفظ فيخرج للناس انتاجا متينا فيه جزالة القدم ، وجمال الجدة، وفيه معان حسان ، والفاظ ظراف • فلسنا نتهم ابن باديس بالتقليد او نرميه بالجمود ، فمثل هذا الاتهام لا ينبغي ان يلصق برجل يفسر القرآن الكريم ويعطي في آياته رأيه الخاص ، ويرتجل الخطب ولا يبالي ان لا يكون قد هيأ الكلام من ذي قبل • ولكن التاثر في حد ذاته ليس هينا على كل احد ، ممن يتزعمون احتراف الادب • فالاستعداد للتأثر ، هو نفسه موهبة مبكرة تؤذن بان المتاثر سيكون له في الادب شأن أي شأن •

والنقد لا يخضع الا للمقياس العقلي عند الحكم ، والمقياس العقلي لا يقبل الوهم او الضلال • فلا نحن محقون اذا نفينا عن ابن باديس تاثره بما حفظ ، ولا نحن مصيبون اذا جردناه من موهبة الاديب الخلاق الذي يعطي للكلمات القديمة مدلولات جديدة ، فتكتنظ بالمعاني اللطيفة ، بعد ان كانت طاوية الامعاء •

واقول كل هذا ، لاقرر بان ابن باديس كان متاثرا في خطبته هذه ، الى حد كبير ، بخطبة علي بن ابي طالب التي اشرنا اليها منذ قليل ، والتي تعد اخدى روائع الخطب التي قيلت في العربية •

(7)

ومع ذلك فهذا لا يحظرني من ان اقول : ان الفاظ اللغة واساليب التعبير فيها ، امر مباح للخطباء والكتاب • ولهم الحق كل الحق في ان يتصرفوا فيها كيف يشاؤون ، ويختاروا منها ما يشاءون •

فاصطناع لفظ « هذا » على هذا النحو قد وجد في الادب العربي

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ : ٤٨/٢ . (القاهرة شرح السندوبي) . ونهج البلاغة (شرح ابن ابي الحديد) : ١/ ٣٢٧ (طبع بيروت) .

قديمه وحديثه . واذا كان ضرب المثل مما يتطلبه البحث العلمي ، فاني اذكر بيتين كان عبد الله ابن المعتز قالهما في نعش عظيم :

قد ذهبَ الناسُ ومات الكَمالْ
وصاح صرْفُ الدَّهر : أيْنَ الرجالْ ؟
هذا أبو العباس في نَعْشِهِ
قوموا انظروا كَيْفَ تَسيرُ الجبالْ ! ؟

(8)

ولا يكاد ابن باديس ياتي على تقديم الخبر مجردا ، حتى يثور على الوقائع التي ائتلف منها هذا الخبر المشؤوم الذي يتمثل في ثالوث لعين : اوله سجن ، ووسطه اتهام ، واخره نكبة . والسجن نتيجة حتمية للاتهام ، والنكبة نتيجة لهما جميعا . وثورته على هذا الثالوث الخبيث تدل عليها استفهاماته المتلاحقة ، واستنكاراته الصارخة . فهو قد ضجر من تعداد النكبات التي المت على العلماء ، لانها كثيرة ، ولان مصدرها ظلم مبرح . كما ضجر من تعداد الكوارث التي باتت تفغر فاها القذر للشعب الجزائري الممتحن ، لتبتلعه في نهم السباع الضارية ، والحيتان الجائعة .

توقف عند هذا التعبير خاصة ، فانه يترجم لك عن هذه الروح الباديسية الثائرة ، ويعبر تعبيرا حارا عاليا صادقا عن تلك النفس الجزائرية الهائجة :

« وكم اذكر ؟ وكم اعدد ؟ »

انما يذكر الشيء المعقول ، ويحصى الشيء القليل ، اما تجاوز هذين النطاقين ، وتعدي هذين الحدين ، فلا ذكر له ولا تعداد .

وما كان هذان الاستفهامان المثقلان بالمعاني الا طليعة لاستفهامات اخرى حزينة في اول الامر ، ثائرة هائجة في آخره . فان كنت في ريب مما اقول ، فعد الى ما رويت من خطبته منذ حين واقرأ :

وفيم هذا كله ؟ على من ثرتم ؟ والى من اساتم ؟ واي حدود تعديتم

وما تبغون ؟ فانك مقتنع بما اقتنعت ، وتدرك من الروعة البيانية ما ادركت فقد بلغ ابن باديس في هذا المقطع القمة البلاغية ، واستأثر بعنان الخطابة المتسامية ، دقة ، وحماسة ، وجمالا .

(9)

اما المقطع الذي يليه ، وينبغي ان نعيد قراءته تارة اخرى : « لا ، والله ما ثرتم الا على الجهل والرذيلة ، وما أسأتم الا للاثرة والجبرية ، وما تخطيتم الا حدود الجمود والخرافة ، ولا تبغون الا الحق والخير والعدل والاحسان » . فانه يمثل البيان في اعلى نماذجه ، والبلاغة في ارقى امثلتها .

انه يشتمل على سحر عجيب ، وبيان كريم .

ويختم ابن باديس هذه الصور المكتظة بالمعاني المثقلة بالشعور الجارف ، يقول فيه اسف وفيه فرح ، بل فيه يأس وفيه مع ذلك رجاء ، واي تعبير اشمل لمعاني الاسف والفرح واليأس والرجاء معا ، من هذا : « الا في سبيل الله ما لقيتم ، الا في سبيل الله ما انتم لاقون » ؟

وكأن ابن باديس كان يعلم بان الشعب الجزائري سيذوق من انواع العذاب والنكال والاهانات ، ما لم يلقه بعد . وقد كان الامر كذلك فقد قتل من الجزائريين ، بعد وفاة ابن باديس بخمس سنوات فقط ، نحو خمسين الفا في اقل من اسبوع واحد .

(10)

ونحن لم نجد في ادبنا العربي المعاصر اطلاقا خطبة احر لهجة ، ولا اجمل طريقة ، ولا اشرف غاية ، ولا ابلغ تعبيرا ، من هذه الخطبة لابن باديس . فهي مثال عال من امثلة البيان العربي الاصيل الذي لم تعدمه الجزائر في ادبائها : كتابهم وخطبائهم وشعرائهم حتى في احرج الفترات التاريخية من حياتها الحافلة بالحوادث والثورات .

(11)

وليس هذا كل شيء في هذه الخطبة ، فلدينا جانب لا مناص من طرقه ، وان كنا نؤثر ان لا نفصل القول فيه تفصيلا ، وهي المفردة التي

اصطنعها ابن باديس في هذه الخطبة العالية • فلا يزال اللفظ يمثل العمود الفقري للاسلوب الجميـــل •

اما بداية الخطبة فقد كانت الفاظها ادبية مشرقة تحيط بهـــا ظلال موحية ، كما يحيط ببراعم الزهرة الندى الطري الذي يجدد عمر الحياة ، ويمد الطبيعة بجمال عظيم • واما نهايتها فقد اضطره ما تناوله من قوانين واحداث ، الى سوق عبارات والفاظ ادارية محضة ، وسياسية صرفة ، وتشريعية بحتة ، لا تمت الى الادب بماتة ، ولا تتعلق منه بسبب •

وانت حين تعود الى القسم الاول من الخطبة ، لا ريب واجد فيه ما اومأت اليه آنفا من الالفاظ الادبية العذبة ، مثل : «فسلام علـــى مساجينكم في المساجين ، وسلام على متهميكم في المتهمين ، وسلام علـى منكوبيكم في المنكوبين ••• » ، مما يسمو بالخطبة الى درجة سامية من فن القول ، وزخرف الكلام • ان في لفظ السلام من الخصائص الموسيقية الفياضة ، والظلال الموحية ما يجعله حلو الوقع في الاذان ، سريع التمكن من الاستقرار في القلوب •

واذا كان القرآن الكريم اغنى اثر ادبي في لغة الضاد من حيـث الموسيقى اللفظية ، واذا كان هذا القرآن اتخذ هذا اللفظ ـ لفظ السلام ـ لغة لاهل الجنة ، ولاهل الوحي من الانبياء والمرسلين ، حين يقول : « ادخلوها بسلام آمنين » ، وحين يقول : « وتحيتهم فيها سلام » ، ثم حين يقول على لسان عيسى بن مريم : « والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا » ، فلان القرآن لا يزال مجالا عبقريا للعروض البلاغية العليا التي لا يتعلق بها قلم كاتب من كتاب العربية • واي لفظ اجمل واروع من لفظ تحية الاسلام ؟

ولا تبرح الامم تبحث عن السلام وتنشده ما دامت الحياة •

وعلى ان الشعراء ، وهم اعلم الناس باجراس الالفاظ ، واسرار جمالها ، قد لحنوا لهذا اللفظ منذ اغبر العصور حين قال قائلهم :

سلامُ اللهِ يَا مَطَرٌ عَلَيْها وليس عَلَيْكَ يا مَطَرُ السَّلامُ[١]

ثم عد الى الخطبة كرة اخرى ، وقف وقفة قصيرة عند هذه الالفاظ الثلاثة : « ولا تشاد الصروح السامقة ... » ، فما اراك الا شاعرا بانها تدل بوضوح على ذوق ابن باديس في حسن اختياره للمفردة النقبة ، ووقوعه على العبارات الانيقة المشرقة . فهو ذوق اديب بارع ، وشاعر رقيق .

(12)

وهناك لفظ ورد في خطبة ابن باديس ، كما ورد في كلمة الابراهيمي ايضا [٢] ، نجد انفسنا مضطرين الى التوقف عنده ، ونريد به « غلق » المدارس ، فقد زعمت علماء اللغة ، وفي طليعتهم ابن السكيت ان هذه المادة ينبغي ان تكون رباعية هي ومصدرها ، فان استعملت ثلاثية كانت رديئة جدا ، ذلك ما يفهم من شاهد رواه معزوا لابي الاسود الدؤلي :

ولاأُقولُ لِقِدْرِ القَوْمِ قَدْ غَلِيَتْ وَلَاأُقولُ لِبَابِ الدَّارِ مَغْلُوقُ[٣]

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن رباعيا ، وذلك في قوله تعالى : « وغلقت الابواب وقالت : هيت لك » [٤] .

واذن فاللغة الممتازة ان يجاء بهذا اللفظ او الفصل ، رباعيا اما بالهمز واما بالتضعيف .

والذي يبعد الشفيع في هذه المسألة اللغوية ، ان ترد مثل « غلق المدارس » بجانب « تشاد الصروح السامقة .. » . فان وجود هذه العبارات الفصيحة العالية يجعل وجود الالفاظ الرديئة بجانبها شيئا نابيا .

---

(١) مطر : زوج اخت امراة الاحوص الشاعر . انظر القصة في طبقات الشعراء لابن سلام : ٥٤٠ (طبع المعارف بالقاهرة) * امالي الزجاجي : ٥٢ ـ ٥٣ . وهذا البيت مما يستشهد به النحاة على تنوين المنادى العلم .. وهو من قصيدة تعد من عيون الشعر العربي القديم .
(٢) الشهاب : ج ٥ م ١٢ : ٢٠٣ .
(٣) اصلاح المنطق : ١٩٠ .
(٤) يوسف : ٢٣ .

وعلى اننا رأينا كثيرا ممن لا يدققون في الاستعمالات اللغوية على هذا العهد لا يرعوون ان يصطنعوا هذا الفعل ثلاثيا ليس غير .

ولا تزال عناصر اخرى، تهم جانب الاسلوب في هذه الخطبة ،تتطلب من الباحث عناية واهتماما ، ولكني رأيت الحديث قد طال حول الاسلوب، فاحببت ان انتقل الى الحديث عن المضمون .

(13)

ولعلك ان تندهش حين ازعم لك ان اعجابي بمضمون هذه الخطبة يفوق اعجابي باسلوبها وصورتها اللفظية . والعلة واضحة في هذا الاعجاب . فقد كان ابن باديس رجل معان اكثر منه رجل الفاظ واسلوب .

ونحن لسنا نملك الا ان نردد ما قاله الجاحظ منذ اكثر من الف عام ، من ان المعاني مطروحة في الطريق تقع للغني والفقير ، والملوك والسوق ، وانما هم يتفاوتون في الابانة عنها بطريقة التعبير . فقد كان الجاحظ يرى بان المعاني مطروحة في الطريق : يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي والمدني . وانما الشأن في اقامة الوزن (وهذا خاص بالشعر) ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع، وجودة السبك [1] .

وان لا تصدقني فامض الى اي رجل شارع ذكي يستحق الحياة ، وناقشه باللغة العامية في مسألة هامة من مسائل السياسة او الاجتماع ، وانظر كيف يناقشك ببراعة ولباقة جميعا . وربما لم يقتنع بما تزعمه له انت على الاطلاق .

فالفرق بين المثقف باللغة المتقن لها الملم بها ، وغير المثقف بها ،يتجلى في اختلاف التعبير عن المعاني التي تنتاب جوانحهما . اما ان عبرت لرجل الشارع ، ونقصد به اي شخص غير مثقف ثقافة كافية لتجعله يدرك الاشياء كما ينبغي لها ان تدرك ، عن نفس تلك المعاني بالفصحى العالية ، ولا اقول الفصحى البسيطة التي يتحدث بها المثقفون فيما بينهم حديثا عاديا ــ فكانني اريد الى الفصحى الفنية ــ فانه ينبهر بما تنطق به ، ولا

---

(1) الحيوان : ٣/١٣١ ـ ١٣٢ .

يستطيع ان يناقشك ولو كان ممن يفهمون الصورة العامة لحديثك . لانه اولا يجهل التحدث بالفصحى ، ولانه ثانيا ، يعجب بهذه العبارات الجميلة المنتظمة التي تنساب على لسانك كالماء الزلال ، او كالانغام الموسيقية العذاب .

فاذا اجتمعت اللغة لرجل من الناس ، الى جانب التجربة الشخصية ، والنفسية ، التي تتمثل ، اعظم ما تتمثل ، في تقدم السن ، والاحتكاك بصروف الحياة ، ومقاساة المحن ، ومكابدة الخطوب ، ومقارعة الصدمات وضروب الاخفاقات ، اي في التجربة العملية داخل خضم الحياة في معناها الشامل العام ، اجتمع له ما يريد . اذ صار يملك مواد خاما تجعل منه حكيما مجربا حين يتكلم ، ومبدعا ممتعا حين يطرس كلمة او طومارا .

وذلك ما وقع لابن باديس .

فالتجربة هي المجتمع الجزائري . واللغة هي العربية التي كان أتقنها والم بها وبادابها الماما حسنا . ولما لم يكن ابن باديس يحدث نفسه يوما بان يكون اكتب الكتاب ، وانما كان يحدثها بان يكون اصلح المصلحين في الجزائر ، لم يكن يبالي بالالفاظ كثيرا ، على رقي هذه الالفاظ التي كانت تاتلف منها خطبه وكتاباته بوجه عام .

(14)

وهذه الخطبة عظيمة الاهمية من حيث محتواها ، لانها تبين لنا بوضوح اللهجة التي كان يخاطب ابن باديس بها المستعمرين . فهي تمتاز بالصراحة التامة ، والجرأة الجريئة ، كما تمتاز بالتصوير الدقيق ،والتحليل الرائع لحالة الاستعمار النفسية ، وكيف انه كان يتصام عن ان يسمع صرخات الوطنيين والمصلحين المدوية ، وكان هذا الاستعمار اراد ان يكون هو المقصود بالذات في قول الشاعر العربي :

لَقَد أسمعت لو نادَيْت حَيّا ... ولكن لا حياة لِمَنْ تُنادِي

وكأن هذا الاستعمار كان يعاكس الوطنيين معاكسة مقصودة ،فكلما تضاعفت مطالبهم للتخفيف من آلام الشعب الجزائري ، وكلما التمسوا منه شيئا او احتجوا ضده ، لانه تجاهل مطامحهم ، وتصام عن نداءاتهم ، اقول : كلما فعلوا ذلك ضاعف الاستعمار من لؤمه وخبثه وعذابه لهم ،

وتضييقه عليهم ، وتحطيمه لامالهم . وما كان جوابه يوما الا « بزيادة الارهاق ، وتضييق الخناق » .

فقاتل الله الاستعمار ما أصم مسامعه ، واقسى جوانحه ! وكيف لا يكون اصم المسامع ، قاسي الجوانح ، وهو عدو لدود للشعوب ؟ وهل كان الشعب الجزائري الا احد هذه الشعوب ؟ وهل كان ابن باديس الا احد الذين يقودون هذه الشعوب ايضا ؟

فعوض ان يصيخ الاستعمار بعض الاصاخة للوطنيين ، وعوض ان لا يهينهم في معتقداتهم ومبادئهم ، ولو بصورة منافقة ، ومن هذه المعتقدات اعطاء الحرية كل الحرية لرجال الدين ، واعطاء الحرية كل الحرية لرجال العلم الذين كانوا يحمون وجود العربية في الجزائر من الرطانة الاعجمية ، ويصونونها من ان تضمحل وتزول ، عوضا عن ذلك ، كان يصدر القوانين الجائرة الشريرة التي كانت تستهدف اغلاق المدارس اغلاقا ، واخلاء المساجد اخلاء ، وحرمان المواطنين الكبار والصغار ، من نور المعرفة وحق التعليم .

ومثل هذا الصنيع لا يدعوك الى العجب فتعجب ، فحسب ، ولكن يدعوك الى البكاء ــ ان كنت ضعيفا لا حول لك ولا طول ــ فتبكي ، ويغريك بالثوران ــ ان كان لك طرف من حول ، ونصيب من طول ، فتثور ثورة لا تبقي ولا تذر .

(15)

ومهما قيل عن وطنية ابن باديس وجرأته ، فان هذه الاقوال ان تنافرت واختلفت في بعض الجوانب من شخصيته ، فانه لا ينبغي لها ان تتنافر او تختلف في انه كان اشجع رجل جزائري في العقد الثالث والعقد الرابع من هذا القرن العشرين .

وعلى ان هذه الخطبة لا تكاد تعطي شيئا كبيرا عن جرأته الوطنية وشجاعته الادبية العالية ، ضد هجمات الاستعمار وصولاته . ولك فيما ترك من آثاره مسرح فسيح للبحث عن مثل هذه الصفة التي تجدها في كتاباته المتفرقة هنا وهناك .

وليست الجرأة وحدها هي التي تكيف نتاج ابن باديس هنا وهناك ،

ولكن النزعة الدينية ـ بطبيعة الحال ـ تهيمن على نتاجه ايضا •

ولعلي ان لا اكون مفتقرا الى التدليل على مثل هذه الخاصية ، فهي عامة مبثوثة في كتاباته يستطيع ان يهتدي الطريق اليها الخاص والعام ، ومتوسط الثقافة وعاليها • وناهيك انك ان عدت الى نص هذه الخطبة بكامله ، وامعنت الناظر فيه ، لاحظت ان الرجل كان يردد الفاظا دينية معينة اكثر من سواها •

اعدد لفظ « الاسلام » في الخطبة • فكم تجد ؟ اليس انك تجد ثلاثة عشر لفظا ؟ بلى •

واعدد لفظ « الله » فيها ايضا تارة اخرى وانظر كم تجد ؟ الست تجده وقد تكرر عشر مرات متواليات ؟

ثم ما ذا هذا لفظ « الدين » وقد اعيد في الخطبة ايضا احدى عشرة مرة •

ان مثل هذا الاحصاء الدقيق يدلنا دلالة قاطعة على سيطرة النزعة الدينية على نتاج ابن باديس شكلا ومضمونا •

ولكن هذه الظاهرة ليست عامة في نتاج ابن باديس وحده ، ولكنها تكيف سائر نتاج النهضة الادبية التي نخوض في شأنها الحديث ، كما بينا ذلك في مقدمة هذا البحث •

(16)

وعلى ان الخطبة التي حاولنا ان نحلل جانبا مهما منها ، لم تك مرتجلة فيما يظهر ، ولكنها كانت مكتوبة ، ولذلك لا ينبغي ان تعطينا صورة دقيقة واضحة عن مقدرة ابن باديس الخطابية • والحق ان الرجل كان له من القدرة البيانية على ارتجال الكلام في المواقف العامة ما يجعل خطبه المرتجلة لا تقل روعة وبيانا عن خطبه المهيأة ، يدل على ذلك تعليق احد معاصريه على خطبة ارتجلها في سنة تسع وثلاثين وتسعمائة والف بنادي الترقي بالجزائر ، فقد جاء في هذا التقديم او التعليق الذي كتب قبل اثبات هذه الخطبة ، ما يلي :

« الخطاب الذي ارتجله الاستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في اجتماعها العام بنادي الترقي لهذه السنة

(١٩٣٩) ، وموضوعه : « العرب في القرآن » ، وقد حافظنا على معانيه، وعلى الكثير من الفاظه • وهيهات هيهات لما نود نقله للقراء بالفاظه وجمله، فانه خطاب عظيم في موضوع خطبته ، لا يضطلع به غير الاستاذ في علمه بفنون القرآن ، وغوصه على مغازيه البعيدة ، ونفاذه في معانيه العالية •

وعلى كل ، فاننا نرجو اننا قدمنا الموضوع للقراء كامل المعاني ، وحسبنا هذا [١] •

وعلى ما يبدو في هذا التعليق من بعض المبالغة والاطراء الزائدين ، فانه يدل مع ذلك على مدى استحواذ ابن باديس على قلوب المخاطبين ، ويبين قدرته الخطابية الفائقة • فهو نص بمثابة وثيقة تاريخية عظيمة الاهمية •

(17)

ولما كانت هذه الخطبة طويلة جدا ، لحد انها نشرت في ثلاثة اعداد من الشهاب [٢] ، فاننا لا نستطيع ان نستشهد بها في هذا المقام الضيق ، وحسبنا ان نشير اليها في مرجعها لمن شاء ان يدرس الخطابة عند ابن باديس ويختص في هذا الجانب [٣] •

ولكننا نستطيع ان نؤكد مع ذلك ما قلناه منذ قليل من ان الرجل كان له من القدرة الارتجالية ما كان يخول له ان يخطب مرتجلا كما يخطب مهيئا ومقيدا •

ولا ريب ان ابن باديس احد الذين بعثوا هذا الفن الادبي الجميل الذي كان قد اضمحل وضعف بضعف العربية في الجزائر ، فاصبحت الخطابة عندنا على ذلك العهد من الفنون المزدهرة الذائعة • وقد اثر ابن باديس تاثيرا قويا في المثقفين من معاصريه فكان الابراهيمي من بعده اخطب الخطباء في الجزائر • وقد عم هذا التيار فكان المعلمون الصغار ، ان صح هذا التعبير ، يحاولون ان يقلدوا مثل هؤلاء الفحول ، كما كان تلامذة معهد ابن باديس ذوي موهبة خاصة في ارتجال الكلام ، وكانوا يمتازون

---

(١) الشهاب : ج ١ م ١٥ ص ٢١ •
(٢) اعداد : (فيفري ـ مارس ـ ابريل ١٩٣٩) •
(٣) تجد هذه الخطبة المؤلفة من ثلاثة اقسام مثبتة في تراث ابن باديس ٤/٥٩ ـ ٧٦ •

بهذه الميزة على الاقل ، على طلبة جامعة القرويين بحيث كان التلميذ الذي يدرس بضعة شهور في معهد ابن باديس بقسنطينة ، يستطيع ان يحوز الدخول في السنة الاولى من الثانوي . اي انه كان باستطاعته ان يربح ثلاث سنوات دراسية كاملة بعد امتحان شكلي يجريه عليه اساتذةالقرويين

ومصدري في هذا الزعم انني انا شخصيا درست خمسة شهور في المعهد ، فلما ذهبت الى القرويين لاسباب مالية ... واجرى علي امتحانا الاستاذ عبد الكريم التواتي قال لي بعد ذلك : اتريد السنة الثالثة من الثانوي ؟ قلت في سذاجة : اني لم ادرس الالفية بعد (وكانت تدرس في السنة الثالثة الابتدائية) ، واخشى ان تقدمت الى السنة المقترحة ، لا اقدر على متابعة الدراسة ...

فقال : خذ الثانية على الاقل .

فقلت مصرا : اني لم ادرس الالفية .

فقال في لهجة غير راضية عني : طيب ! ثالثة الطور الاول .

وكان ذلك في اكتوبر من سنة خمس وخمسين بجامعة القرويين بفاس .

٢ ـ ابن باديس المصلح والمربي :

(18)

اذا كنا قد زعمنا في بعض ثنايا هذا البحث ، ان ابن باديس ينبغي ان يعد زعيما لا للنهضة الادبية فحسب ، وقد رأيناه خطيبا مصقعا يصطنع اسلوبا ادبيا عاليا ، ولا للنهضة الوطنية فحسب ، ولكنه زعيم لهما جميعا. وان هذا المزعم لا يقوم الا اذا اقتنعنا بان ابن باديس كان مربيا حكيما ، ولا نقتنع بذلك حتى ندلل عليه ما استطعنا بالنصوص ، كما كان مصلحا دينيا ، واجتماعيا خبيرا .

ولسنا نريد ان نلج في خوض البحث عن العوامل النفسية التيجعلته من المربين والمصلحين ، ففي بحث هذه المسألة الجانبية من هذا الموضوع ما يزوغ بنا عن منهج هذا البحث السريع القصير .

ونريد ان نحدد ، قبل الارتماء في هذا الحديث ،مفهوم لفظ«مصلح» فلسنا نريد به الا الاصلاح في مجال الدين . وكم الحجت في غير هذا

المكان ، في ان رجال « الحركة السلفية » او زعماءها ، من لدن الافغاني الى عبد الحميد بن باديس ـ وان لم يعدده احمد امين في كتابه زعماء الاصلاح منهم ، وذلك لعدم اطلاعه على النهضة الفكرية والادبية في الجزائر ، وعدم رغبته ، فيما يبدو ، في البحث عن ذلك ـ لم يكونوا يرمون من وراء حركاتهم الاصلاحية ، الا اصلاح المجتمع من جميع نواحيه . وفي طليعة كل ذلك النواحي السياسية التي ينشأ عنها الاصلاح العام في الاقتصاد ، والتربية ، والاخلاق .

ذلك بان المسلم الحق الذي يحترم المبادىء الاسلامية في جملتها وتفصيلها ، لا يستطيع احد ان ينكر بانه افضل مواطن ، بل ارقى انسان: فهو طاهر نظيف ، وهو عاقل سليم ، وهو تقي ورع ، وهو عامل متشرع ، وهو صادق صريح ، وهو وطني يحب وطنه ويحترم مواطنيه اثناء كل ذلك ، ويحب لهم ما يحب لنفسه ، لان حب الوطن من الايمان ، ولان المؤمن لا يكون مؤمنا حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه ، كما جاء في الاثر الشريف .

فاي مواطن اذن ارقى من هذا المواطن ؟ بل اي انسان اكمل وانبل من هذا الذي برىء من سائر العيوب والمساوىء التي تشكل العناصر الشريرة في اخلاق الشخص فيضير نفسه ، من حيث يكون قد ضار الاخرين ؟

(19)

ويخيل الي بعد ذلك ، ان لفظي التربية والاصلاح حين نثيرهما حول ابن باديس ، يتداخلان لنا ، ويتشابهان علينا ، حتى لا نستطيع ان نميز بينهما تمييزا دقيقا واضحا يجعلنا نسير في بحثنا على هدى وبينة تامة . وان كنا نقر بان هناك كثيرا من المواطن التي يمكن لنا ان نميز بينهما على نحو ما .

فقد كان ابن باديس كثيرا ما يكتب فصولا طوالا حول التربية التي نعني بها التعليم . وكان ينادي بضرورة اصلاح التعليم العربي في الجزائر وقد كان يقول في جملة ما كان يقول كل حين :

« لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم ، فانما العلماء من الامة

بمثابة القلب ، اذا صلح صلح الجسد كله ، واذا فسد فسد الجسد كله ، وصلاح المسلمين انما هو بفقههم الاسلام ، وعلمهم به ، وانما يصل اليهم هذا على يد علمائهم ، فاذا كان علماؤهم اهل جمود في العلم وابتداع في العمل ، فكذلك المسلمون يكونون .

فاذا اردنا اصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم .

ولن يصلح العلماء الا اذا صلح تعليمهم . فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته ، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره . فاذا اردنا ان نصلح العلماء فلنصلح التعليم ، ونعني بالتعليم: التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الاسلام : يأخذ عنه الناس دينهم ، ويقتدون به فيه .

ولن يصلح هذا التعليم الا اذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه ، في مادته وصورته فيما كان يعلم ، صلى الله عليه وآله وسلم، وفي صورة تعليمية ، فقد صح عنه ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فيما رواه مسلم انه قال : « انما بعثت معلما » . فما ذا كان يعلم ، وكيف كان يعلم ؟ (١)

ويمضي ابن باديس يحلل في وجهة نظره الخاصة بالتعليم المثالي ، فيرى ان التعليم الحق هو تعليم النبي صلى الله عليه وسلم .

(20)

ويتجلى ابن باديس المربي الروحي في مثل هذه النصائح والوصايا التي نصح بها للمسلم الجزائري :

« نظف بدنك ، نظف ثوبك ، تبعث الخفة والنشاط في نفسك ، وتنبل في عين غيرك ، وتجلبه الى الاستئناس بمعاشرتك .

قه اهلك وولدك ومن الى رعايتك مما تتقي منه نفسك ، وسيرهم على نظام صحي ، وقانون ادبي ، تكفل سعادة وهناء عائلتك ورخاء عيشك وهدوء بالك .

---

(١) الشهاب : ج ١١ م ١٠ ص ٤٧٨ (عدد : ١٠ اكتوبر ١٩٣٤) . وانظر تراث ابن باديس ، اعداد عمار الطالبي : ٢١٧/٣ .

حافظ على عقلك فهو النور الالهي الذي منحته لتهتدي به الى طريق السعادة في حياتك .

فاحذر كل « متعيلم » يزهدك في علم من العلوم ، فان العلوم كلها اثمرتها العقول لخدمة الانسانية ودعا اليها القرآن بالآيات الصريحة .

واحذر من دجال يتاجر بالرقى والطلاسم ، ويتخذ آيات القرآن ، واسماء الرحماء هزوءا يستعملونها في التمويه والتضليل ، والقيادة ، والتفريق ، ويرفقونها بعقاقير سمية ، فيهلكون العقول والابدان .[1] .

حافظ على حياتك ، ولا حياة لك الا بحياة قومك ووطنك ،ودينك، ولغتك ، وجميل عاداتك . واذا اردت الحياة لهذا كله ، فكن ابن وقتك، تسير مع العصر الذي انت فيه بما فيه يناسبه من اسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل .

كن عصريا في فكرك ، وفي عملك ، وفي تجارتك ، وفي صناعتك ، وفي فلاحتك ، وفي تمدنك ، ورقيك . كن صادقا في معاملتك بقولك وفعلك .

احذر من الخيانة . الخيانة المادية في النفوس والاعراض والاموال ، والخيانة الادبية ببيع الذمة والشرف .

احذر من التعصب الجنسي الممقوت ، فانه اكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط . كن اخا انسانيا لكل جنس من اجناس البشر ..[2]

(21)

والذي يتأمل هذه الوصايا ، ولم اذكرها كلها ، وانما اخترت منها طائفة ، يجد ان ابن باديس في مستوى الرجل المربي المصلح القائد الحكيم المجرب . فهو لا يرسل الكلام بدون معان ، ولا ينطق بغير ما لا يعلم ، وانما يرسل كلماته الحكيمة كالشهب اللامعة التي لا تقع حتى تترك اثرا فيما وقعت عليه .

---

(١) كذا بتراث ابن باديس (١٧٨/٣) ، ولم اعثر على هذا النص فيما بين يدي من مجموعة « الشهاب » التي تقارب المائة . لاستطيع الحكم ، فان وجه الكلام ينبغي ان يكون : « يستعملها » لا « يستعملونها » ، لان الضمير يعود على واحد هو « الدجال » .

(٢) تراث ابن باديس : ١٧٧/٣ ــ ١٧٩ .

فلو ترك لنا هذه الوصية وحدها لكنا جديرين بأن نعده مربيا من المربين ، فكيف وهو كان معلما يعلم طبقات كثيرة من الطلاب [1] في الجامع الاخضر طوال اليوم .

ذلك هو ابن باديس المربي [2] .

(22)

اما ابن باديس المصلح فقد وجدناه ينادي باصلاح التعليم ، كما كان ينادي باصلاح الدين ، وضرورة تجديد مفاهيمه التي لا ينبغي ان تظل جامدة بالية ، بل يجب ان تساير العصر ، وتتمطط مع مصالح المسلمين تبعا لتغير الزمان والمكان ، لان الاسلام دين عالمي ، واذا كان كذلك حقا ، فما اولى ان ننظر اليه نظرة عميقة واسعة شمولية تجعله يستجيب لمصالح الناس جميعا ، ويتفق مع سائر المجتمعات بعد ان يكيفها بكيفيته ، ويطبعها بطابعه

فما قيمة اسلام ترثه عن ابيك ثم لا تستطيع ان تصنع به شيئا ؟

وفي هذا المقال الاصلاحي الذي كتبه ابن باديس في مفهوم الاسلام : بنوعيه الوراثي والذاتي ، ما يوضح لنا وجهة نظره في الاصلاح الديني بوجه عام ، يقول ابن باديس :

الاسلام الذاتي والاسلام الوراثي :

ايهما ينهض بالامم ؟

يولد المرء من ابوين مسلمين فيعد مسلما ، فيشب ويكتهل ويشيخ وهو يعد من المسلمين : تجري على لسانه وقلبه كلمات الاسلام ، وتباشر اعضاؤه عبادات واعمالا اسلامية ، فراق روحه أهون عليه من فراق الاسلام .ولو نسبته لغير الاسلام .. لثار عليك او بطش بك . ولكنه لم يتعلم يوما شيئا من الاسلام ، ولا عرف شيئا من اصوله في العقائد والاخلاق والآداب والاعمال ، ولم يتلق شيئا من معاني القرآن العظيم ، ولا أحاديث النبي الكريم ، صلى الله عليه وآله وسلم .

فهذا مسلم مسلما وراثيا لانه اخذ الاسلام كما وجده من أهله ، ولا

---

(١) المصدر السابق . : ٢١٣/٣ ـ ٢١٦ .

(٢) جمع عمار الطالبي كل ما كتب ابن باديس حول التربية والتعليم انظر : تراث ابن باديس : ١٧٥/٣ ـ ٢٧٤ .

بد ان يكون بحكم الوراثة ، قد اخذه بكل ما فيه مما أدخل عليه وليس منه من عقائد باطلة ، واعمال ضارة ، وعادات قبيحة . فذلك كله عنده هو الاسلام . ومن لم يوافقه على ذلك كله فليس عنده من المسلمين .

هذا الاسلام المواثي ، هو الاسلام التقليدي الذي يؤخذ بدون نظر ولا تفكير ، وانما يتبع فيه الابناء ما وجدوا عليه الآباء . ومحبة اهله للاسلام انما هي محبة عاطفية بحكم الشعور والوجدان .

هذا الاسلام الوراثي هو اسلام معظم عوام الامم الاسلامية ، ولهذا تراها مع ما ادخلت على الاسلام من بدع اعتقادية وعملية ، ومع ما اهملت من اخلاق الاسلام وآدابه واحكامه ، متمسكة به غاية التمسك لا ترضى به بديلا ، ولو لحقها لاجل تمسكها به ما لحقها من خصومه من بلاء وهوان ...

لكن هذا الاسلام الوراثي لا يمكن ان ينهض بالامم ، لان الامم لا تنهض الا بعد تنبه افكارها ، وتفتح انظارها .

والاسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر .

اما الاسلام الذاتي فهو اسلام من يفهم قواعد الاسلام ، ويدرك محاسن الاسلام في عقائده واخلاقه وآدابه واحكامه واعماله ، ويتفقه حسب طاقته ، في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية . ويبني ذلك كله على الفكر والنظر ، فيفرق بين ما هو من الاسلام بحسنه وبرهانه ، وما ليس منه بقبحه وبطلانه . فحياته حياة فكر وايمان وعمل . ومحبته للاسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان ، كما هي بمقتضى الشعور والوجدان .

هذا الاسلام الذاتي هو الذي امرنا الله به ، في مثل قوله تعالى : « قل انما اعظكم بواحدة : ان تقوموا لله مثنى ، وفرادى ، ثم تتفكروا » فبالتفكر في آيات الله السمعية ، وآياته الكونية ، وبناء الاقوال والاعمال والاحكام على الفكر ، تنهض الامم فتستثمر ما في السموات وما في الارض ، وتشيد صروح المدنية والعمران .

اذن ، فنحن المسلمين ، مطالبون دينيا بان نكون مسلمين ، اسلاميا ذاتيا . فبما ذا نتوصل الى هذا الجانب المفروض ؟

لذلك سبيل واحد ، هو التعليم .

فلا يكون المسلم مسلما حتى يتعلم الاسلام . فالمسلمون افرادا وجماعات مسؤولون عن تعلم وتعليم الاسلام للبنين والبنات ، للرجال والنساء ، كل بما استطاع . والقليل من ذلك خيره كثير . « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر » [1] .

(23)

ولعلك ان تكون متطلعا الى مثل هذا السؤال : ما الداعي الذي دعاني الى نقل مقالة ابن باديس هذه على امعانها في الطول ؟

ان اهم ما دعاني الى ذلك ، هو ان ابرهن واثبت على ان الاصلاح الديني الذي كان يرمي اليه ابن باديس ، انما كان الغرض منه أصلاح المجتمع اولا واخيرا . ولا علينا ان يكون هذا المجتمع جزائريا او غير جزائري طالما كان يدين بالاسلام ، فقد عمم ابن باديس في هذا المقال ولم يخصص ، « فبالتفكر في آيات الله السمعية ، وآياته الكونية ، وبناء الاقوال والاعمال والاحكام على الفكر تنهض الامم فتستثمر مافي السموات وما في الارض ، وتشيد صروح المدنية والعمران » ، فاذا كان المواطن مسلما عمليا ، لا مسلما يبني اسلامه على الوراثة والتقليد ، والاتباع والتسليم ، كان مفكرا . واذا كان مفكرا كان كل شيء . فلا شيء اعلى من التفكر والتفكير . وبذلك يستطيع هذا المسلم ان يستثمر موارد الارض ، وان يستكشف اسرار السماء ، فيبني للحضارة صرحها، وللعمران دعائمه فمعالمه .

ولكن هل يكون المواطن المسلم مفكرا وهو جاهل ؟ بل هل يكون المسلم ذا اسلام ذاتي حقيقي وهو غير متعلم ؟ والى اية وسيلة يلتجيء اذا اراد ان يكون اسلامه لا تقليديا ولا وراثيا ، بل اسلامه ذاتيا : أي كاملا مثاليا ؟ ثم اذا اراد ان يكون اسلامه قائما على الفكر والايمان والعمل جميعا ، فبأي شيء يتمسك ؟ واذا اراد ان تكون : « محبته للاسلام محبة

---

(١) عبد الحميد ابن باديس : الشهاب : ج ٣ م ١٤ (الافتتاحية)
* تراث ابن باديس : ٣/٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

عقلية ، بحكم العقل والبرهان ، كما هي بمقتضى الشعور والوجدان » ،
فبأي حصن يلوذ ؟

(24)

ان الامر لهين ، والخطب ليسير ، فسبيله لتحقيق ذلك ، شيء واحد لا ثاني له وهو التعليم ولكن أي تعليم ؟ انه التعليم القائم على تفهم مبادىء الاسلام وادراك اصوله العميقة وفهم معتقداته الوضاءة ، اذ « لا يكون المسلم مسلما ، حتى يتعلم الاسلام » • فاذا لم يتعلم من هذا الاسلام ما يكفل له فهمه وادراكه والتشبع بمبادئه الكريمة السمحة ، فهو من اسلامه على قلت وخطر ، وهو خليق بأن يضل في سبيله التي يسلكها للحياة ضلالا بعيدا • وساء عيشا من كان من الضالين •

وليس هذا التعلم مما يتعلمه فرد واحد فيسقط عن باقي الاسرة ، كالتطوع في عمل جماعي ما ، بل انه تعلم محتوم ، يجب على الرجال كما يجب على النساء • وهو مفروض على الابناء كما فرض على البنات •

(25)

تأمل هذه الفلسفة الباديسية البارعة في اقامة كل اصلاح على التعلم وفهم الاسلام فهما صحيحا سليما من شوائب السخافات والخرافات ، تجده قد اقام مذهبا فكريا ذا قواعد واصول • وهذه القواعد والاصول مستمدة كلها من مبادىء الاسلام ، ومنتزعة من صميم القرآن الكريم • انه مذهب فلسفي خليق بأن يدرس دراسة فلسفية عميقة ، على حدة لتستخرج منه العناصر والاجزاء ، ولتحلل افكاره تحليلا مفصلا مدققا ، فبدون ذلك لا نستطيع ان نفهم ما كان يرمي اليه ابن باديس •

وهكذا نجد في شخص ابن باديس ، بفضل هذه الافكار الغنية العميقة القائمة على اصول الاسلام ، مفكرا معاصرا خليقا بالدراسة التي هو اهل لها • فلا يزال الباحثون الى اليوم يحومون حول شخصية ابن باديس ولا يقعون عليها ، افلم يأن لنا ان ندرس ابن باديس من الجانب الفكري المحض ؟ فان لا نفعل نرتكب خطأ مبينا في حق الفكر الجزائري المعاصر • فقد اصبحنا نبحث عن انفسنا ، في فلسفات الغربيين الالحادية في معظمها ، مع ان الواجب ان نبدأ بما لنا فندرسه ، ونقتله بحثا ، وهنالك قد نتوصل الى نتائج مثمرة فيها كثير من الخير للعقول والقلوب •
ننتقل الى مثل هذه الفلسفات الغربية ثم نقارنها بفلسفتنا ، وهنالك

تأمل براعة ابن باديس في التربية والاصلاح ، تجد كلماته ذات معان اشبه ما تكون بالصواريخ الموجهة الى العالم الخارجي ، لا تظهر ثمرتها بالقرب من المصام الذي اطلقت منه، بل تظهر في الامكنة السحيقة والعوالم البعيـدة •

فهو يريد ان يثير الشعب الجزائري ، وهو يريد ان يدفعه الى الثورة دفعا قويا ، ولكنه لا يقوم على التصريح بذلك على نحو صراح لا غبار عليه ولا غموض فيه ، وانما اتخذ طريقا آخر محفوظا آمنا ، وهو طريق الدين •

وعلى ان هذا التوجيه لم يكن عن طريق الدين شأن ما يصنع شيوخ الطرقية وعوام الناس ، وانما كان دينا لا يكتمل الا عن طريق التعلم واعمال الفكر والنظر • فانه الدين الصحيح المرهون بالتعلم الواعـي • لان في التعلم النضج والتفكير ، وفيه الالمام بالتاريخ واحوال الامم ، والالمـام بالتاريخ يوقظ الشعور الوطني ، ويبعث الحمية العربية او الاسلاميـة في قلب المتعلم ، فتكتمل شخصيته وتقوى • واذا حدث بعض ذلك ، ففيه ما هو جدير بالثوران على الاستعمار الذي كان دخيلا ، لغته ليست لغتنا، ولا جنسه جنسنا ، ولا دينه ديننا •

ولا نحسب ان ابن باديس كان ذا عصبية دينية ضيقـة ، فيمقت المسيحية ، او يقلي اليهودية ، او كان يسعى جهده ، نتيجة لذلك ، للتنقيص من هذين الدينين السماويين ، وهما الدينان اللذان كانـا رسميين في الجزائر ــ بالاضافة الى الاسلام الذي كان الاستعمار يبيت له كل شر ، ويكيد له كل كيد ــ وانما كان ابن باديس يأتي ذلك مـن اجل ان يوقظ الامة الجزائرية من بعض ما كانت تغط فيه من سبات ، ويذكرها بمفهوم الاسلام في اصفى عناصره ، واقدس معتقداته ، وانضر لباسه •

وكل هذا يؤيد ما ذكرناه في مطلع هذه الفقرة مـن البحث ، بأن الاصلاح ، عند ابن باديس ، يختلط كثيرا مع التعليم ، ولعله كان يفعل ذلك قصدا • لان الامة الجزائرية كانت امية في معظمها ، ولا تصلح امـة للحياة ، ولا تتقدم ولا تنضج الا اذا كثر فيها المتعلمون وانتشر من اجل ذلك بين افرادها التعليم الذي هو اصل كل تقدم وخير •

(27)

وعلى ان التعليم في حد ذاته ليس شيئا ذا بال حتى يكون مصحوبا بالاخلاق لان الامم تنهض بالاخلاق ، ولا تكون الاخلاق الا بالتربية الوطنية والدينية معا ، ولا تكون التربية الا بالتعلم ، ولا يكون التعلم الا بالعلماء •

فانما « الامم بعلمائها الذين يقومون على تربيتها ، وتهذيب اخلاقها، وتوجيهها نحو الخير والكمال • وقد قال النبي ، صلى الله عليه وسلم ، « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ، وقال : « انما بعثت معلما » • فالتربية والتعليم هما وظيفة الانبياء ، وبالقيام بهما كان العلماء ورثة الانبياء»[1] •

فأنت ترى ان العلم لا يكون علما، في نظر ابن باديس،الا بالاخلاق، كما ان الامم لا تكون امما الا بالاخلاق ، كما ان الاخلاق في حد ذاتها لا تكون الا بالتعلم ، فكأن الامم والاخلاق والتعلم والتدين من الامور المتلازمة التي لا يقوم احدها بدون آخر • فمن فرط في ذات الاخلاق فليس من العلماء ، ومن لم يكن عالما فلا دين له ، لانه مقلد متبع ، لا مفكر مجتهد ، ومن زعم لنفسه الاخلاق ثم كان اثناء ذلك جاهلا ، فانما هو مهرج سخيف • بل من زعم انه موجود على الارض : يشعر ويفكر ويحيا، وهو لا متخلق ولا متعلم فانما هو يتعلق بالاوهام ، ويلوذ بالخيال ، ويتمسك بأشطان السراب •

(28)

هذه بعض مظاهر الفلسفة الباديسية الاصلاحية القائمة على ثلاثة امور : الدين ـ التعلم ـ الاخلاق •

والمقصود من هذه الفلسفة الاصلاحية ليس الآخرة وحدها ، ولكن الدنيا بالدرجة الاولى كما يفهم مما حللنا منذ قليل • لان الامم التي تستثمر ما في السموات وما في الارض ، فانما هي امم حية تعنى ببناء اقتصادها ، وحفظ كيانها الوطني من الانهيار •

ان في هذه المقالة وحدها ، وهي التي جئنا عليها في هذه الفقرة من

(١) ابن باديس : الشهاب : ج ٨ م ١٣ (اكتوبر ١٩٤٨) •

البحث ، ما يجعل ابن باديس مفكرا اسلاميا من الطبقة العليا •

وكل ما ينبغي ان نفعل ، هو ان نعود الى هذا الرجل الغني بشخصيته وافكاره فنخصص له رسائل جامعية معمقة ، تتناول سائر الجوانب من حياته الفكرية على اختلافها ، فان هذه المقالات المقتضبة ، والكلمات السطحية التي اصبحت تنشر في الصحف السيارة حول هذه الشخصية ، وحول كثير من الرجال غيره ، لا تعني شيئا ، ولا ينبغي ان تعد من جنس الدراسات الاكاديمية التي يعتز بها ، وتعتبر فيصلا في المحافل العلمية •

٣ ـ ابن باديس الصحافي والزعيم السياسي :

(29)

كان الساسة في الزمن القديم لا يعولون على شيء تعويلهم على فصاحة السنتهم ، وقوة بيانهم • اما في العصر الحديث فقد اصبح الساسة المثقفون ، لا يعولون على الخطابة فحسب ، بل يعتمدون على الكتابة ايضا • وذلك ابتغاء اقناع الجماهير باستقامة اتجاهاتهم السياسية •

على ان القادة السياسيين لا ينبغي ان ندرجهم في زمرة الصحافيين، لان هؤلاء محترفون للاخبار السياسية ، على حين ان اولئك يضطلعون بمناصب سياسية في دولة ما ، اما لان ظروفا عارضة القت بهم في خضم هذه السياسة ، واما لانهم كانوا اولي طموح عال في قيادة شعب قيادة سياسية ، فنالوا ما كانوا يطمحون اليه •

ولكن الساسة القياديين في معظمهم ، اذا افل نجمهم ، فان الشعوب التي كانت تصفق لهم بالامس ، لا تلبث ان تتنكر لهم ، وتسخط عليهم ، وتكفر بشخصيتهم كفرانا مبينا ، حتى انها ربما طالبت بمحاكمتهم في اخلاص •

وعلى ان هذه الظاهرة السياسية الغريبة ، لا توجد الا لدى الشعوب المتخلفة ، اما الشعوب المتقدمة فهي منها براء •

(30)

اما الذين يمتهنون السياسة واخبارها وشؤونها وهم الصحفيون ، فانهم لا يبالون بالساقطين من الساسة القياديين ، ولا القائمين منهم ، لان

مهمتهم تتمثل في نقل الاخبار وترويجها ، ثم التعليق عليها . بل لعلهم لا يبتهجون بشيء ابتهاجهم بانقلاب سياسي هنا، في دولة متقدمة، او بانقلاب عسكري هناك في دولة اخرى ولكنها كمتخلفة متأخره . فالصحافي اشبه ما يكون بالمسجلة التي توضع في سوق للناس ، فهي تسجل كل شيء ، ما جد وما هزل ، وما صدق وما كذب ، وما ظهر من الاصوات وما بطن ، وما جهر وما خفت، فهي تعطي للذي يستمع اليها صورة ذات اصوات مختلطة، وضجات معقدة ... وهناك نفر آخر من الصحفيين لهم ضمائر عالية ومبادىء ثابتة فهم يدافعون عنها وهم يلاقون في سبيلها كل غشم وظلم ، من هذا الجانب او ذاك .

وهؤلاء هم الصحفيون .

فالى أي الفئتين كان يعتزي الصحافي السياسي ابن باديس ؟

(31)

اني ، قبل ان اجيب على هذا السؤال ، اود ان اجلو غموضا قد يقع لبعض الذين لا يعرفون ابن باديس ، فقد لا نأمن إن يقول قائلهم : اننا سلمنا لك حين عددته في المصلحين ، والمفكرين ، والخطباء ، والمربين ، اما ان تقوم وتقعد ، وتصعد وتهبط ، لتزعم لنا بأن ابن باديس كان صحافيا وسياسيا ، فان هذا المزعم لا يخلو من تعسف ، ومبالغة . وهو على كل حال مفتقر الى دليل يؤيده ، وبرهان يصدقه .

ان هذا المزعم يا سيدي ، ليس فيه مبالغة او تعسف ، فقد كان ابن باديس صحافيا حقا ، لانه هو الذي اسس جريدة « المنتقد » ، وهو الذي اصدر بعد حظر « المنتقد » جريدة « الشهاب » التي كانت اسبوعية في مبتدأ امرها ، ثم لم تلبث ان اصبحت شهرية في عداد المجلات . بل هو الذي اسس المطبعة الاسلامية بقسنطينة [1] . وهو الذي اسس كثيرا من صحف جمعية العلماء التي لم تعمر طويلا . وان كنا لا ننكر جهود بعض اصحابه في ذلك ، فيما يعود الى صحف الجمعية .

فان كنت لا تبرح في ريب من ذلك ، وما اراك الا فاعلا ، فاسمع الى

---

(١) مجالس التذكير : لابن باديس : الصفحة الاخيرة (قسنطينة : ١٩٤٨) .

ما يقول ابن باديس نفسه عن نفسه وهو يخطب في تونس بمناسبة ذكرى وفاة البشير صفر :

« واني احدثكم ، لا بصفتي رئيسا لجمعية العلماء الجزائريين ... وانما احدثكم اليوم بصفتي شخصا خدم الصحافة اثني عشر عاما ، وخدم العلم خمسا وعشرين سنة ... فباسمي الخاص فقط احدثكم » [1] .

اما اذا لم تقتنع الان وقد شهد ابن باديس ذاته لنفسه بأنه كان صحافيا خدم الصحافة اثنتي عشرة سنة وهو في سبع وثلاثين من هذا القرن ، فاذا كان قد توفي في اربعين منه ، فانما يكون قد خدم الصحافة خمس عشرة سنة كاملة ، فلا لوم علي ولا تثريب .

والله المستعان عليك .

(32)

كان ابن باديس من الفئة الاخيرة الشريفة ، فلم يكن يتصحف من اجل ان يرتزق ، كما لم يكن ينشر الحقائق من اجل ان تباع مجلته التي كان لها قراء محدودون مهما كانوا كثارا ، اذا راعينا قلة عدد المثقفين بالعربية على عهد ابن باديس .

فقد كان ابن باديس اذن الصحافي المثالي الشريف الذي يقول الحق ولا يخشى في قوله ملامة اللائمين ، ولا عقاب الظالمين .

وكان في مجلته « الشهاب » ركن خاص لتحليل السياسة العالمية والتعليق على حوادثها الجارية . وما اكثر الحوادث السياسية على هذه الارض ، ولا سيما في قرننا العشرين المحترم ، الذي يستميز مثل ما سلف من اخوانه القرون التي غبرت ، بالحروب النكراء ، والظلم المبرح ، والاعتداء الاثيم . وقد عمل على نشاط هذه الحروب واذكاء نارها ، وتضريم اوارها ، ما اخترع الانسان من اسلحة جديدة مدمرة ، وما استكشف من وسائل للمواصلات السريعة ، وما اسس من احلاف عسكرية . حتى ان المرء الذي يفكر يكاد يعتقد اعتقادا باتا بأن هذه الاحلاف نفسها ، وحتى هذه المنظمات السياسية ايضا ، ان هي الا اساس

---

(1) الشهاب : ج ٥ – م ١٣ (يوليوز ١٩٣٧) .

لهذه الحروب الدائرة ، ولتلك التي دارت ، ولتلك التي ستدور ، ان شاء الله ، فيما يستقبل من الايام • لان الانسان الشرير لا يستطيع ان يعيش الا اذا قتل الآخرين •

هذا ابن باديس الصحافي وقد آثرنا الايجاز ، فاجتزأنا بالقدر القليل املا في ان يقيض الله لبعض هذه الجوانب التي اوجزناها ، باحثا مختصا، فيوسعها ، ويفصلها تفصيلا •

(33)

اما ابن باديس الزعيم السياسي ، فقد شهد له بهذه الصفة اصدقاؤه واعداؤه جميعا • ولعل من القول الفصل ان انقل فقرات مما قالت فيه احدى الصحف الفرنسية التي كانت تصدر بتونس ، ولا تزال اليوم فيما احسب حين سافر ابن باديس الى الخضراء سنة سبع وثلاثين من اجل حضور حفل ذكرى وفاة البشير صفر ، قالت : Le petit matin

« والشيخ ابن باديس يمثل حقا الزعيم الخطيب • فهو قد ملك مقاليد الكلام ، وبصوته الناري يستفز الجماهير ، فيثير الحروب ، او ينزل في القلوب سكينة السلام • وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري الى درجة التقديس • وتسير وراء خطواته تسعة اعشار الامة • اما سمعته فقد اخترقت البحار • واصبح الشرق يعتبره من اكبر رجاله•••

ان عملا يقوم به ابن باديس لا يمكنه ان يتضاءل ولا ان يقف • بل انه لعمل لا يسير الا الى الامام • ولا بد له من ان يتضخم وان ينتشر ، وان يكتسح كالسيل العرم المدن والبادية ، فيحيي الموات ، ويتلف المعارضة •

لقد حرك الشيخ بكلماته امس اوتار القلوب ، فأبدع وادهش ، وقطع الانفاس من شدة التأثير • وابتلت المحاجر وسالت الدموع •

ان الذين يسوقون الشعوب من امثال ابن باديس كانوا دائما يصلون الى اعلى الدرجات ، ان لم يتموا ايامهم في المضيق المظلم ، وان لم يأت الاعتداء السياسي على تلك الحياة فيختم صفحتها •

وان ابن باديس من هذه الناحية ، لقريب الى «ميرابو» و «جوريس» وزغلول • لقد كان يستطيع ان يفعل ما يريد في الجموع التي كانت بالامس

تستمع الى خطابه • كان يستطيع ان يجعل منها اسرابا من الطيور الكاسرة، او قطيعا من الخرفان •

وهذا ما نستطيع ان نصف به هذا الرجل الخارق للعادة •

وهل من اللازم ان اقول بأنه عندما سكت هذا الرجل ، وصفق له الناس تصفيقا لم ار مثلــه في حياتي ، اصبح كل كلام بعــد ذلك غــير مساغ ... [1] •

(34)

يمكن ان يدرج هذا النص القيم ــ الذي يمكن ان يكون وثيقة ذات شهادتين في قوتها ، لان كاتبه ليس جزائريا فيتسرب اليه الطعن العاطفي ، ثم لان النص كتبه فرنسي في اغلب الظن ، وهو على كل حال لــم يكتب اصلا بالعربية ، وانما كتب بالفرنسية ــ في الحديث الذي تناولنا فيه ابن باديس كخطيب مصقع ، كما هو صالح لان يدرج هنــا ، كما فعلنــا ، للاستشهاد به على زعامة ابن باديس السياسية ، وعلى سمعته الشعبيــة الفائقة • حتى ان هذه الصحيفة ذهبت الى انه كان يمثل تسعة اعشار الامة الجزائرية • وفي هذا لابن باديس شرف عظيم ان تقول فيه صحيفة اجنبية هذا، وتشهد له هذه الشهادة• فقد كان ابن باديس محبوبا في قلوب الناس، اثيرا لديهم حقا • ولعل ذلك كان يأتي اليه من كونه عاملا لا يعرف الراحة وثائرا لا يعرف السكون والمداهنة ، الا في المواقف النادرة فانه كان يصطنع التقية ، عالما ينشر العلم حيثما حل ، خطيبا مفوها مصقعا يستطيع ان يعبر عن افكاره ببيان عجيب ، فصيحا جهوري الصوت ــ وقد اخذنا ذلك مما لم نذكره هنا من نص الصحيفة التونسية المكتوبة بالفرنسية ، فليعد الى هناك من يهمه هذا الامر ــ ينفذ الى قلوب الناس من حيثما يريد •

ونحن لسنا نرتاب ادنى ارتياب ، في ان حكم الصحيفة التونسيــة الفرنسية اللغة ، كان حكما رزينا خاليا من الحماس والعاطفة ، صادقا لا اثر فيه للكذب والمين ، حقا لا عنصر فيه للباطل والتزوير • لان ذلــك

---

(١) Le petit matin du 29 mai 1937 (ترجمة الشهاب : ج ٥/م ١٣ يوليوز : ١٩٣٧) •

الصحافي الذي تحدث عن ابن باديس لم يك جزائريا ، كما اسلفت في كلام معترض ، بل لم يكن ، فيما نحسب ، حتى عربيا ، وانما كان يصف ما شاهدت عيناه ، ويعبر عما سمعت اذناه ، ويترجم عما يعتلج في نفسه وقلبه من لواعج وخواطر ، فهو وصف شاهد عيان • وليس الخبر كالعيان ، كما يقول المثل العربي [١] •

(35)

وبعد فقد رأينا ان ابن باديس كان امة قائمة بذاته ، فهو مصلح ديني ومفكر انساني ، ومرب معلم ، وهو خطيب مفسر ـ ولم تتعرض لضيق المجال الى طريقة التفسير عنده ـ وهو صحفي قدير ، وهو سياسي محنك يعرف كيف يثور وكيف يسكن ، وهو زعيم شعبي محبوب ، وهو واعظ مؤثر في القلوب •

وقد آثرنا الايجاز الشديد في المسائل التي عرضنا لها من تفكير ابن باديس العام ، لعلمنا ان هذا البحث مشترك بين كتاب جزائريين مختلفين ، ولا ينبغي ان يطغى احدهم على الاخر ، في احجام فصول هذه الدراسة ، ولو كان ابن باديس •

ونلح ، ونحن ننفض يدينا من هذا الفصل ، على ضرورة دراسة ابن باديس دراسة جديدة معمقة ، ومن الظلم والبله ان يعتقد معتقد ان ابن باديس درس من جميع الجوانب في هذه المقالات التي لا تزال تنشر حوله في الصحف الجزائرية بين الحين والحين •

---

(١) قد يرى بعض الباحثين من الجزائريين ان ابن باديس لا ناقة له ولا جمل في السياسة ، فهو الى ان يضاف الى طبقة العلماء والمصلحين ، اولى ان يضاف الى طبقة رجال السياسة . وهذا الراي يفتقر الى تدليل منطقي خريت ليحسم الجدال . وهذه الدراسة العامة لا تتيح لنا ان نناقش هذا الاعتراض في هذا الموطن ... وانما نبهنا على ذلك استكمالا لعناصر البحث .

الباب الثاني

النهضة الصّحافية والأدبيّة

- الصحافة العربية في الجزائر
- الابراهيمي
- رضا حوحو

الفصل الأول

الصّحافة العربّية في الجزائر

(1)

لا تبرح الصحافة منذ كانت ، مرآة ناصعة ، تنعكس عليها اتجاهات الشعب السياسية ، واحداثه اليومية ، ومذهبه في الحيــاة ، وآراؤه في المشاكل العالمية من استعمار وتسلط ، وثورات وتحرر . وبقدر ما تكون الصحافة مزدهرة في امة ، تكون حرية التعبير فيها اوسع مجالا ، وارص بنيانا . بالاضافة الى ما تدل عليه من نهضة علمية وادبية واسعة المجالات.

وعلى ان الصحافة تختلف قيمتها الاخلاقية من قطر الى قطر ، تبعا للمذهب السياسي الذي تتمذهب به الفئة الحاكمة من الناس في كل بلد من بلدان المعمور . ولعل اصدق الصحافة حديثا ، واكرمها اخلاقــا ، واكثرها تحررا ، ما كانت حرة في آرائها واتجاهها ، لا تراعي مبــادىء حزب ، ولا تجاري سياسة حكومة ، وانما هي صحافة تنشد الحق الذي هو اعلى من الاحزاب والحكومات ، وتبحث عن الحقيقة فتنشرها معبرة عنها في جرأة ونزاهة .

بيد ان هذا اللون من الصحافة ، ربما لا يوجد له نظير في العــالم قاطبة ، لانه لون من الصحافة المثالية لا نظير له الا في عالم الكمال . ومع ذلك ، فما لم تكن الصحافة على هذا النحو ، فهي لا تعدو جهازا لتضليل عقول الناس من الشعوب التي تنطق باسمها ، او بوقا مدويا لهيئة مــن الحكام الذين ينفخون فيها فتنطق ، ويأمرونها فتأتمر ، وينهونها فتنتهي .

هذا هو رأينا في الصحافة من حيث هي صحافة على الارض .

(2)

واذا كان اللون الاول من الصحافة بعيد المنال،يكاد يكون مستحيل الوجود ، طالما كتب على الانسان ان يتركب من عنصري الخير والشر ،

وطالما ظل متذهبا بالمذاهب السياسية ، ميالا الى الاعجاب ببعض الرجال ، دون بعض ، او ببعض النظم السياسية دون بعضها الاخر ، فان مثل هذه الجبلة التي جبل عليها الانسان كثيرا ما تغريه باتخاذ نزعة اخلاقية ، او سياسية ، معينتين ، راكبا من اجل ذلك طريق الحق والباطل ، وسالكا اثناء ذلك سبيل الهداية والضلال جميعا ، فلا اقل من ان تقوم الصحافة ببعض الادوار التي تخدم مصالح الامة في مجموعها .

(3)

وقد اشتقت الصحافة من لفظ « صحيفة » . والصحيفة هي الطومار المكتوب . وقد كان في الزمن القديم ، اي قبل استكشاف الطباعة واصطناعها في طبع المؤلفات ، اناس يحترفون النسخ ، فينسخون الكتب مقابل مقدار من المال معلوم .

والشخص الذي يمتهن الكتابة في الصحف ، او يحترف نقل الاخبار من مكان الى مكان ، ينبغي ان يقال له « صحفي » (بفتح الصاد والحاء بعدها فاء بعدها ياء مشددة للنسبة الى صحيفة على غرار مدينة ومدني وقبيلة وقبلي) وعلى ان في نسبته الى لفظ المهنة وهي الصحافة ما يمكن ان يكون اوضح معنى في النفس واسهل مجرى على اللسان من صحفي وانما النشاز كل النشاز في صحفي « بضم الصاد والحاء » نسبة الى صحف) ، لان النسبة ينبغي ان تعود الى مفرد الاسماء لا الى جمعها ، لان المفرد واحد لا يتغير ، اما الجموع فقد تتكاثر وتتعدد ، فيختلط الامر علينا اختلاطا مهولا ، ارأيت ان جمع صحيفة ، او جمع جمعها ، « صحائف » . وفي هذه الحالة ، جريانا مع « صحفي » المنسوب الى الجمع ، يمكن ان نقول « صحائفي » . وفي هذا خلط كثير واضطراب شديد .

ومن رأيي ان نعزو الذي يمتهن الصحافة الى هذه الحرفة نفسها بدون تغيير فنطلق عليه « لفظ صحافي » ونستريح من هذا العناء والخلط .

(4)

والصحافة العربية عرفت في الجزائر ، في عهد متأخر ، لا بالقياس الى الاقطار الغربية كبريطانيا وفرنسا مثلا ، بل حتى بالقياس الى بعض الاقطار العربية كتونس ومصر . ففي مصر نجد اول صحيفة عربية بها ، انشئت في

سنة ثمان وعشرين وثمانمائة والف ، على حين ان اول صحيفة عربية صدرت بتونس كانت في سنة سبع وستين من القرن الماضي نفسه [1] •

ولكن الصحافة صحافتان ، بل ثلاثة انواع من الصحافة : صحافة خرساء ، او مكتوبة ، وصحافة ناطقة وهي المذاعة ، وصحافة مرئية وهي المتلفزة ، فأيها نعني في هذا المقام ؟ انا لا نعني الا اللون الاول منها ، لان اللونين الاخيرين لا يكونان بالعادة الا تحت اشراف الدولة المباشر • ولكن هذا ما كان ليحظرنا من ان نحكم على الاذاعة العربية الجزائرية في عهد الاستعمار بالجمود والانحطاط ، بل بالموت الزؤام ، بحكم انها كانت خاضعة للنظام الاستعماري القذر الذي لا يهمه من الامر في الدنيا الا المحافظة على وجوده • فلم يكن المذيعون يومئذ الا طائفة من الجهلة لا يكادون يدركون ابسط المبادىء الصحافية • اما الكفاءة الثقافية ، فكان من الخير لك ان تقرأ عليها السلام ، ثم تمر بها مسرعا • فقد كانت النشرات الاخبارية ، الى ما في محتواها من شر وضلال للمستمعين ، عبارة عن دارجة متعفنة ليس فيها شيء من الخير للناس ، او كانت عبارة عن فصحى مريضة شر من العامية بكثير •

ويمكن ان نوجز القول حول هذه المسألة فنقول : ان الجزائر لم تكن فيها اذاعة قبل الاستقلال مطلقا ، لئلا يطول الكلام •

اما الاذاعة المرئية التي انشئت متأخرة ، فلم تكن تراعي هي ايضا الا اذواق الاوروبيين وعاداتهم واخلاقهم •

فقد كان اعتبار الجزائريين كجزائريين مسلمين عرب عندما او يكاد •

(5)

ومن الواضح اننا لا نعنى في هذا الفصل الا بالصحافة العربية الوطنية — حتى تخرج الصحافة الاستعمارية في الجزائر من الحساب — التي عرفتها المرحلة الزمنية التي نخوض في شأنها هذا البحث •

واهم هذه الصحف اطلاقا، واكبرهن شأنا، واطولهن عمرا «الشهاب» و « البصائر » •

---

(١) الموسوعة العربية : (صحافة) (القاهرة : ١٩٦٥) •

ونحن خائضون في شأنهما الحديث خوضا مفصلا لنبين مدى اثرهما في اذكاء النشاط الفكري والادبي في الجزائر • ولكننا اثناء ذلك لن نهمل جانب الصحف الاخرى العربية في الجزائر ، اهمالا تاما ، بل سنختصها بقائمة تجمعها وتبين تواريخ صدورها ، ما استطعنا الى ذلك تأريخا •

١ ـ المنتقد : (١٩٢٥)

(6)

صحيفة اسبوعية اصدرها عبد الحميد بن باديس سنةخمس وعشرين وتسعمائة والف • ولنترك ابن باديس ذاته يحدثنا عن هذه الصحيفة التي لم تعمر الا ثمانية عشر اسبوعا [١] •

يقول ابن باديس :

« في يوم النحر من ذي الحجة ، خاتمة شهور عام ثلاثة واربعين وثلاثمائة والف ، برزت جريدة « المنتقد » تحمل فكرة الاصلاح الديني بتنزيه الاسلام عما احدثه فيه المبتدعون وحرفه الجاهلون • وبيانه كما جاء في القرآن العظيم والسنة المطهرة ، وعمل به السلف الصالحون ، معلنة ان المسلمين بذلك وحدة تصفو عقائدهم ، وتزكو نفوسهم ، وتستقيم اعمالهم ، وينبعثون عن قوة وبصيرة في الاخذ بأسباب الحياة الراقية ، والمدنية الطاهرة • مشاركين امم الدنيا في خدمة الانسانية ، وترقية الحضارة ، وتوسيع العمران •••

برزت جريدة « المنتقد » تحمل هذا ، وتلفت الجزائريين المسلمين الى حقيقة وضعيتهم بين الامم : بأنهم امة لها قوميتها ولغتها ودينها وتاريخها • فهي لذلك امة تامة الامية ، لا ينقصها شيء من مقومات الامم•

مضت الجريدة على خطتها حتى سقطت في الميدان بقرار التعطيل بعدما برز منها ثمانية عشر عددا كانت في بنيان النهضة ثمانية عشر سندا » [٢] •

---

(١)ابن باديس : الشهاب : ج ١ م ١١ (الافتتاحية) •
(٢) ابن باديس : الشهاب (ج١ ـ م١١ ـ الافتتاحية) •

(7)

فقد كانت « المنتقد » اذا ، جريدة اسبوعية ، وعاشت ثمانية عشر اسبوعا فقط • لان سلطة الاحتلال قررت تعطيلها لما كـانت تخشى ان يلحقها منها من الاذاة •

اما هدف جريدة المنتقد فقد بينه الشيخ ايضا ووضحه ، فهي صحيفة انشئت من اجل بعث الامة الجزائرية ، وتذكيرها بماضيها الاصيل ، ومجدها الاثيل ، ولغتها المشرقة الساحرة ، ودينها الاسلامي الحنيف • لان الامة التي تنسى تاريخها ، وتجهل نفسها جهلا تاما ــ وكل امة تجهل نفسها ــ لا تأمن ان تعصف بها العوادي ، ويلم عليها الاندحار والامحاء•

يضاف الى كل ذلك ان ابن باديس كان يريد نقد الاوضاع الراهنة في البلاد ، فيما يفهم من لفظ « المنتقد » نفسه • فاسم الجـريدة اذن مقصود كل القصد ، فلا ينبغي ان نصرفه صرفا اتفاقيا عفويا •

فما اشجع ابن باديس على الجهر بالحق ، وما اعظم فضل ابن باديس على الامة الجزائرية •

وان شجاعة ابن باديس ، وثباته على المبادىء العليا ، ابيا عليه ان يستسلم للواقع، ويرضى بقرار سلطة الاحتلال،فلا عجب اذا رأيته يسارع الى اصدار جريدة اخرى اسبوعية ، كانت على الاستعمار كالشرر الذي يرمي بلهب ، وكالشهب التي تحرق كل شيء ، ولكنها ثبتت وصابرت ، فكانت تثور حين ترى الثورة ملائمة ، وتتقي حين لا تجد غير التقية سبيلا تسلكها ، فلم يستطع الاستعمار ان يصنع لها ، من اجل ذلك شيئا • فما هي هذه الجريـدة ؟

٢ ـ الشهاب : (١٩٢٥ ـ ١٩٣٩)

(8)

هذه اشهر المجلات في المغرب العربي في النصف الاول من هذا القرن، واطولهن عمرا ، واعظمهن خطرا ، وابعدهن اثرا ، واغناهن فائدة ونفعا ، فقد كانت تتناول الفكر الاسلامي في عمقه واصالته ، وكانت كثيرا مـا تنصب ، اثناء ذلك ، على الفكر الانساني بما فيه من سعة وشمول •

وكانت « الشهاب » مجلة اسبوعية اول الامر ، ثم لـم تلبث ان

اصبحت شهرية . وكانت ملكا لابن باديس ، وما كانت يوما ملكا لجمعية العلماء ، او أي هيئة حزبيه اخرى . فهي عمل من اعماله ، ومفخرة من مفاخره .

وكان ابن باديس بالرغم من حبه للشهاب ، فانه كان شديد الحنين للمنتقد ، ولذلك كثيرا ما كان يقرنهما معا حين يتحدث عن ذكرياتهما كل سنة ، يقول ابن باديس :

« اعلن « الشهاب » من اول يومه — والمنتقد الشهيد قبله — انه لسان الشباب الناهض في القطر الجزائري . ولم يكن يومذاك من شباب الا شباب انساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده ، وقبح له دينه وقومه ، وقطع له من كل شيء — الا منه — امله ، وحقره في نفسه تحقيرا ...

اعلن الشهاب من اول يومه — والمنتقد الشهيد من قبله — ان الوطن قبل كل شيء ، وما كانت هذه اللفظة يومئذ تجري على لسان احد بمعناها الطبيعي الاجتماعي العام ، لجهل اكثر الامة بمعناها هذا ، وعدم الشعور به ، ولخوف اقلها من التصريح به » [1] .

فأنت ترى ان ابن باديس كان يصف المنتقد المعطل بأنه شهيد . وهو بالفعل شهيد .فقد صرعه الاستعمار صرعة ظالمة . واختفاء الامور الهامة، يشبه موت الانسان واختفاءه من الوجود .

(9)

وكان الشهاب يصدر اول امره — كما اسلفت — اسبوعيا كالمنتقد : وقد ظل على هذا النحو يصدر طوال اربع سنوات كاملة ، ثم اضطر ابن باديس الى ان يصدره شهريا . ولعل ذلك يعود الى عقبات شتى لم يستطع الرجل ان يتغلب عليها ، وفي طليعتها عدم وجود المال الكافي [2] .

يقول ابن باديس حول هذا الامر :

سلخ « الشهاب » زهاء اربع سنوات اسبوعيا ، واذا لم يصل الى غايته كما يجب ، فقد قام — بامانة الله — بأعبائها كما يجب ، وفوق

---

(١) الشهاب : ج ١ م ١٤ ص ٢ .
(٢) الشهاب : ج١ م ١١ (الافتتاحية) .

المستطاع • ولقد غالبته الظروف بما لها من قوة وسلطان ، ولقد قاومها بما له من حق وايمان • ولو حاربته بغير المال لخرج كعادته غالبا منصورا ، ولو اراد الاستكثار من هذا السلاح من كل وجه ، لكان نصيبه منه نصيبا موفورا ، ولكنه عف وتكرم فكانت الغلبة عليه •

اجل ، قد قهرته الظروف فغيرته من صورته الاسبوعية الى هيئته الشهرية ، ولكنها لن تستطيع ، باذن الله ، ان تمس ضميره بسوء •••

يتقدم الشهاب لانصاره ومريديه في بزته الجديدة مجلة شهرية ، واعدا اياهم بأن يكون على ما عرفوا منه في دعوة الحق غير مفرط ولا غال •

وستكون ابوابه اليوم عشرة : مجالس التذكير ، ورسائل ومقالات، ومجتنيات من الكتب والصحف ، وفي المجتمع الجزائري ، ونظرة عالمية ، والمباحثة والمناظرة ، والفتوى والمسائل ، واخبار وفوائد ، وقصة الشهر ، وثمار العقول والمطابع •

وقد يزاد فيها اذا اقتضى الحال ، وعلى الله وحده المعول في تحقيق الامال [1] •

(10)

فقد توقف الشهاب عن الصدور كل اسبوع ، لان عقبات مالية حادة حالت بينه وبين هذا الصدور الاسبوعي • وقد قدر ابن باديس الامر تقديرا طويلا ، ثم قرر ان يصدره شهريا • وهذه خطة حكيمة • فلو لم يفعل ذلك ابن باديس لكان الشهاب ايضا قد توقف في حدود اربع سنوات من عمره ، ولكنا قد خسرنا ثروة فكرية ، وتاريخية ، وسياسية ، وادبية ، لا تعوض بشيء آخر •

وقد رأينا في هذا النص ان ابن باديس حدد للقراء مواد كل عدد شهري من الشهاب وكانت هذه المواد ، فيما يبدو مدروسة دراسة نفسية ، بحيث تكاد تلائم سائر اذواق القراء ، وتتجلى هذه الدراسة النفسية في تنوع هذه المواد واختلافها •

---

(١) الشهاب : ج١ المجلد الخامس (المقدمة) •

وكان شعار الشهاب متمثلا في اربعة الفاظ ، يشتمل كل منها على معنى اعمق من الاغوار ، واثقل من الجبال . وهذه الالفاظ الاربعة هي :

الحرية ــ العدالة ــ الاخوة ــ السلام

وكان ابن باديس يكتب على غلاف كل عدد من الشهاب هذه العبارة السامية : « الحق والعدل والمؤاخاة ، في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات » .

فأنت ترى ان ابن باديس كان يدقق كل التدقيق في شرح معنى الحق وتحديده ، كما يدقق في فهم العدل والمؤاخاة . فالمواطن الصالح الكامل المثالي ، عند ابن باديس ،هو ان كل من يقوم بواجبه نحو وطنه ومواطنيه، فاذا فعل ذلك فله الحق كل الحق في ان ينال حقوقه موفورة .

فليس هناك اذن الا جزائريان اثنان لا ثالث لهما : احدهما يعمل وهذا له جميع الحقوق لانه نهض بجميع الواجبات . وثانيهما لا يعمل ، ومثل هذا ينبغي ان لا يعتبر جزائريا من الناحية الاخلاقية . ولذلك لا علينا اذا حرمناه من الحقوق التي يتمتع بها الجزائري الاخر الذي يقوم بواجباته في المجتمع .

وحبذا لو طبقنا هذا المبدأ الباديسي العالي في مجتمعنا الاشتراكي اليوم كل التطبيق ، اذن لما تخبط كثير من المواطنين في ازمات نفسية حادة . فليس ينشأ عن مثل هذه الأزمات النفسية والعقلية الا الشر المستطير . فان الاعمال وحدها، هي التي ينبغي ان تقاس بها اقدار الرجال.

وعلى ان ابن باديس كان كثيرا ما يغير من مثل هذه العبارات التي اتينا عليها ذكرا . كأن يثبت قول مالك بن انس على غلاف المجلة :

« مبدؤنا في الاصلاح الديني والدنيوي : لايصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها » .

بل ربما كان يحذف مثل هذه العبارات البتة ، وخصوصا في الاعداد الخاصة مثل العدد التاسع من المجلد العاشر .

وقد امتد الزمان بالشهاب الى سنة تسع وثلاثين ، وهذا يدل على ان هذه المجلة عمرت طويلا . بالقياس الى اعمار الصحف الجزائرية الاخرى

التي كانت لا تكاد تظهر حتى تختفي ، حيث امضت اربع سنوات تصدر اسبوعيا ، واحدى عشرة سنة تصدر شهريا •

(12)

كتّاب مجلة الشهاب :

ان لكل صحيفة يومية او اسبوعية ، او مجلة شهرية ، كتابها المعروفين ، ومحرريها المرموقين • وانما تتفاوت قيمة هذه الصحيفة عن تلك ، او تلك المجلة عن هذه ، بتفاوت قيمة الكتاب الذين يكتبون فيها ، او يشرفون عليها •

فمن هم الكتاب الذين كانوا ينشرون ابحاثهم ومقالاتهم في الشهاب؟

انهم كثير ومن العسير احصاؤهم عددا ، ومع ذلك فان الذين كانوا يكتبون باستمرار ،معروفون بحيث نستطيع ان نحدد اسماءهم تحديدا •

وقد كان ابن باديس اجرأهم قلما ، واعظمهم شأنا جميعا ، من حيث انه كان المسؤول الاول عن اصدار المجلة • ثم يليهم شأنا محمد البشير الابراهيمي • وعلى اننا نجد كثيرا من المقالات والابحاث لا تحمل اسماء اصحابها • ويبدو ان ذلك كان بقلم التحرير ، كما يقال • وقلم التحرير قد يعني ابن باديس ، وقد يعني طائفة آخرين ممن كانوا يتظاهرون معه على اخراج هذه المجلة وطبعها وادارتها بقسنطينة • كما اننا نجد في الشهاب مقالات ومناظرات واشعارا كثيرة نشرت في صحف شرقية اخرى، ثم نقلها الشهاب لقرائه واذاعها بينهم •

ومثل هذا لا يقلل من اهمية هذه المجلة شيئا ، لان تلك الصحف العربية الشرقية ، التي كانت الشهاب تنقل منها ما تنقل لقرائها ، غير معروفة لديهم بوجه عام •

(13)

وكان ابن باديس يتحدث اكثر ما يتحدث في مقالاته التي كان يصدر بها الشهاب ، عن اهم القضايا التي تشغل اذهان الناس • وكان مع ذلك ما اكثر ما ينشر في صدر الشهاب بعض ما كان يفسر من القرآن لطلابه ، او لعامة الناس ، في المسجد الاخضر اثناء الشهر • بيد ان ما كان ينشره — سواء كان تفسيرا ام مقالات اخرى — لم يك شيئا ذا بال ، اذا قسناه

بما كان يضطلع به من اعمال ادبية وفكرية ودينية اخرى في بحر كل شهر •

وربما كان ابن باديس ينصرف حينا من مجالس التذكير ، ليتناول مواضيع سياسية او اجتماعية او ثقافية ، اهم واخطر •

(14)

اما مقالات الابراهيمي فهي قليلة جدا ، اذا قيست بالكتابات المنتظمة المستمرة التي كان ينشرها في البصائر الثانية من بعد • واذا بحثنا عن العلة في ذلك وجدنا اسبابها كثيرة نفترضها على النحو التالي :

١ ــ ان الابراهيمي كان بعيدا عن ابن باديس • فاذا كان هذا مقيما بقسنطينة حيث مكان صدور المجلة ، فان ذلك كان مدرسا بتلمسان بدار الحديث • وفي البعد عن مقرصدور المجلة ــ رغم انتظام البريد ــ ما يدعو الى شيء من التكاسل او الفتور •

ويؤيد هذا الفرض ما نجد اليوم في حركتنا الثقافية بعد الاستقلال ، فان معظم الذين يمدون الصحف والمجلات من الاساتذة الذين يقيمون بالعاصمة • وليس معنى ذلك ان اولئك الذين يكتبون في هذه الصحف لا نظراء لهم في باقي المدن الجزائرية ، فان مثل هذا الاحتمال يبعده ان معظم اولئك وهؤلاء كانوا متزاملين في دراساتهم بالجامعات • انما مجاورة اولئك للصحف والمجلات ودور النشر والطبع ، جعلتهم ينشطون ويجدون، ويحاولون ثم يحاولون الى ان يحققوا بعض النجاح •

٢ ــ ان مواضيع الكتابة لم تكن تفتحت ابوابها على نحو اوسع • وهذا فرض مستقيم اذا اعتبرنا ان زعماء جمعية العلماء البارزين لم يكن همهم اول الامر في الظاهر الا الدين • وقد كان ابن باديس يكتب في التفسير ، والحديث ، وفي بعض سير الصحابة ، كما كان يكتب عن اهم القضايا السياسية ، والاجتماعية الراهنة ، ويكتب عن ذكريات المجلة السنوية ، ففيم كان ينبغي ان يكتب الابراهيمي والحال هذه ؟

حقا ان مواضيع الكتابة بلا نهاية ، وان آفاق التفكير والخيال بلا حد • ولكن الكتاب احيانا تعمى عليهم فلا يهتدون اليها ، ولا يقعون عليها • والذي يعود الى الشهاب فيبحث فيها ، والى البصائر فيستقري امرها ، يجد ان الابراهيمي انما برز في الفنون الكتابية في البصائر الثانية

التي استؤنف اصدارها في سنة سبع واربعين • اما قبل ذلك فقد كان خطيبا مفوها ، وكان عالما متقدما ، وكان كاتبا متفوقا ، ولكنه لم يكن يعنى بالمجال الاخير فظل فيه قاصرا ، الى زمن البصائر الثانية فاندفع يكتب في كل فن ، ويبحث في كل لون من الوان التفكير والادب •

وقل ان المسؤولية الثقيلة قد اجرت قلمه ، وفتقت خياله ، ودفعته الى الكتابة دفعا ، اما قبل ذلك فكان تعويله على ابن باديس اكثر •

هذه هي كلمة الحق التي ارتأينا قيلها في هذه المسألة ، في هذا المقام •

(15)

وعلى ان هناك كثيرا من كتاب الشهاب لم نأت على ذكر اسمائهم ، اما لانهم لم يكونوا يكتبون باستمرار * ، واما لانهم لم يكونوا ذوي شأن خطير على النهضة الادبية المعاصرة في الجزائر ، واما لانهم كانوا يخشون ، او يتواضعون ، ان يذكروا اسماءهم صراحة •

وانك لتجد كثيرا من المقالات الرائعة في هذه المجلة ، لم يصرح بأسماء اصحابها • وربما كان اولئك الكتاب المجهولون انفسهم يلتمسون ذلك من المجلة التماسا •

ولنضرب مثلا لهذه المقالات الرائعة ، بما نجده في الشهاب : (1) مكتوبا تحت هذا العنوان :

« الاندفاع مع تيار العاطفة امر — والله — يزعجنا » • وقد كتب تحت هذا العنوان نفسه هذه العبارة المجهولة : « لكاتب كبير » •

ولولا انني اخشى الاثقال والاضجار ، لنقلت اليك المقال ، فهو ذو اسلوب رائع ، وافكار عالية ناضجة ، وانما حسبي ان اعيدك الى مكانه في المجلة (2) • فان مثل هذا الفصل لا يحتمل ذلك النص الطويل •

(16)

ونجد في امر الشعر ما لا نجد في امر النثر ، فقد وجدنا الشعر في

---

(1) الشهاب : ج ٤ المجلد ٨ ص ٢١١ •

(2) المصدر السابق ص : ٢١١ — ٢١٢ .

* امثال احمد توفيق المدني (انظر مثلا: الشهاب ج ١١ م ١١ ص ٦٣٠) والشيخ العربي التبسي وسواهما .

الشهاب معزوا الى اصحابه دائما • ولو تصفحنا اعدادا كثيرة من هـذه المجلة لوجدنا محمدا العيد ، ومحمدا الهـادي السنوسي ، وسحنونا ، والزاهري ، وابا اليقظان ، في طليعة الشعراء الذين كانوا ينشرون اشعارهم بالشهـاب •

وكانت مواضيع قصائد هؤلاء الشعراء ، تتناول في معظمها الاحداث الهامة التي كانت تعتور الجزائر ، او تعتور قطرا من اقطار الوطن العربي • وكانت هذه الاشعار في معظمها تمتاز بالمسحة الوقارية المتزمتة ، ولم يكن فيها ما يتناول المسائل العاطفية الحادة الا لماما • كما كان يغلب عليها التقليد والاتبـاع •••

قيمة الشهـاب :

(17)

لم ير الناس في الجزائر مجلة او صحيفة يومية او اسبوعية ، ممـا غبر ومضى من المجلات والصحف الكثيرة ، استأثرت بقلوب المفكريـن الجزائريين ، واشتد حرصهم على اقتنائها او الالمام بها،مثل مجلة الشهاب• بل ان هذا الاستئثار تجاوز الجزائر الى اقطار عربية اخرى • فقد كان الاستاذ ابراهيم الكتاني ، مدير المكتبة العامة بالرباط ، واحد اصدقاء الجزائر ، تقدم الي في ان احيطه خبرا بما صنع الله بهذا التراث الفكري العظيم ؟ ولم اره تعطش الى اقتناء شيء من الكتب تعطشه الى اقتنـاء مجموعة الشهاب •

(18)

ولا تعود اهمية الشهاب الى كون صاحبها ابن باديس ، او الى انها توقفت عن الصدور فنحن نحن اليها حنينا عاطفيا عارما ، اذن فما اكثـر ما توقفت الصحف والمجلات ، فلم نكد نأسف عليها او نأبه لها ، بل ربما تلقينا ذلك بما نتلقى به الحوادث العادية من برودة وفتور •

فماذا اذن ؟

ان مجموعة هذه المجلة عبارة عن دائرة معارف جزائريـة بالمفهوم الواسع ، اذ يظفر فيها القارىء بكل ما يتصل بالسياسـة الجزائريـة ، والثقافة الجزائرية ، والنهضة الجزائرية ، والمجتمع الجزائري بوجه عام ، اثناء حقبة معينة من التاريخ •

ولا اغادر هذا الحديث عن الشهاب حتى اثبت قصيدة قيلت في التنويه بهذه المجلة ، وهي حية تنشر ، واذيعت بين القراء على صفحاتها وهي في ريعان الشباب ، واوج الحياة والفتوة ، بعد ان تردد ابن باديس في نشرها [1] ، لما فيها من ذكر لاسمه ، واطراء على عمله الذي كان يراه واجبا ليس من المنطق ان يقدم الناس اليه من اجله الشكر .

وقد كتب هذه القصيدة احد الشعراء المغمورين ، وهو محمد بن بسكر :

حَيِّ الشهابَ وَحَيِّ الشيخَ باديسَا ... وَاَسْأَلْ له الله توفيقاً وتأنيسا

وَقُل رَعاكَ الذي أعطاكَ موهبةً ... حَزما ،وَعَزما ،وَتأليفا وَتدريسا

لله درُّكَ يا عَبد الحميدِ لَقَد ... مَحوتَ عَن ديننا المَحبوب تَدنيسا

نَسفْتَ بدعَة قَوم كانَ دأْبُهُمُ ... سَلْباً وَنَهبا وَتَضليلا وَتَلْبيسا

أخلصتَ لله في الحالين مُبتغياً ... لِلشعب وَالدين اخلاقاً وتقديسا

جوزيت أجراً واحساناو تكرمةً ... وَزادكَ الله في الأَيام تنفيسا

* * *

سَارَ الشهابُ على رَغم الحسود خُطًى ... يَطوى المراحِلَ تأويباً وَتَغليسا

لِلهِ انواع اتعاب يزاوِلُهـــا ... قَدْ تَمنع المرء تَهويما وَتَعريسا

في بَحر خَمسة أعوام أَنارَ لنـــا ... روحا مُكَهْرَبَةً ،أذْكَتْ فوانيسا

* * *

رَعْياً لعيدِكَ عيد الشعب أجمعه ... فَالشعب أنت وَلَيس الشَعب باديسا

فَاهنأْ بِهِ وبعيد الفطر زانهما ... عيد الربيع وشيُ للروض توريسا

---

(١) الشهاب : العدد الثالث : م ٦ (ابريل ١٩٣٠) .

عاش الشهابُ وعاش المصلحون له   ومات مبغضهم في الله تنكيسا[١]

(20)

هذا الشأن في الشهاب ، فما الشأن في الصحف الاخرى ؟ ولا نرى صحيفة بعد الشهاب اجدر بالبحث ، واخلق بالذكر من صحيفة «البصائر»، فمتى صدرت ؟ ومتى توقفت ؟ ومن هم كتابها ؟ وما كان اسلوبها ؟ وما قيمتها الادبية والتاريخية ؟

ذلك ما نحن خائضون فيه البحث في هذا الحديث •

٣ ـ البصائر : (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ ـ ١٩٤٧ ـ ١٩٥٦)

(21)

ليست هذه الصحيفة كالمنتقد والشهاب ، ملكا لجمعية العلماء التي تأسست سنة احدى وثلاثين • ولم تظهر البصائر حتى كانت صحف ثلاث اخرى سبقتها ، وهن : السنة ، والشريعة ، والصراط • وكانت كل منهن تصادر من قبل الاحتلال الفرنسي ، فكانت الجمعية تضطر الى اصدار صحيفة اخرى سريعا ، وهلم جرا •

وظهرت البصائر اول ما ظهرت في سنة خمس وثلاثين [٢] •

والبصائر بصائران اثنتان : اولى وقد كان يديرها في السنتين الاوليين الطيب العقبي ، وفي سنة سبع وثلاثين عين مبارك الميلي بقرار من المجلس الاداري لجمعية العلماء مديرا ومحررا للبصائر خلفا للعقبي[٣] • وقد ظل الشيخ الميلي مبارك مديرا لها طوال سنتين اثنتين ، حتى توقفت عن الصدور ابان الحرب العالمية الثانية •

فالبصائر الاولى عاشت سنوات خمسا فقط •

(22)

وقد شاهدت شخصيا ، وانا طفل صغير ، اول عدد من البصائر في مكتبة والدي بقرية « مجيعة » ، في اقصى الشمال الغربي الجزائري • وقد

---

(١) المصدر السابق . توقفت الشهاب عن الصدور في سبتمبر ١٩٣٩ (انظر تراث ابن باديس ـ تقديم عمار الطالبي : ٨٦/١ ـ ٨٧) .

(٢) البصائر الثانية : العدد : ٣ (السنة الاولى) .

(٣) المصدر السابق ، العدد : ٢٦ ص ٨ .

احرقت مجموعة ضخمة فيما احرق او دفن من كتب ومجلات ابان ثورة التحرير العظيمة ، خوفا من بطش الاستعمار • ومع ذلك فلا ابرح اذكر آية كتبت في اعلى البصائر الاولى ، وهي : « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها ، وما انا عليكم بحفيظ » [1] •

واختيار اسماء معينة من القرآن او من الحديث النبوي . ثم اطلاقها على صحف الجمعية اختيار مقصود ، ويدل على ان هدف هذه الصحف كان دينيا بحتا اول الامر •

ويخيل الي ان قيمة هذه الصحف لم تكن خطيرة في تاريخ النهضة الادبية والفكرية بالجزائر ، لانها تعطلت والشهاب لا تزال تصدر كل شهر ، وفي هذا عزاء عما تعطل ، وعوض عما ذهب ، بالاضافة الى ان الشهاب كانت تسجل كل ما يمكن تسجيله من الوان الحياة العقلية والادبية والاجتماعية في الجزائر خلال شهر كامل •

ومما ينبغي ان يذكر للتاريخ ان هذه الصحف كانت تصدر كلها بمدينة قسنطينة • وكان مبارك الميلي يقيم بميلة ، وكان مسؤولا عن تحرير البصائر وادارتها ؛ فكان ييمم مكتب البصائر بقسنطينة كل اسبوع ليشرف بنفسه على طبع هذه الجريدة [2] •

هذا شأن البصائر الاولى ، وهي اهم الصحف الاسبوعية في الجزائر خلال العقد الرابع من هذا القرن •

(23)

اما البصائر الثانية ، وهي اطول عمرا ، واخطر امرا ، وابعد قيمة في تاريخ النهضة الادبية بالجزائر ، فانها صدرت في خامس وعشرين من شهر يوليوز سنة سبع واربعين وتسعمائة والف [3] •

وقد ظل الابراهيمي مسؤولا عن ادارتها الى ان توقفت في سنة ست وخمسين ، بعد ان تشرد المسؤولون عنها ، وقد كان الابراهيمي لاجئا في

---

(١) سورة الانعام : ١٠٤ •

(٢) البصائر الثانية : العدد ٢٦ السنة الثانية (عدد خاص بذكرى وفاة الميلي) •

(٣) المصدر السابق . العدد : ١ (الافتتاحية للابراهيمي) .

المشرق العربي ، نتيجة حتمية لبطش الاستعمار الفرنسي بهم •

وقد كانت تصدر اول امرها يوم الجمعة من كل اسبوع ، ولكنها لم تلبث الا قليلا حتى اصبحت تصدر يوم الاثنين ، وظلت تصدر على هذا النحو حياتها •

(24)

وظاهر الامر ان الابراهيمي لم يكن يعول في اول الامر الا على قلمه في تحرير البصائر • ومن يتصفح العدد الاول منها يجده في معظمه محررا بقلم الابراهيمي • وقد كان مفتتح العدد الاول ببعض ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم • اللهم باسمك نبتدى ، وبهديك نهتدي ، وبك يا معين ، نسترشد ونستعين ، ونسألك ان تكحل بنور الحق بصائرنا ، وان تجعل الى رضاك مصائرنا ، نحمدك على ان سددت في خدمة دينك خطواتنا ، وثبت على صراط الحق اقدامنا •••

وهذه جريدة البصائر تعود الى الظهور بعد احتجاب طال امده وكما تعود الشمس الى الاشراق بعد التغيب ، وتعود الشجرة الى الايراق بعد التسلب ، فلا يكون اعتكار الظلام وان جلل الافق بسواده الا معنى من معاني التشويق ، ولا يكون صر الشتاء وان اعرى الاشجار باشتداد، الا خزنا لقوة الحياة في الاشجار • والشمس موجودة وان غابت عن نصف الكون ، والشجرة حية وان افقدها الصر جمال اللون •

كذلك صحيفة البصائر احتجبت صورتها عن العيان ، وان كانت حية في النفوس ممثلة في الافكار • وان في احتجابها لصنعا الهيا يدركه ايقاظ الشواعر واحياء الضمائر ، وهو اذكاء الشوق اليها • فقد كان الشوق اليها يتجدد ، في اخريات كل اسبوع فتطفئه قعقعةالبريد، واتصال المراد بالمريد ••• » [1] •

كتّـاب البصائر :

(25)

يخيل الى الباحث في الصحافة العربية بالجزائر ، وفي تاريخ تطورها خلال هذا القرن ، ان كتاب البصائر من الناحية الادبية ، اقوى تعبيرا ،

---

(١) الابراهيمي : البصائر (العدد : ١ الافتتاحية ــ السلسلة الثانية) •

واجمل تصويرا ، واغزر مادة من كتاب الشهاب • فقد كانت الشهاب يغلب عليها الطابع الديني والفكري ، اما البصائر فقد كان يميزها الاسلوب الادبي المشرق البليغ •

ونجد الابراهيمي في طليعة كتاب البصائر البارعين • وهو بذلك ينبغي ان يعد اكبر كاتب عرفته البصائر • وقد كان الابراهيمي يعني بالجوانب الفكرية والمذهبية والسياسية باعتباره رئيسا لجمعية العلماء ، فكان يتناول مواضيع يكتب حولها مسلسلات تصل احيانا الى عشر مقالات • وكان ينشر فيها قليلا من الاحاديث الادبية البحتة ، مثل «سجع الكهان »[1] الذي صادف اعجابا شديدا ونجاحا بالغا • وهي احاديث قصيرة ادبية ، كتبت على طريقة المقامات[2] •

وكأن الابراهيمي شعر باهمية هذه المقالات التي كان ينشرها في البصائر كل اسبوع ، فأذن بطبعها في مصر تحت عيون البصائر[3] • وهو عنوان ملائم للحقيقة ، لان كتابات الابراهيمي ارقى ما كان ينشر في البصائر بل ارقى ما نشر في اية صحيفة جزائرية خلال النصف الاول من هذا القرن •

(26)

ونعل الذي يلي الرتبة من كتاب البصائر الثانية ـ اما الاولى فقد كان كتابها البارزون ثلاثة : العقبى ، وابن باديس ، ومبارك الميلي ، ثم الابراهيمي ، وتوفيق المدني ـ انما هو احمد توفيق المدني • فقد كان المدني يكتب في البصائر اسبوعيا ، وكان يشرف على تحرير ركن « منبر السياسة العالمية » • وكان لهذا المنبر انصاره الكثيرون من القراء •

فقد كنت اعرف احد حفاظ القرآن المستنيرين المولعين بالقضايا السياسية ، أنه كان يجوب الجبال والوهاد قاطعا نحو خمسة عشر كيلو مترا من اجل ان يشتري البصائر ليقرأ فيها « منبر السياسية العالمية »[4] •

---

(١) ابتدأ في نشرها في العدد ٤٩ من البصائر وما بعدها من اعداد ، وقد بلغت سبعة .

(٢) لنا بحث حول هذه المسألة في الرسالة الجامعية التي سنناقشها قريبا ان شاء الله .

(٣) صدر هذا الكتاب بالقاهرة سنة : ١٩٦٣ .

(٤) لا يزال هذا الشخص حيا ، ويسمى محمد بن المنور ، وكان يسافر من « مجيعة » الى « باب العسة » ، (نواحية مغنية من جهة الشمال الغربي لهذه الغاية ، وغيره كثير ...) .

ثم ياتي بعد دلك احمد رضا حوحو ،وكانت كتاباته من النوع الادبي البحت • وكان ينشر في البصائر بعض اقاصيصه الجميلة المرحة • وقد نشر فيها مع حمار الحكيم [١] •

وعلى ان كثيرا من مقالاته الاخرى كانت تتناول مواضيع نقدية بحتة •

ثم يأتي بعد ذلك كتاب مختلفون لعل اهمهم : بو زوزو وبوكوشة، واحمد بن ذئاب والعربي التبسي [٢] ، وعبد الوهاب بن منصور [٣] •

اما في الاعداد الخاصة بالمناسبات ، فقد كان اساتذة معهد ابن باديس يكادون يكتبون فيها جميعا • نجد ذلك مثلا في العدد الخاص بمعهد ابن باديس ، وفي العدد الخاص بالذكرى التاسعة لوفاة ابن باديس ، وفي العدد الخاص بالذكرى الثالثة لوفاة مبارك الميلي •

وكانت البصائر ، الى ذلك ، تتلقى كثيرا من المقالات التي كان يبعث بها كتاب مغاربة ، يعتبزون اليوم اعلاما للفكر المغربي المعاصر •

اسلوب البصـائر :

(27)

لم يكن الابراهيمي متنساهلا مع كتاب البصائر ، فقد كان يغريهم بالتجويد في الاسلوب ويزجي بهم ان يرتفعوا الى المستوى العالي من فن القول • ويستطيع الباحث في الصحافة العربية المعاصرة في الجزائر ، ان يعتبر البصائر ارقى صحيفة عربية ظهرت في وطننا حتى الان من حيث الاناقة اللفظية ، والروعة الادبية • أقول هذا وان كنت لا اعدم من يختلف معي فيـه •

وهذه البصائر نفسها تتحدث لنا عن اسلوبها ، فلنصخ نحن ، ولتقل هي :

للبصائر طرفان : اعلى ، وهو معرض العربية الراقيـة في الالفـاظ والمعاني ، والاساليب ، وهو السوق الذي تجلب اليه كرائم اللغة من مأنوس صيره الاستعمال فصيحا ، وغريب يصيره الاستعمال مأنوسا • وهو مجلى الفصاحة والبلاغة في نمطها العالي ، وهو ايضا النموذج الذي

(١) صدر في قسنطينة سنة : ١٩٥٣ .

(٢) المعروف ان الاستعمار الفرنسي المجرم اختطفه في مارس من سنة ١٩٥٧ ، ثم اغتاله بدون ان يعيد جثته .

(٣) تجنس بالجنسية المغربية ، وهو الان بالقصر الملكي بالرباط .

لو احتذاه الناشئون من ابنائنا الكتاب لفحلت اساليبهم ، واستحكمت ملكاتهم ، مع اتقان القواعد ، ووفرة المحفوظ .

ولهذا الطرف رجاله المعدودون ، وهو نمط اعجاب ادباء الشرق بهذه الجريدة .

وطرف ادنى ، وهو ما ينحط عن تلك المنزلة ، ولا يصل الى درجة اسفاف . وبين الطرفين اوساط ورتب ، تعلو وتنزل ، وهي مضطرب واسع يتقلب فيه كتابنا ، من سابق الى الغاية ، مستشرف لبلوغها ، ومقصر عن ذلك [1] .

ويقول فرحات الدراجي في مقال تحت عنوان : « البيان العربي شعار البصائر » : ... اما اسلوب البصائر في حد ذاته ، فهو من اقوى واشرق الاساليب التي ظهرت في الجزائر منذ عرفت الصحافة في الجزائر [2] .

(28)

ويبدو من هذين النصين اللذين اثبتناهما هنا ، ان البصائر كانت شديدة الحرص على الاساليب الانيقة الراقية التي لا يتمكن الكاتب منها، ولا تجرى على قلمه مجرى سهلا ، الا اذا ادمن القراءة لاروع الاثار الادبية ، ولا تكون اروع الاثار الادبية الا لكبار الكتاب الاقدمين والمحدثين . وما اقدمت البصائر على هذا القول للناس جهارا ، حتى كانت تلقت مقالات كان يريد اصحابها ان تنشر لهم على اعمدة هذه الصحيفة الراقية الاسلوب . وكأن كتاب هذه المقالات بعثوا برسائل الى ادارة البصائر يستفسرون عما صنع الله ، او سيصنع بما كتبوا ؟ فاجيبوا بان الله لن يصنع بمقالاتهم هذه الا شرا عظيما ، لانهم لم يتمكنوا بعد من فن الكتابة تمكنا صالحا ، ومن الخير لهم ان يكلفوا بالقراءة ويولعوا بها ايلاعا شديدا .. وهنالك قد يوفقون الى ما يريدون ، بعض التوفيق او كله . اذ كانت البصائر ليست من جنس الصحف التي ترضى بالاسفاف في اسلوبها ، والاضطراب في لغتها ، والسطحية في افكارها . بل هي صحيفة لمعرض العربية الراقية في الالفاظ والمعاني والاساليب .

---

(١) البصائر الثانية : عدد : ٨٦ /السنة الثانية . ص . .
(٢) المصدر السابق ، عدد : ٣/ السنة الأولى .

صحف اخرى مختلفة :

(29)

من العسير جدا على باحث واحد ان يستطيع احصاء الصحف العربية الخاملة التي لم تعمر طويلا ، ولا سيما اذا لم يتح له بحكم السن ان يواكب تلك النهضة في مظاهرها المختلفة ويعيشها يوما يوما، بل لحظة لحظة، فان من الصحف منها ما لم يتجاوز عمرها بضعة شهور ، ومنها ما لم ترب سنها على عام •

ومع ذلك فقد حاولنا ان ننقب ونبحث حتى اجتمع لنا ما يقرب من ثلاثين صحيفة كانت تصدر في المرحله التي نعالجها من نهضتنا الثقافية في هذه الدراسة • وقد حاولنا ان نذكر تواريخ اصدار هذه الصحف ما عثرنا على نص يدل على ذلك ، ولما اعوزتنا النصوص والوثائق التاريخية في سائر الاحوال ، اثناء البحث عن الصحف العربية في الجزائر ، فقد فزعنا الى بعض شيوخ المثقفين الذين لا يبرحون أحياء يرزقون ، وسنذكر من افدنا منهم باسمه في المكان الملائم من هذا البحث •

وليس هذا مما يرفض في الابحاث ، بل ان الباحث اذا عدمته النصوص والوثائق المكتوبة ، فانه يعمد الى الرواية ، وانما عليه ان يغربل ما يروى له بغربال العقل والمنطق ، فان لم يوفق الى الرواية فهي الافتراضات اذن ، واعمال العقل • ولما كانت مثل هذه المسألة ، وهي احصائية خاصة بالصحف الوطنية ، لا يجدي فيها العقل فتيلا ، فقد عولنا على نوعين من المصادر : المكتوبة ، والمروية عن الرجال شخصيا •

وقد اضطررنا احيانا الى ذكر بعض الصحف بدون تاريخ ، ولا ذكر للهيئة التي كانت تصدرها تعويلا على المعاصرة الشخصية ، فقد كنت وانا صغير ارى والدي يقرأ صحفا مكتوبة بالعربية ، ولا تزال عناوينها ماثلة في ذاكرتي ، بل لا ازال اذكر حتى صورة كتابة عناوينها الضخمة •

فهذا ، هذا •

٤ ـ افريقيا الشمالية : (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩)

(30)

كانت هذه المجلة تصدر شهريا بمدينة الجزائر ، وقد صدرت في سنة ثمان واربعين • وقد اصدرها اسماعيل العربي • وهو كاتب جزائري

مغمور لا نكاد نعرف عنه اليوم شيئا • واني لا ادري فيما اذا كان لا يبرح اليوم حيا •

اما كتاب هذه المجلة ، فقد كانوا كتاب البصائر انفسهم ، الا الابراهيمي • فاني لم أرى أسمه فيما بين يدي من أعداد من هذه المجلة ، وهي لا تتجاوز ثلاثة •

ولكي نلم بما كانت تعالج من مواضيع ، ومن هم كتابها على وجه التحديد ينبغي ان نعود الى عدد من اعدادها التي وقعنا عليها ، وليكن العدد الرابع من السنة الاولى [1] فما هي مواضيع هذا العدد ومن هم اصحابها اذن ؟

هذا ما جاء في غلاف هذه المجلة في عددها المشار اليه :

تطور الاخلاق بقلم رئيس التحرير ،

ــ حرب الثلاثمائة سنة الاستاذ احمد توفيق المدني ،

ــ الى الضمير المسيحي الاستاذ بنبي ،

ــ فتاة احلامي (قصة) الاستاذ رضا حوحو ،

ــ روحي تناديك (قصيدة) الاستاذ عبد الكريم العقون ،

ــ شهيد الحب (قصيدة) للامير عبد القادر الجزائري ،

ــ البريد الادبي •• •• ••

ــ عبرة الذكرى الاستاذ عبد الكريم العقون ،

ــ غادة ام القرى (نقد) اسماعيل العربي ،

ــ نشأة ابن باديس الاستاذ محمد الصالح رمضان [2] •

(31)

تلك هي المواضيع التي عولجت في العدد الرابع من السنة الاولى ، في مجلة افريقيا الشمالية ، وهي مواضيع راقية متنوعة في جملتها ،اشتملت على فلسفة وتفكير ، وعلى شعر ، وعلى قصة ، وعلى نقد ، وعلى ترجمة ابن باديس في ذكرى وفاته التاسعة •

اما كتابها فيمثلون الصفوة الصافية من كتاب الجزائر يومئذ ، وناهيك بالمدني ، وابن نبي كاتبين •

---

(١) عدد مايو ١٩٤٩

(٢) المصدر السابق .

ولكن هذا ما كان ليحظرنا من ان نلاحظ ظاهرة غريبة ، وهي عائدة الى قلة الكتاب فيما يبدو ، فقد وجدنا بعض هؤلاء الكتاب تناولوا موضوعين اثنين في عدد واحد ، مثل العقون ، واسماعيل العربي • كما ان حوحو كتب قصة ، ونقدت له اخرى في نفس العدد • فهذا يدل على فقر فكري واضح •

وعلى ان هذه الظاهرة لا نزال نشكو منها الى اليوم ، وسببها في الوقت الراهن لا يعود الى قلة الباحثين والكتاب ، فيما نعتقد ، ولكن الى حب الاثرة التي تهيمن على نفوس بعض الكتاب منا ، فهم اذا اتيح لهم ان يقرعوا باب جريدة او مجلة ، لا يكفيهم ان يكتبوا شيئا واحدا معمقا رصينا ناضجا ، ويجتزئون به مخلين المجال لباحثين اخرين ، بل تراهم يتناولون كل موضوع ، ويخوضون في كل مجال ، عن علم وعن غير علم • ونريد بالعلم هنا الاختصاص الجامعي الجاري به العمل في الابحاث الراقية الناضجة • ولو فسحت الميادين لسائر الراغبين في البحث منا ، لكان شأن الحركة الثقافية عندنا شيئا اخر • ولكننا موقنون من ان هذه الظاهرة ستتوارى وراء جدران الظلام ، حين يكثر فينا المختصون ، وحين تثبت بنا اقدام العلم والفكر •

وهذه استطرادة رجوت منها الخير ، واعود الى ما كنت فيه من الحديث على كتاب مجلة افريقيا ، واقول :

كما ان وجود حوحو ، والعقون ، والمدني مثلا في هذه المجلة الى جانب وجودهم في جريدة البصائر يدل على ان الفكر كان عندنا يدور حول نفسه • واعود لاقول ايضا ، ان هذه الظاهرة المشؤومة لا تبرح مخيمة على الحركة الادبية بالجزائر ، بحيث انك تجد مجلات متعددة في الحساب ، ولكنها جميعا شيء واحد في حقيقة الامر • فانك لتجد نفس الكاتب يكتب في « القبس » ، وفي « الجيش » ، وفي « المجاهد » وفي « المجاهد الثقافي » ، بل ربما في « الشعب » ، الى جانب استحواذه على البرامج الادبية في الاذاعة •

هذه هي حقيقة الحركة الادبية عندنا في وجهها الحقيقي ، وهي حقيقة مرة قد لا يتقبلها من يعنيهم الامر بصورة مباشرة ، ولكن الحق احب الي من النفاق في تقرير الاراء •

نعم ، ان الكتاب لهم الحق في ان يكتبوا في الف مجلة ومجلة ، وفي الف بلد وبلد ان استطاعوا ، ولكن اذا كان قد بلغ مستواهم المهني ــ ادبا او فلسفة او سياسة او اجتماعا او غير ذلك ــ حدا رفيعا من الخبرة والتجربة والعلم • ولو ترك كتابنا اليوم مثل هذا التطفل على الكتابة ، واقبلوا على تهيئة ابحاث جامعية عليا تكفل لهم الاختصاص الجامعي ، وتتيح للجزائر ان يكون لها كتاب من الطبقة الرفيعة لكان ذلك خيرا لنا ولهم •

وقد قلت : ان هذه الظاهرة مصيرها الزوال بعد ان يتكاثر لدينا المثقفون المختصون •

اما املنا اليوم فتتكاثر المجلات ، ليتكاثر معها الكتاب ، اما ان يقل الكتاب وتتكاثر ، وينقصوا وتتزايد ، فان في ذلك ، والله ، شقاء ممضا ، واسى مبرحا •

(32)

وهذا ثبت شامل لاسماء الصحف التي وقعنا عليها في بحثنا هذا ، ونحن قد ذكرنا منها بعد اربعة اسماء ، ولذلك سيكون الرقم الاول في هذا الثبت ، الخامس :

٥ ــ الفاروق (اسبوعية) ١٩٢٤ اصدرها عمر بن قدور الجزائري [١] •

٦ ــ الصديق اصدرها عمر بن قدور ، ومحمد بن بكير [٢] •

٧ ــ الجزائر اصدزها الشيخ الزاهري ، عطلتها السلطة الاستعمارية وصدر منها ثلاثة أعداد فقط (٣) .

٨ ــ صدى الصحراء اصدرها الشيخ العقبي والعابد ، ويبدو انها لم تعش الا زمنا قصيرا ايضا [٤] •

٩ ــ الحق اصدرها الشيخ العقبي ايضا ببسكرة سنة ١٩٣٦ [٥] •

---

(١) عمار الطالبي ــ تراث ابن باديس : ٥٧/١ •
(٢) المصدر السابق ، صفحة : ٥٧ ــ ٥٨
(٣) عمار الطالبي ، في تقديمه لتراث ابن باديس : ٥٩/١ (طبع دار اليقظة) •
(٤) عمار الطالبي : ٥٩/١
(٥) المصدر السابق .

١٠ ــ البرق صدرت سنة ١٩٢٧ [١] ، ويبدو انها للعقبي ايضا •

١١ ــ وادي ميزاب اصدرها ابو اليقظان ، وقد عمرت نحو عامين ونصف ثم عطلها الاستعمار [٢] •

وقد صدرت في سنة ١٩٢٦ •

١٢ ــ ميزاب لابي اليقظان ايضا • وقد صادرتها الحكومة الاستعمارية ايضا ، وقد اصدر بعدها « وادي ميزاب » مباشرة [٣]

١٣ ــ المغرب لابي اليقظان ايضا [٤] •

١٤ ــ النور اصدرها ابو اليقظان كذلك [٥] •

١٥ ــ النبراس لابي اليقظان [٦] •

١٦ ــ الاصلاح للشيخ العقبي [٧] •

١٧ ــ البلاغ الجزائري الزاوية العليوية [٨] •

١٨ ــ السنة جمعية العلماء •

١٩ ــ الشريعة اصدرتها جمعية العلماء ايضا •

٢٠ ــ الصراط لجمعية العلماء ايضا •

وهذه الصحف الثلاث كانت قد سبقت صدور البصائر الاولى سنة خمس وثلاثين ، فاذا كانت جمعية العلماء انما تأسست في احدى وثلاثين ، فان المفروض ان هذه الصحف الثلاث مجموعة لم تعمر اكثر من اربع

---

(١) ولم يذكر عمار الطالبي الذي اخذت عنه هذا ، اسم صاحب هذه الجريدة ، وان كان كلامه يفهم منه ما انها للعقبي ايضا ، لانه كان يتحدث عنه . انظر تراث ابن باديس : ٥٩/١ .

(٢) وانظر ايضا : تراث ابن باديس : ٥٩/١ . وانما عولت على مصدر الشيخ ابن داود ، لانني كنت دونته قبلا ، ثم لما طالعت مقدمة عمار الطالبي وقعت على ذلك ايضا ، فكان ذلك مما اكد ما كنت قيدته من رواية ابن داود .

(٣) وانظر ايضا عمار الطالبي في تراث ابن باديس : ٥٩/١ .

(٤) لم يذكر عمار الطالبي تاريخ اصدار هذه الجريدة ، ولا كم عمرت ، وان كنا نفترض بأنها لم تعمر الا زمنا قليلا : انظر تراث ابن باديس : ٥٩/١ وانظر كتاب الجزائر لاحمد توفيق المدني ، ص ٩٤ (طبع المعارف بمصر) .

(٥) انظر تراث ابن باديس تعليق عمار الطالبي : ٥٩/١ .

(٦) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٧) كتاب الجزائر لتوفيق المدني ٣٧١ ــ تراث ابن باديس : ٥٩/١

(٨) تراث ابن باديس : ٥٩/١ .

سنوات ، بحيث كان الاستعمار يصادر ، والجمعية تغير اسم الصحيفة فتصدرها من جديد .

ويصف الابراهيمي هذه الصحف الثلاث مع البصائر ، بانها هي : « احد الالسنة الاربعة الصامتة لجمعية العلماء ، تلك الالسنة التي كانت تفيض بالحكمة الالهية المستمدة من كلام الله وكلام رسوله ، والتي كانت ترمي بالشرر على المبطلين والمعطلين ، وكانت كلما اغمد الظلم لسانا منها ، سل الحق لسانا لا ينثلم ولا ينبو ،وتلك هي : السنة ،والشريعة ، والصراط والبصائر ، اسماء الهم القرآن استعمالها ، وفصلت القرائح والاقلام اجمالها» [1] .

٢١ ـ البصائر (الاولى) اصدرتها جمعية العلماء سنة ١٩٣٥ .

٢٢ ـ الشعلة (١٩٤٩ ـ ١٩٥١) وقد أصدرها بقسنطينة حوحو وبوشمال ، وقد صدر منها أربعة وخمسون عددا .

٢٣ ـ الشعب (وليست هذه التي تصدر اليوم بالجزائر) ، وكانت تصدر في نحو سنة ١٩٥٥ . وقد قرأت منها عددا واحدا وانا بفرنسا ،وقد نشر فيه قصيدة شعرية لا ازال اذكر مطلعها وهو :

وَصْفُ الجزائِرِ في القصائِدِ يَعْسُرُ — وجمالُها يَسْبي العقولَ وَيبْهَرُ

٢٤ ـ الجحيم وكان يصدرها مع الدفاع الامين العمودي ، وكان العمودي هذا احد الشعراء المقذفين . وكانت الجحيم لا تكاد تنشر الا المقالات العنيفة ، والاشعار البذيئة المؤلمة المؤثرة ، لكي يطابق الاسم

---

(١) البصائر الثانية : العدد الاول (الافتتاحية بقلم الابراهيمي، الجمعة سابع رمضان ١٣٦٦ الموافق ليوم ٢٥ جوليت ١٩٤٧) .

(*) وقد ذكر لي الشيخ عبد القادر الباجوري ان « الشعلة » اصدرتها هيئة من المثقفين ، منهم رضا حوحو ، وذلك سنة تسع واربعين . حدثنيه بو هران خلال سنة ١٩٦٩ .

المحتوى [1] .

٢٥ ـ البستان لابي اليقظان [2] .

٢٦ ـ النجاح وقد اسسها عبد الحفيظ بلهاشمي سنة ١٩١٩ (وانما ذكرتها في ثبت الصحف التي صدرت في الفترة التي اتحدث عنها ، لانها ظلت تصدر الى ما بعد الثورة) . وقد شارك في تاسيسها ايضا ابن باديس ، ثم انسحب لما تنكرت هذه الجريدة للمبادىء الوطنية واصبحت لسانا من ألسنة الحكومة الاستعمارية [3] .

٢٧ ـ المعيار وقد اصدرها (با سعد عدون) ليعارض بها العمودي في جحيمه [4] .

اما البصائر الثانية فقد تحدثنا عنها ، واشرنا الى تاريخ استئناف صدورها .

٢٨ ـ التهذيب الاسلامي مجلة مغمورة لم تعمر طويلا .

(33)

هذه هي اهم الصحف التي عثرنا عليها ، والتي صدرت في معظمها خلال الفترة التي نتحدث عنها ، او انها صدرت من قبل ، ولكنها كانت لا تزال تصدر في سنة ١٩٢٥ . [5]

اثر هذه الصحف على النهضة الادبية والثقافية في الجزائر :

(34)

ان من يدرس النهضة الادبية والثقافية ، بوجه عام ، المعاصرة في الجزائر ، لن يجد محيصا من ان يقرر بان الصحافة العربية كانت ذات اثر بعيد على اذكاء النهضة الادبية في الجزائر واغنائها .

---

(١) صدر منها سبعة أعداد فقط ، وقد صدرت وعطلت في سنة ١٩٣٤ .

(٢) الشهاب لأبن باديس ، ج٩ م٩ ص : ٣٦٨ (مقالة للزاهري) .

(٣) حدثنيه ابن يوسف ، ولم يذكر هو ان ابن باديس اشترك في تأسيسها ، وانما ذكر ذلك عمار الطالبي (انظر تراث ابن باديس ٥٧/١) وكان يطبع من هذه الجريدة سنة ١٩٣٥ : ٥٠٠٠ نسخة . وقد كانت لا تزال تصدر في سنة ١٩٥٥ .

(٤) راجع ذيل الصفحة الماضية (١١١) تعليق رقم : ٥ .

(٥) وضعنا بيبلوغرافيا للصحف الجزائرية ستقدم الى النشر قريبا ...

ومن الانصاف ان نذهب الى ان كل صحيفة من الصحف التي اتينا على ذكرها ، والتي لم تتمكن من ذكرها ، كان لها فضل عظيم على قيام النهضة وترعرعها • ولكن هذا لا يمنعنا من ان نذهب مع ذلك الى ان الشهاب والبصائر يجب ان تكونا اساسا لهذه النهضة الغنية ، بل سراجا وهاجا ينير ارجاءها ، ويلقي على مجاهلها اسطع الاضواء •

وقد ظلت الشهاب والبصائر بمثابة المعين الثرثار الزلال ماؤه ،تستمد منه جميع الصحف الاخرى ، او بمثابة القطب الذي تدور عليه الاشياء ، وتقوم حوله •

وكيف لا تكونان اساسا لهذه النهضة ، ودعامة من دعائمها المتينة الثابتة ، وقد عرفنا اكبر كتاب الجزائر ، واعظمهم خطرا في حياتنا الفكرية والاجتماعية معا ، خلال النصف الاول من هذا القرن ، بواسطتهما وعلى أعمدتهما ؟ فلولا الشهاب لما عرفنا ابن باديس ونتاجه ، وتفكيره واعماله ، ومذهبه الفلسفي في الاصلاح • ثم لولا إلبصائر لما عرفنا الابراهيمي وأضرابه من قادة النهضة الادبية في وطننا • فقد كانت البصائر معرضا مشرقا للانتاج الادبي الراقي ، كما كانت منبرا حرا للتفكير الجزائري الاصيل •

ونحن لا نريد ان نلح على هذه المسألة ، لاننا موقنون بثبوتها في التاريخ • وقد كدنا نبني كل هذا البحث عليها ، اي على ما وجدنا في الشهاب ، والبصائر ، افبعد كل هذا يجرؤ احد على انكار هذه الحقيقة الثابتة بالدليل ؟

ان الحق يظل ابلج وضاحا ، شامخ البنيان ، قائم الاركان ، لا يستطيع احد ان يهوره بجرة قلم ، او يمحوه بنبسة لسان •

ومن هذا الحق ان النهضة الادبية ، بل حتى السياسية والفكرية ، تدين في وجودها ، للبصائر ، بسلسلتيها ، والشهاب ، ثم لبقية الصحف الاخرى الكثيرة المغمورة •

فلولا هذه الصحف ، لما كانت نهضتنا نهضة ، ، ولما كان تاريخنا تاريخا ، ولما كانت ثورتنا ثورة ، في قرننا هذا • والفضل كل الفضل يعود الى ابن باديس الذي يجب ان يعد عميدا للصحافيين الجزائريين بلا

جدال او مكابرة ٠

فهذه الصحف مرآتنا المجلوة ، التي كانت تنعكس عليها آمال شعبنا وآلامه ، فهي بضعة من انفسنا ، وجزء من تفكيرنا ، وقبضة زمنية من تاريخنا الطويل ٠



الفصل الثاني

محمد البشير الابراهيمي[1]

1889 — 1965

(1)

كنا آثرنا القول حول الابراهيمي حين تناولنا جريدة « البصائر » وزعمنا هنالك انها كانت احدى دعائم النهضة الادبية المعاصرة في الجزائر.

ويبدو ان مثقفي الجزائر يرون في الابراهيمي ، حسب مناقشاتي الشخصية ، رأيين متباعدين كل منهما يشتمل على خطأ عظيم .

ولا ابرح اذكر يوما تحاور فيه استاذان أمامي : أحدهما يمثل ورثة العمائم ، وثانيهما يمثل الجيل الجديد من الجامعيين . وقد هالني ان الاول زعم لصاحبه وهو يحاوره في لهجة مفعمة بالايمان والاقتناع :

— وهل كانت عيون البصائر الا قرآنا ارضيا ؟

ولكن الثاني اراد ان يغيظ صاحبه ، فزعم له ان الله قد باعد الاسجاع والتهاويل اللفظية من ساحة الاداب .

ويبدو اننا سنقيم فصلنا هذا ، على هذين الرأيين المتضاربين .

(2)

هناك مصدران اثنان رئيسيان لانتاج الابراهيمي :

اولهما : الشهاب ، وهو مصدر لا نكاد نظفر فيه للابراهيمي ، الا بمقالات قلائل ، من ضمنها تقارير .

ثانيهما : البصائر الثانية ، وهو المصدر الغني الخصب الذي لا تكاد تتصفح عددا من اعداد السنين الاولى — اي قبل ان يرتحل الابراهيمي الى المشرق — حتى تجد الابراهيمي قد كتب فيه .

---

(١) كتبنا فصلا طويلا عن الابراهيمي ، كان نشر بمجلة «الجيش» ونزعم نشره في كتيب على حدة ، وقد استدركنا فيه ما فاتنا هنا .

اما البصائر الاولى ، فقد كان الابراهيمي متثاقلا في امدادها بما كانت تفتقر اليه من مقالات • ربما كان ابن باديس ينحي عليه باللوائم في تقصيره في حق البصائر الاولى [1] •

والكتابة فتاة ولود ، والادب بقرة حلوب ، والكلام القليل يجر الى الكلام الكثير • فكأين من كاتب بدأ حياته الادبية بجهد وعسر ، لا يكاد يظفر بفكرة الا بعد لأي ، ولا تكاد تستقيم له الالفاظ التي يعبر بها عن هذه الفكرة ذاتها الا بعد نصب وعناء • ثم لا يلبث ان يصبح من بعد ذلك احد فطاحل الكتاب •

والابراهيمي مع ما حفظ ودرس ، ومع ما قاسى من تجارب مرة ، وعانى من صروف الايام السود ، لم يكن ليبلغ في دولة الادب بعض ما بلغ ، لو لم يجهد جهده ، حتى اصدر البصائر الثانية ، ثم انكب على تحريرها •

فقد كان مضطرا ، بحكم رئاسته للجمعية ، وبحكم رئاسته لتحرير البصائر ، الى الكتابة والى تدبيج فن القول في كل حين •

هذه حقيقة يجب ان لا نهملها في دراستنا للابراهيمي •

(3)

كان الابراهيمي يكتب في البصائر اسبوعيا ، والى ان التجأ الى مصر لظروف سياسية قاسية • وكان ربما الح على الموضوع الواحد فنشره في بضع حلقات طويلة لما يستدعي من تفصيل • وقد كان لا يتناول النواحي الادبية الا لماما ، على حين انه كان يفيض القول في المناحي الاجتماعية والتربوية او التعليمية ، واحيانا السياسية • كما كان لا يتردد في خوض احاديث الوطنية خوضا •

بيد ان اسلوب الابراهيمي في كل ذلك كان اسلوبا ادبيا «كلاسيكيا» متينا • ولو بحثنا عن العلة لتبين لنا ان الرجل كان من احفظ اهل زمانه ، فاتيح لذاكرته ان تختزن ما شاء الله لها ان تختزن من جيد

---

(1) الابراهيمي : البصائر الثانية : عدد ٣٢ (١٩ ابريل ١٩٤٨) الافتتاحية •

المحفوظ : شعره ونثره ، وقرآنه وحديثه • ونحن ممن لا يحاسبون الكتاب والشعراء على تمذهبهم بهذا المذهب دون ذاك ، وعلى اتباعهم هذه السبيل دون تلك • فما كان الكاتب الا رجلا من الناس يتأثر بما يقرأ ويحفظ ، ثم يستلهم بعد ذلك ما قرأ وحفظ قبل مرحلة الكتابة ، واثناءها معا • فلم يوح الله الا الى الانبياء والمرسلين • وبقدر ما يكون محفوظ الكاتب اجود اصلا ، يكون انتاجه ارقى واقوى • وبقدر ما يكون ذهن الاديب اصفى والطف ، يكون تفكيره ادق واعمق • ولسنا نعني المقلدين ، فهم لا ينضوون في رأينا ، في تعداد الكتاب والمفكرين ، وانما هم كالمسجلة يرددون في امانة ما يسمعون •

فليس الابراهيمي اذن بدعا من الكتاب حين كان « كلاسيكيا » في أسلوبه ، طالما كان قد اتى حفظا على كثير من الدواوين الشعرية ، والمجموعات الادبية من خطب ومقامات واشعار •

(4)

وعلى ان من سوء حظ الادب ، ان دراسته لا تبرح بدائية الى حد بعيد • فلم نر احدا ممن يعنون بالاداب ودراستها ، انه عول على التجربة العملية فيما يدرس • وانما هي احاديث يعول فيها اصحابها على الخيال والسلاطة اكثر مما يعولون على الحقائق العلمية ، ان كانت هناك حقائق علمية ثابتة فعلا • ولو اعطي للادب حق من عناية ، واجريت تجارب على ناشئة متأدبين ، فحفظنا ــ مثلا ــ طائفة منهم صنفا معينا من المحفوظات الادبية ، وخلينا بينهم وبين كتب معلومة دون سواها ، ولكن ينبغي ان لا تبتعد عن الصنف الاول من المحفوظ • ثم عمدنا الى طائفة اخرى من المتأدبين ، فقدمنا لهم كتبا ومحفوظات ادبية تباين الصنف الاول مباينة بعيدة ، كأن تكون كلها حديثة العهد ، او معاصرة ــ وانا اتكلم على الادب العربي خاصة ــ لأمكننا ان نتوصل الى النتيجة العلمية التالية :

فأما الطائفة الاولى فانها ستنزع نزعة كلاسيكية محافظة متينة ،واما الطائفة الثانية فانها تنزع بحكم محفوظها الغث نزعة اخرى تخالف الاولى وتناقضها مناقضة تامة • ولست اثناء ذلك احبذ طائفة واوثرها ، واجدف اخرى وانقم منها ، فهذا لا يعنيني في شيء في هذا المقام •

ولو تأملنا نتاج الطائفتين لوجدنا نتاج الاولى يتسم بالقوة في التعبير ، والعمق في التفكير ، والجمال في الاسلوب ، على حين ان الثانية يستميز نتاجها بالضعف البادي ، والفقر اللغوي الشديد •

ورغم ان نتائج هذه التجربة ليست مسلمة ، فانه ينبغي لنا ان نحاول شيئا من ذلك ، لندخل بعض الطرق التجريبية على الفنون الادبية، ولا سيما النقد •

ومثل هذه التجربة ستساعدنا على ان نجيب بصدق وبحق على مثل هذه الاسئلة حين نجيء الى تقويم آثار كاتب من الكتاب : لم كان اسلوبه على هذا النحو ولم يكن على ذلك ؟ ولم نزع نزعة محافظة ولم ينزع نزعة تجديدية ؟

فقد آن للنقد الادبي ان يجيب على مثل هذين السؤالين اجابة دقيقة مسلمة عند الجميع •

فان لم تقتنع هذه التجربة التي اقترحت ، فهاك تجربة اخرى ، او فرضا ثانيا ، بالرغم من ان مثل هذا لا يشكل صلب الموضوع الذي نبحث فيه ، وهو يشكله من حيث اننا نريد ان نعطي رأيا شبه مسلم حول اسلوب الابراهيمي ، استنادا الى ما نفترض الان :

لنفوض امر طائفة من التلاميذ الى استاذ اديب قد شهد له الناس بذلك ، او شهدت له مؤلفاته الادبية ، ان كان الناس قليلا ما يقومون بمثل الشهادة ، ثم نترك هؤلاء التلامذة مع هذا الاديب طوال مرحلة الدراسة الثانوية التي تقدر بست سنين •

ولنعمد الى طائفة اخرى من التلاميذ ، ثم نكل امرهم الى استاذ فقيه ــ ولا تضحك ، فان كثيرا من الاساتذة مع احترامنا للجميع اولى لهم ان يكونوا وعاظا في المساجد او خطباء على المنابر ، او قضاة في المحاكم، او اي شيء اخر غير الاستاذية ، ولعلك تعرف طائفة منهم كما اعرف ــ فماذا كان يحدث ؟

اما تلامذة الاديب فان كثيرا منهم سيكونون من الادباء ان ظفروا بمن يوجههم توجيها مماثلا في الجامعة • واما طلاب الاستاذ الفقيه : فانك ستجد معظمهم في حيرة من امرهم : فلا هم ادباء فيكتبوا ، ولاهم فقهاء

فيخطبوا في الناس واعظين او محدثين •

ولسنا نعير نظرا للتلاميذ البلداء او المنحرفين ، فاولئك سواء عليهم أتلمذوا للادباء ، ام للفقهاء ، ام للانبياء ، ام للشياطين ، فهم ، بحمد الله — بلداء منحرفون • وشأن البحث في امرهم من اختصاص علم النفس ،وليس من اختصاص الادب •

والفرضان كلاهما يتسرب اليهما الضعف من حيث اننا نضحي بطائفة من الشبان من اجل تجربة قد لا تعطي أية ثمرة •

ولكن أي تجربة تمت بدون ضحايا ؟

(5)

فاذا رأيت اسلوب الابراهيمي قويا جزلا ، ومتينا رصينا ، فبما حفظه للشنفرى ، وامرىء القيس ، ولمن جاء بعدهما من فحول الشعراء عبر العصور الادبية المختلفة • واذا رأيته يجنح احيانا الى السجع ، فلا تحسبن ذلك منه تكلفا وتصنعا ، وانما هو امر طبيعي بالقياس الى اديب ينبغي ان يكون قد حفظ اطرافا صالحة من نهج البلاغة ، ومتون المقامات، واحاديث الاعراب •

ولا بد لنا ، لكي نتناول الابراهيمي وندرسه ولو على نحو سريع ، من ان نعالجه من ثلاثة مناح :

١ — الابراهيمي الاديب ،
٢ — الابراهيمي الصحافي السياسي ،
٣ — الابراهيمي المصلح المربي •

(6)

ولعل اوضح فن يبدو فيه الابراهيمي اديبا بالمفهوم الدقيق ، « سجع الكهان » • وهي احاديث ادبية كان ينشرها في البصائر • ثم مقامة كان قد دبجها سنة احدى واربعين [١] في ذكرى ابن باديس ، وعنوانها : « مناجاة مبتورة ، لدواعي الضرورة » [٢] •

---

(١) البصائر :١٩٤٩/٧٦ • عيون البصائر: ٦٤٦ — ٦٥١ (طبع المعارف)
(٢) المصدر السابق .

وتطغى على هذه المقامة بحكم موضوعها الحزين ، النزعة المكتئبة التي تذيب النفوس ، وتفطر الاكبار • ومن يقرأ هذه المقامة يجدها عالية في مبناها ، شريفة في معناها ، جميلة في الفاظها ، اما اسلوب هذه المقامة فكان مسجوعا جريانا مع نهج الكتابة في المقامات التي ابتكرها بديع الزمان الهمذاني في نحو سنة خمس وثمانين وثلاثمائة للهجرة ، في ارجح الوثائق التاريخية التي بين يدينا حول هذا الفن • [1]

وهذا طرف من هذه المقامة التي تعد من صميم المواضيع الادبية التي شغلت الكتاب الادباء عشرة قرون كاملة :

سلام يتنفس عنه الاقاح ، بأزهاره وايراقه ، ويتنسم عنه الصباح ، بنوره واشراقه • وثناء يتوهج به من عنبر الشجر عبيره ، ويتبلج به من بدر التمام ، على الركب الخابط في الظلام ، منيره •••

وسلام من اصحاب اليمين ، وغيوث من صوادق الوعود ، لا من صوادق الرعود ، لا تخلف ولا تمين • وسحائب من الرحمات تنهل سواكبها ، وكتائب من المبشرات تزجى مواكبها ••

وسلام على مشاهد كانت بوجوده مشهودة ، وعلى معاهد كانت ظلال رعايته وتعهده عليها ممدودة ، وعلى مساجد كانت بعلومه ومواعظه معمورة ، وعلى مدارس كانت بفيضه الزاخر ، ونوره الزاهر مغمورة ، وعلى جمعيات كان شملها بوجوده مجموعا ، وكان صوته الجهير ،كصوت الحق الشهير ، مدويا في جنباتها مسموعا •• [2] •

(7)

والمقامة طويلة يتعذر اثباتها بكاملها في هذا البحث الذي نحرص له ان تكون نصوصه قصيرة ما أفادت • وما استشهدنا به يدل على صدق في العاطفة ، وحرارة في التعبير ، ودقة في التصوير ، وروعة في استثارة النفس ونقلها من حالة سرور الى حالة اسى • فقد ذكر ابن باديس ، الابراهيمي فذكر رجلا عظيما في كل شيء ، حتى في صوته الذي كان كثيرا ما يملأ

---

(١) قد وضحنا هذه المسألة توضيحا دقيقا في احد فصول رسالة سنناقشها قريبا •

(٢) البصائر الثانية : العدد : ٧٦ من السنة الثانية (الافتتاحية) •

جنبات القاعات اذا خطب ، وزوايا المساجد اذا وعظ • وذكر فيه العلم الغزير ، والفضل الكثير ، والصدق الصدوق ، والسيرة الكريمة ، والاستقامة العالية ، والشجاعة النادرة • ذكر الابراهيمي ما اسس ابن باديس من مدارس ، وما بنى من مشاريع ، وما عبد من سبل الخيرات للامة الجزائرية ، ففاضت عيناه دمعا ، وسالت على قلمه الحسرات التي ترجمتها عبارات هذه المقامة الكئيبة الدامعة •

ولو لم يكن الابراهيمي اديبا قادرا ، لما استطاع ان يصور لنا في هذه المقامة ما كان يجد في نفسه من حسرة ولوعة ، وما كان يحس في قلبه من لهفة واسى ، وما كان يضطرب في خاطره من ذكريات • فدرجة الحزن عند الناس كثيرا ما تستوى ، ولكن درجة التعبير لديهم كثيرا ما تتفاوت تفاوتا بعيــدا •

(8)

ثم ما لبث الابراهيمي ، حين كان يشرف على تحرير البصائر ، وحين كان في اوج نشاطه الادبي والفكري ، ان انبسطت نفسه وتطلعت الى الكتابة في فن المقامات مرة اخرى ، فاذا هو يكتب احاديث جميلة على طريقة كتاب المقامات ، تحت عنوان « سجع الكهان » •

ولم يشأ الابراهيمي ان يقدمها الى القراء في صورة مقامات صريحة، بل قدمها اليهم في صورة جديدة عليهم حين اختار لها من العناوين ما اختار • وان كانت اسجاع الكهان مما كان يدور في بعض الكتب الادبية القديمة •

والعنوان الذي اختاره الابراهيمي ضخم فخم ، وهو يوحي بحنينه الى الماضي الادبي العظيم يغترف من أنهاره الثرثارة ، كما يوحي بتعلقه من اجل ذلك ، بكل ما هو قديم •

اسلوب سجع الكهان :

(9)

ان هذا الاسلوب يدل عليه عنوانه ، فهي احاديث مسجوعة ، لا تخلو من الالفاظ الغريبة احيانا • ولكن الابراهيمي كان يتحدى معاصريه بان يكون ما يكتب يدخل في النتاج ذي الالفاظ الغريبة • وكان يرى مخلصا

ان ما يراه الناس غريبا ، ليس غريبا الا على الغرباء عن العربية . اما المتضلعون فيها ، والمتبحرون في علومها ، فانهم لا غريب عندهم من الفاظها .

وهو رأي طريف جدا ، ويجب ان نضيفه الى الآراء التي قيلت ، لنتسلح به في نقدنا للاثار الادبية ، فان الغريب ذو مفهومين : غريب على الناس وليس بغريب في حد ذاته ، وانما كان غريبا عليهم لانهم لم يتعلموه ولم يريدوا ان يفعلوا ذلك لاسباب نفسية ، او لاسباب تعود الى جنس اختصاصهم .

وغريب على الناس وغريب في حد ذاته ، ولكن ليس غريبا على المختصين المتضلعين في العربية .

يقول الابراهيمي في تقديمه هذه الاحاديث المسجوعة ، والى اعذاره الى الناس مما جاء فيها من غريب :

هذه فصول ، ان لا تكن فيها روح الكاهن ، ففيها من الكاهن سجعه ، وان لا يجد في جوانبها صدى الكهانة ، ففيها من ذلك الصدى رجعه . فيها الزمزمة المفصحة ، والتعمية المبصرة ، وفيها التقريع والتبكيت ، وفيها السخرية والتنكيت . وفيها الاشارة اللامحة ، وفيها اللفظة الجامحة .

وفيها العسل للابرار ، وما اقلهم . وفيها اللسع للفجار ، وما اكثرهم . فلعها تهز من ابناء العروبة جامدا ، او تؤز منهم خامدا ، فنجني من ثمرة النية ، ونغير اواخر هذه الاسماء المبنية .

وفي هذه الفصول من لبوس الالفاظ ما يعده المتخلفون من كتابنا غريبا ، وما غرابته في اذواقهم ، الا كغرابة الاعلاق النفسية في أسواقهم . ولو حفظوه ووعوا معانيه ، واقروه في مواضعه من كلامهم ، واحسنوا اجراءه في السنتهم واقلامهم ، لاحيوه فحيوا به ، ولاصبح مأنوسا لا غريبا ، واصبحوا به من لغتهم قريبا . ولكن اعياهم الاحسان ، فعفروا في وجوه الحسان . وعجزوا في جني الثمرة عن الهصر ، فرضوا من اللغة بما يباع في سوق العصر [1] .

---

(١) البصائر الثانية : العدد : ٦٩ (فبراير ٢٨ منه ١٩٤٩) .

(10)

وعلى ان الابراهيمي لم يلبث ان تحلل من الاسجاع حين تقدمت به الكتابة فيهذه الاحاديث ،او هذه المقامات . ولم يجىء ذلك الابراهيمي اقصارا عن السجع ، او قصورا عن الايحاء بين خواتم الفواصل ، فمثل هذا الاسلوب كان قد استقام له استقامة تامة ، والفه قلمه الفة شديدة . وكان يظاهره على ذلك محفوظ وفير ، والمام بالعربية وسيع . وانما عزف الابراهيمي غن السجع ، رغم انه كان قد التزم به مع نفسه في المقدمة التي اذاعها بين القراء ، لانه كان يدرك ان السجع احيانا ليس اثقل منه الا الجبال الشامخات ، وان التكلف الادبي ليس اقبح منه الا النفاق ، وان الدوران والروغان بالالفاظ في غير طريقها التي هيئث لها ، ليس اشنع منه الا الجهل باللغة التي يكتب بها الكاتب للناس .

فكان الابراهيمي يسجع ، ولكنه اذا تعذر عليه ، بحيث يفسد معنى حديثه ، يعزف عنه ولا يلوى عليه . ولكن ذلك لم يكن الا قليلا [٢] .

(11)

واسلوب سجع الكهان ظاهرة محاكاة الكهان ، ومنافسة اصحاب المقامات ، وفي مقدمتهم البديع والحريري ، وباطنه معارضة القرآن . وما نحسب ان اسلوب سجع الكهان يختلف كثيرا عن اسلوب القرآن ، الا من حيث غرابة الالفاظ في بعض الاحاديث . وليس معنى هذا انني اوازن بين اسجاع الابراهيمي ، وبعض سور القرآن المكية القصار ، فان القرآن ليس اسلوبا ونظما فحسب ، ولكنه شيء فوق الاسلوب والنظم ، وفوق الموضوع ايضا ...

وانت اذا استطعت ان تزعم ان الاسلوب العام لسجع الكهان من حيث القسم ، ومن حيث نكات بلاغية اخرى يشبه اسلوب القرآن الى حد ما ،فلن تستطيع ان تزعم ان في هذه الاسجاع شيئا يضارع القرآن في حلاوته ، وطلاوته ، وسهولته ، وموسيقاه ، وتأثيره.

ولسنا نريد ان نرمي الابراهيمي بالالحاد ، فقد كان مؤمنا بالله وباعجاز القرآن ،ولكن الاديب الجبار قد تفيض عليه الافكار فلا يبالي

---

(٢) انظر الاحاديث التي نشرت في الاعداد التالية لهذا الاول .

ايها كانت ، ولا ايها ستكون ، فيسجلها بأسلوبه الخاص الذي لا يخلو من تأثر بالاساليب الاخـرى التي كان قد الم عليهـا حفظا ••• فليس الابراهيمي بدعا من الادباء في شيء ، فكل اديب اهل لأن يحمل هذا اللقب لا بد ان تلتعج في نفسه خواطر ، وتضطرب في صدره افكار ، فيتخلص منها باثباتها في طومار •

ويبدو ان الابراهيمي كان يريد ان يكتب اقاصيص يعبر بها عـن شعوره العميق ، ويعالج في متنها المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعيـة التي لا يبرح الانسان من حيث هو انسان ، يعاني منها • ولكن طبيعته كصحافي سياسي ، وكأديب محافظ ، وكعالم مفسر ، وكلغوي حفـاظ ، ابت عليه ان يأتي شيئا من ذلك •

فهل معنى ذلك ان الابراهيمي اراد اقاصيص ، واراد الله اسجاعا ؟

(12)

ان الاجابة على هذا السؤال قد تكون عسيرة • فقد كان الابراهيمي ربما اراد ان يكتب مقامات ـ والمقامات من الفنون القصصية في الادب العربي ـ من حيث انه كان قد تلقى تعليما تقليديا يعول على حفظ مثل هذه المقامات التي كانت اشهر ما يحفظ الطلاب في الزيتونة والقرويين •• ولكنه استوحى اثناء ذلك سور القرآن القصيرة المكية التي تستهل بألوان من الاقسام ، والاستفهامات الانكارية ، وسواها من المحسنات البلاغية الرائعة ، كما يتضح ذلك من بعض هذا النموذج الذي نسوقه من احاديث سجع الكهان ، وليكن الحديث الاول :

« لا اقسم بذات الحفيف ، والجناح الخفيف ، المشارفة في جوهـا للكفيف [١] ، وبالسر المودع في التجاويف والتلافيف ، وبالمغيرات صبحا عليها التجافيف ، والمغيرين على الحق كالعاهر ابن العفيف[٢] ، وبالسابغات والسوابغ من الدروع والجلاليب ، وبالآخذين امس من تلابيب بالتلاليب • وبالبحر والسفينة ، والحبر والدفينة [٣] ، ان المتنبي لمن موالينا ، وممن

---

(١) السماء .
(٢) ابن العفيف التلمساني : له نزعات شاذة في الاعتقاد (الابراهيمي)
(٣) طعام لليهود .

تلقى الكهانة عن اوالينا . وانه ما دعي بالمتنبي الا لانه كان شاعرا كاهنا ، ليناقض النبي الذي لم يكن كاهنا ولا شاعرا . وقد نفيا عن النبي مجتمعين ، فثبتا في المتنبي مجتمعين . وان كثيرا من شعره كهانة متلفعة بالشعر . يوطيها في جمل ، ويغطيها بممدوح او جمل . وستظهر اخباؤها، وتعلم انباؤها ... وان قوله :

(وَقَعَتْ عَلَى ٱلْأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ)[1]

هو من الكهانة الكاهنة ، بالحالة الراهنة . قالوا : اراد اسدا قانصا: اراد رجلا ناقصا . قالوا : اراد كلبا ، روع قلبا ، ومزق خلبا ، واوسع المهج سلبا ، وقدم ضراغمة غلبا ، اوطنها غابات غلبا ... وقلنا : انما اراد رجلا ركب صعبا ، وباع شعبا ، وعق لؤيا وكعبا . وسلك بنو إبيه شعبا ، وسلك هو وحده شعبا . وخذلهم في الجلى فملأ القلوب رعبا ، واشتف صبابة المال فلم يدع لبائس حلسا ولا لبائسة قعبا .. لم يرد اسدا خادرا ، وانما اراد رجلا سادرا ، يظهر في زمن نحس ، ويبيع ضفتي الاردن بثمن بخس ...

ايتها البحيرة ، مالك في حيرة ؟ لقد شهدت لبدر بن عمار[2] بالفتوة ، فهل تشهدين لابي الطيب بالنبوة ؟ وحدثي الولي يا (ولية) ، ايهما كان عليك بلية ؟ ذلك الذي وردك زائرا ، ام هذا وردك حائرا ؟ انهما لا يستويان : ذاك اسد غاب ، رزقه في الناب ، وهذا حلف وجار ، رزقه على الجار . ذاك يعيش على فرائسه ، وهذا يعيش على فضلات سائسه . ذاك رمز اقدام ، وهذا موطىء اقدام . ذاك ورد الفرات زئيره ، وهذا جاوز الفرات تزويره ...

---

(1) هذا صدر بيت للمتنبي ، وعجزه : نضدت بهاهام الرفاق تلولا. والبيت من قصيدة رائعة مطلعها :

في الخد ان عزم الخليط رحيلا   مطر تزيد به الخدود محولا

(ديوان المتنبي ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، : ٣/٣٤٩ و ٣٥٤) .

(٢) أحد ممدوحي المتنبي ، وكان قد خرج الى أسد ففر منه ، انظر ديوان المتنبي : ٣/ ٣٤٩)

ايها الخاذل للغزى [١] ، اغضبت سراة الحي ، وازعجت الميت منهم والحي ، من لؤي الى ابي نمي • فويحك ، اما تخاف ان تهلك ، يوم يقال : يا محمد ، انه ليس من اهلك • » [٢] •

(13)

هذا الحديث مغزاه سياسي ، ونقد لمواقف بعض الملوك العرب في قضية فلسطين في سنة ثمان واربعين• وهو يسجل موقفا رائعا للجزائريين، ونقمهم من الخيانة العربية ، والخونة من ارجاس الملوك • فهو يدل على ان الجزائريين كانوا ثوارا قبل الثورة ، كما لا يبرحون ثوارا بعدها ، تتسم مواقفهم السياسية ابدا بايثار قول كلمة الحق ، ونصر القضايا الوطنية والتحررية على نحو مستمر •

وقد كتب هذا الحديث بلغة لو تجسمت لكانت شوك قتاد لا يمس، او جلاميد صلدة لا يصاعد عليها • فليس من شأن الاحاديث الادبية ان تكون ذات اسلوب مؤتلف من الفاظ مرقعة ، وكلمات ملفقة •

فالابراهيمي يبدأ حديثه هذا بسجع مركوم بعضه فوق بعض ، فهو يسلك فيه مسلك : « لزوم ما لا يلزم » ، فهو لا يرضى ان تكون السجعة الواحدة او السجعات الكثيرة قائمة حروفها على فاء واحدة تنتهي بها الجملة ، حتى يجعلها مختومة بثلاثة احرف متجانسة • وما « الحفيف » ، و « الخفيف » ، والكفيف ، والتلافيف ، والتجافيف ، والعفيف ، الا دليل على بعض ما نزعم •

(14)

وايلاع الابراهيمي بالغريب والسجع ، جعله يرتكب هنات ادبية كان ينبغي لكاتب في منزلته ان يتسامى عنها ، ويتنزه • وكيف يستطيع ان يزعم زاعم ان مثل قوله : « وبالمغيرات صبحا عليها التجافيف » تعبير صالح مستقيم ؟ ان الذي يزعم لك ان مثل هذا التعبير من الاستقامة والفصاحة بمكان محمود ، فاعلم انه لا ريب من مرضى الاذواق •

---

(١) مفرده : غاز .
(٢) البصائر الثانية : عدد ٦٩ .

وقد اراد الابراهيمي ان يحاكي اسلوب القرآن فوفق في البداية ، وحرم التوفيق في النهاية . ولو قال : « وبالمغيرات صبحا » وامسك، لكان قد احسن بالرغم من انه لا يعدو ان يكون مقتبسا من القرآن . ولكن الاقتباس ليس عيبا ولا نقصا في اسلوب الادباء . فما قيمة « عليها التجافيف » اذن ؟ وما خطب التجافيف في هذا المقام لو لم يجلبها جالب السجع ؟

ثم ما هي التجافيف ؟ وما شأنها مع المغيرات بالصبح ؟ وكيف انها لم تفض على لسان خطيب مشهور ؟ وكيف لم تجر على قلم كاتب قدير ؟ وهل كان وجودها هنا الا اشباعا لنهم السجع ، وارضاء لاذن الفاصلة ؟ ثم ما شأن ابن العفيف التلمساني هنا في هذا الحديث ؟ وهل لم يخلق الله على الارض من هو اعهر منه وافسق حتى يذكر هو وحده من دون سائر العاهرين والفاسقين ؟ انه لا ريب خر في هذا الحديث صريعا ضحية السجع .

والذي له المام صالح بنظم القرآن ، يدرك بيسر ، ان الابراهيمي قد اخذ من كل سورة ، من السور المكية ،القصار خصوصا،طرفا من اسلوبها فبنى عليه حديثه . فعبارة : « لا اقسم » انما هي عبارة قرآنية قصرت عليه ولم تكد الاقلام تصطنعها بتاتا . وليقل نحو ذلك فيهذا الايمانالمتلاحقة، والاقسام المتتالية ، فهي تذكر باسلوب القرآن ونظمه ايضا .

وانظر الى موقع « المغيرات صبحا » في سورة العاديات :

« بسم الله الرحمن الرحيم . والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا » [1] ، كيف احلولوت واعذوذبت ، وكيف استقرت في مكانها حتى كأنها بنيت فيه بنيانا مرصوصا ؟ وانظر الى موقع العبارة ذاتها في اسلوب الابراهيمي، تجدها مقحمة قلقة بينهذه الاسجاع الفائية، « وبالمغيرات صبحا عليها التجافيف » ، كيف اخشوشنت واثقوقلت ، وكيف نبا بها المقام حتى كأنها بنيان معلق على جناح الفضاء ؟

(15)

اما هذه الاقسام المتتالية التي تطالعنا في صدر الحديث ، فانها اقسام

---

(١) القرآن الكريم : سورة العاديات : الايات : ١ ــ ٣ .

الفتها آذان الذين ينصتون الى القرآن • وانت حين تعاود قراءة هذه الاقسام في مطلع هذا الحديث ، مجاهدا نفسك جهادا شاقا في اعطاء الابراهيمي ما ينبغي ان يعطاه من حق التوفيق الفني في تدبيج هذا الحديث بنوع خاص ، تستطيع ان تعترف بأن القسمين الاوليين هما وحدهما اللذان استقرا فيما كان ينبغي لهما ان يستقرا فيه من مكان: فهما مطمئنان، ثابتان مستقيمان ، بل رائعان • اما وراء ذلك فهو لواذ بالباطل ، وطلب للتعسف الشديد •

(16)

وكم كنا الحجنا في غير هذا البحث [١] ، من ان السجع اذا استقام كان آية في البلاغة ، ونهاية في البيان • وقد ذهب الى هذا قبلنا كثير من النقاد الاقدمين ، ومنهم ابن الاثير [٢] ، وابن ابي الحديد [٣] •

اما الابراهيمي فقد عرفناه كاتبا كلاسيكيا اتباعيا بليغا مبدعا ، يأتيه السجع فيحسن مأتاه ، وينصرف عنه فيحلو منصرفه ، واسلوبه في كل ذلك بديع التصوير ، عميق التأثير • وقد كان اسلوبه المسجوع في « مقامة مناجاة مبتورة ، لدواعي الضرورة » آية من آيات البيان الساحر اللطيف ، لم يستطع السجع ان ينقص من قيمته التصويرية شيئا ، بل لعل السجع هو الذي ظاهر على ذلك• اما في احاديث سجع الكهان،فقد اصطنع الابراهيمي من الالفاظ ما سهل وما عسر ، وما لان وما خشن ، وما حلا وما سمج ، وما اميت واهمل ، وما احيي وبعث ، فاذا هذه الاحاديث ، في معظمها ، تتخبط في اسجاع متكلفة فيها كثير من الثقل •

(17)

ولعل الابراهيمي لا يعدم من يلتمس له عذرا في هذه الاسجاع المتكلفة في معظمها ، وهو انه انما اتى من الامر ما اتى ، لانه كان يأمل ان يلتبس مفهوم هذه الاحاديث على المستعمرين ـــ وهم بحمد الله لا يفهمون

---

(١) القصة في الادب العربي القديم : الباب الثاني .
(٢) المثل السائر : ٢٣٨/١ وما بعدها .
(٣) شرح نهج البلاغة له : ١١٥/١ ـ ١١٨ فهناك كلام حسن على السجع ولزوم ما لا يلزم .

الغريب ، وحتى مستشرقوهم فانهم يضلون فيه ضلالا بعيدا ـ فلا تلحقه اذاة ، ولا يصيبه منهم مكروه • ومثل هذا العذر يمكن ان ينال قبولا ، لو كان الامر يتصل بقضية جزائرية محضة ، او بقضية سياسية تهم،يومئذ، فرنسا وتمسها مباشرا •

ثم ان الصحافة العربية في الجزائر كانت تقول في الاستعمار ما شاء الله لها ان تقول ، وكأن المحتلين لم يكونوا قبل قيام الثورة يؤمنون كثيرا بأهمية الاقوال وتأثيرها في الناس تأثيرا عنيفا ، ولذلك لم تكن تزيد السلطات الاستعمارية على توقيف الجريدة ، فكان ذلك لا يكلف القائمين على مثل هذه الصحف الا تغيير اسم جديد ، ثم يتابعون صراعهم بنفس اللهجة والاسلوب ، وبنفس المبادىء •

وهذه السيرة الغريبة ليست وقفا على الحكومات الاستعمارية ، بل هي عامة ومعمول بها حتى عند بعض الحكومات الشرعية الوطنية ، حين تقدم على تعطيل بعض صحف المعارضة • واضحك من سخافة القانون •

(18)

وعلى اننا قد نلتمس للابراهيمي عذرا آخر قد يكون اقرب الى القبول ، فربما دفعه الى تدبيج هذه الاحاديث على هذا النحو شيئان اثنان :

١ ـ انه تناول في هذه الاحاديث قضية تهم العرب جميعا ، وتهم من المشرق اكثر ممن في المغرب ، فكأنه اراد اصطناع لغة عالية دلالة على محتوى اهمية الحديث •

٢ ـ انه ربما كان اراد ان يتحدى اهل العصر من الكتاب ، ويفهم ذلك من مقدمته لهذه الاحاديث التي كان يدرك الابراهيمي انها غريبة على الناس ، حين زعم لهم ان الفاظها ليست غريبة الا على الذين لايعرفون من الفاظ العربية الا ما يدور في سوق العصر (١) •

وقد اختار الابراهيمي لهذه الاحاديث عنوانا ملائما جدا ، وهو سجع الكهان • فلم يكن المقصود به التعبير والدفاع عن قضية فلسطين ،

---

(١) البصائر الثانية : عدد ٦٩ (١٩٤٩/٢/٢٨) •

قدر ما كان استجابة نفسية كامنة في اعماق نفسه الممتلئة بالاحمال الادبية المحفوظة ، ليتخلص من بعض ما كان في ذاكرته من مخزون الآداب القديمة والاسجاع الغريبة ، وقد قال الشاعر القديم :

أشفى بِقَلْبِكَ من أخبارِ مَن تَسَلْ ‏ ‏ وَعِلْمُكَ الشَّيْءَ تَهْوَى ان تُبَيِّنَهُ

(19)

اما محتوى هدا الحديث ، وقد اشرنا اليه منذ قليل ، فانه محتوى شريف . فقد صور الابراهيمي ما اصاب فلسطين في سخرية ممضة ، وتهكم لاذع ، والم عميق ، ما اصاب هذا الشعب العربي الممتحن من اذاة اليهود ، وعبيد اوروبا ، واوباش امريكا . وقد جاهد الابراهيمي نفسه جهادا شاقا ليسلط الاضواء الكشافة في حديثه هذا ، وفيما يتلوه من احاديث او مقامات اخرى . وقد كان قلمه غاضبا عليهم غضبا شديدا ، فكان يرمي بالالفاظ الحادة العنيفة ، كما يرمي المدفع الرشاش النيران المحرقة من فوهته .

ويكاد القارىء الذكي يتلمس شخصية ذلك الملك الخائن ... الذي خذل شعبا ، وعق لؤيا وكعبا ! وقد سعى الابراهيمي سعيا نشيطا لكي يوازن بين الاسد الذي وصفه المتنبي في قصيدته المشهورة [1] ، وبين سيرة هذا الخائن العربي الذي « ركب صعبا ، وباع شعبا ، وعق لؤيا وكعبا » .

(20)

وبعد ، فهل لي ان ازعم ان امر هذه الاحاديث كان يتصل بالمشرق العربي ، وكان ذلك وحده عاملا مغريا للابراهيمي ليكتبها بتلك اللغة العالية التي لا يفهمها الا خواص الخواص كما يقال . فكأنه اراد ان يلائم بين سمو الموضوع وعلو منزلة من يهمهم الامر ، وبين الالفاظ الدالة على ذلك .

ولعل الابراهيمي كان مدفوعا الى اصطناع هذه اللغة في مثل هذه الاحاديث التي كانت تهم العرب جميعا ، فهي اولى ان تغريهم بقراءتها

---

(١) انظر صفحة : ١٢٦ من هذا البحث .

ونتبعها ، ما كان العرب — ولا علي ان اقول كلمة الحق في هذا البحث .
ولا اريد عتابا ولا لوما ، وانما اريد تسجيل حقيقة تاريخية ، بل انها قد سجلت فعلا — يرمون به الجزائريين من انهم لا يعرفون من العربية شيئا قليلا او كثيرا • ولم يظل ذلك مكتوما في السر ، بل ان الشاعر احمد شوقي ، وقد زعموا انه امير الشعراء العرب المحدثين فهو بهذا اللقب يمثل الطبقة الرفيعة من مثقفي العربية من حيث يشعر او من حيث لا يشعر ، كان قد زعم حين مكث بوطننا اربعين يوما ، طلبا للاستجمام بأن الجزائر « لا عيب فيها سوى انها قد مسخت مسخا ، فقد عهدت مساح الاحذية فيها يستنكف النطق بالعربية ، واذا خاطبته بها لا يجيبك الا بالفرنسية »[1] •

وخير ما نرد به على احمد شوقي ما كان ابن باديس علق به على عبارة شوقي هذه ، في حفل اقيم بنادي « الترقي » احياء لذكراه وذكرى حافظ ، قائلا :

« اعجبوا لاستدلال على حالة امة بمساح الاحذية منها • ولا يجمل بي ان ازيد في موقفي هنا على هذا • الا ان فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا ، لكان له في الجزائر رأي آخر • ولعلم ان الامة التي ••• انجبتها العرب ، وهي امة التاريخ ، وانبتتها الجزائر ، وهي العاتية على الرومان والوندال ، لا تستطيع ، ولن تستطيع ، ان تمسخها الايام ، ونوائب الايام[2] •

ونحن نقول اليوم لابن باديس ، ولعله كان واثقا بذلك ، وهي العاتية — الى جانب عتوها على الرومان والوندال والاسبان — على الاستعمار الفرنسي ، والهائرة لبنيانه • وهي المتحدية لهذه القوى الهائلة العالمية اليوم ، والتي تريد ان تستعبد الشعوب من جديد ، على نحو جديد •

كما نقول اليوم لشوقي ، رحمه الله ، لو رأى من عالم الغيب ، اطفالنا وشبابنا اليوم وهم يرددون من شعره محفوظات كثيرة ، ويدرسون حياته ويعرفون عنها مثل ما يعرف امثالهم من الشبان العرب في سائر الوطن

---

(١) عبد الحميد بن باديس : الشهاب : ج ٤ المجلد العاشر ص ١٤٦ (مارس ١٩٣٤) •

(٢) المصدر السابق :

العربي ، لما زعم تلك الزعمة الغريبة .

ان ألسنة الرجال كثيرا ما تزل ولو كانوا عظاما

(21)

فلا غرو اذا رأيت الابراهيمي يركب طريق السجع الوعر ، ويلتجىء الى العويص الغريب ، حين اراد ان يعالج قضية على مستوى الشرق العربي .

وقد رأينا في الفصل الماضي ، الى كل ذلك ، ان البصائر كانت تحرص على الاسلوب العالي [١] .

واود ان نعرف قبل ان نغادر هذه الفقرة ان الابراهيمي لم يكن يثبت اسمه في آخر هذه الاسجاع ، وانما كان يجتزىء بالرمز الى اسمه بهذه العبارة : « كاهن الحي » .

وكان كثيرا ما يحلي هذه الاحاديث التي نشر منها سبعة [٢] في البصائر ، بالشعر على عادة اصحاب المقامات .

وخير ما ينبغي ان نعرف عن هذه الاحاديث اخيرا ، انها ليست كل ما كتب الابراهيمي ، وانما هي لا تمثل الا فصولا قصيرة من كتاب مستقل دبجه في نقد « للحكومات العربية ، والشعوب العربية وملوكهم ، على مواقفهم الذليلة المهيمنة المترددة في فلسطين » [٣] ويقول الابراهيمي في ذلك :

« وكنت كتبت كثيرا في التنديد بهم ، فلم يؤثر ذلك في هذه الصخور الجامدة ، فاستخدمت هذا الاسلوب ، ونزعت فيه منزع القدماء في السجع وعزوته الى كاهن الحي » [٤] .

ويرى الابراهيمي ان فيما نشر من هذه الاحاديث لا يعني شيئا بالقياس الى ما لم ينشر ، ففي غير المنشور منها « ما هو ابلغ في التصوير وألذع في النقد ، مما نشر » [٥] .

---

(١) راجع جريدة البصائر الثانية : عدد ٣ ، ثم عدد ٨٦ صفحة ٥ .
(٢) وذلك في الاعداد التالية : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٨
(٣) عيون البصائر : ٥٧١ .
(٤) المصدر السابق :
(٥) المصدر السابق :

هذه حقيقة هذه الاحاديث الادبية ، وقد آثرنا ان نناقش الاول منها، تجنبا للاطالة .

٢ ـ الابراهيمي الصحافي السياسي :

(22)

يخيل الينا ، ان الابراهيمي كان كاتبا اجتماعيا وسياسيا ، قبل ان يكون كاتبا ادبيا . وهذا الحكم يعود اساسه الى التوفيق العظيم الذي كان يصاحبه حين يتناول مواضيع اجتماعية محضة ، او مواضيع سياسية بحتة فقد صاحبه مثل هذا التوفيق في سلسلة مواضيع ليست ذات كنه ادبي ، دبجها يراعه ، امثال : « التعليم العربي والحكومة » [١] ، و « فصل الدين عن الحكومة » [٢] ، و « فلسطين » [٣] . وسواها من المواضيع التي تتصل بهذه من قريب او بعيد .

ونحن لسنا نتردد في ان نذهب الى ان الابراهيمي قد بلغ في هذه المواضيع غاية القمة البيانية . فلست تجد فيها تلك الاسجاع الباردة التي تسيطر على سجع الكهان ، ولا ذلك اللعب بالالفاظ الذي يذكرنا ، في بعض جوانبه بكتاب المقامات امثال الحريري واليازجي ، بل لا نتردد في ان نذهب الى ابعد من ذلك ، فنزعم ان الابراهيمي اذا حق له ان يكون قائدا للنهضة الادبية في الجزائر ، فهو بهذه الاحاديث التي ينبغي ان تعد في الروائع الرائعة ، وتعتبر في قنة البيان العربي الحديث .

(23)

فان كنت في ريب مما ازعم ، لأني لم استدل على مزعمي بنص ، فليس لك الا ان تفتح البصائر [٤] ، وتقرأ :

وصف قرار التقسيم

« تصدع ليل فلسطين الداجي عن فجر كاذب العيان ، وتمخض مورد الطامعين في انصاف اوربا القديمة ، واوربا الجديدة عن آل لماع يرفع

---

(١) عيون البصائر : ٢٢٥ ـ ٢٦٣ .
(٢) عيون البصائر : ٨٠ ـ ١٢٣ .
(٣) المصدر السابق : ٤٨٣ ـ ٥١٨ .
(٤) البصائر الثانية : عدد ١٩٤٨/٢/٢/٢١ .

الشخوص ويضعها في عين الرائي ، لا في لمس اللامس • وباء الظانون ظن الخير بالضميرين الاوربي والامريكي بما يستحقونه من خيبة تعقبها حسرة، تعقبها ندامة • وتكشف ذلك اللبس الذي دام عشرات السنين عن الحقيقة البيضاء • وهي ان حق الشرك لا ولي له في الغرب ولا نصير • وجاء بها هذا المجلس الذي يسمونه زورا ، مجلس الامم المتحدة ، شنعاء لا توارى من احكام القاسطين ، واحلام الطامعين •

تراءى الحق والباطل في ذلك المجلس ، لا العرب واليهود ، وجاء اهل الحق يحملون المنطق ، ويخطبون المعدلة ، ويخاطبون الضمير والعقل ، ويحتكمون الى الشعور والاحساس ، وما منهم الا من هو في الخصام مبين ، وجاء اهل الباطل يحملون الابهام المضلل ، والكيد المبيت، والمكر الخفي ، والدعاوى المقطوعة من ادلتها ، ومع كل اولئك ـ الرنين الساحر يستهوون به الافئدة الهواء ، والضمائر الخربة • وانصت التاريخ ليسجل الشهادة ، واستشرق الكون لينظر هل تخرق للاقوياء عادة ، ونشر الاصل والدعوى • وتعارضت البينة والشبهة ، وافصح الحق واتضح ، ولجلج الباطل وافتضح • ولكن تلك الدول المتحدة على الباطل ألجمها الحق بحججه ، واجرتها الحقيقة بوضوحها ، فحكموا الانتخاب ••• وليت شعري اي موضع للانتخاب هنا ؟ان تحكيم الانتخاب هنا ،كتحكيم القرعة بين اصحاب الحظوظ المتفاوتة ، كصاحب العشر مع صاحب النصف : كلاهما باطل لا يسيغه عقل ولا شرع ••• وأي فرقٍ بين ما نعيبه من تحكيم الجاهلية للازلام الصماء وحصى التصافن ، وبين تحكيم اصوات من اموات ، وويلات ، سموهم ممثلي دويلات [1] •

(24)

ان هذا الحديث طويل جدا ، وهو يمضي على هذا النحو الرائع من البيان الساحر ، الذي لا تتعثر كلماته ، ولا تكبو عباراته ، ولا تثقل جملاته ، وانما يمضي هينا لينا ، عذبا سائغا ، فيه موسيقى لطيفة للاذن ، وفيه حلاوة لذيذة للسان ، وفيه متاع للعقل عظيم ، وفيه منطق قوي ينافح عن الحق •

---

(١) البصائر الثانية : عدد ٢١ (٢ فبراير ١٩٤٨) .

وان هذا الحديث قدر ما يتقدم ويطول ، قدر ما يرتفع في البلاغة ، ويسمو في البيان . وعسى ان تقتنع بما اقتنعت به حين تقرأ هذه الفقرة الاخرى من نفس الحديث ، يقول الابراهيمي :

« ايها العرب ، قسمت فلسطين فقامت قيامتكم .. هدرت شقائق الخطباء ، وسالت اقلام الكتاب ، وارسلها الشعراء صيحات مثيرة تحرك رواكد النفوس . وانعقدت المؤتمرات واقيمت المظاهرات ، فهل كنتم ترجون من الدول المتحدة على الباطل غير ذلك ؟ وهل كنتم تعتقدون انه مجلس امم كما يزعم ؟ ... وكأنكم ما علمتم ان ذلك المجمع يمشي على اربع : ثلاث موبوءة ، والرابعة موثوءة .

يا قوم ، ما ظلمت فلسطين يوم قسمت ، ولكنها ظلمت يوم بذل « بلفور » وعده للصهيونيين باسم حكومته ... »[1] .

تحليل هذا المقال :

(25)

الموضوع موضوع سياسي ما في ذلك من ريب . ولكن الاسلوب اسلوب ادب رفيع ، وخيال خصيب ما في ذلك من ريب ايضا . فهل يمكن ان يعد هذا الحديث حديثا صحافيا ؟ كلا . فان الصحافة اخبار عن حوادث . وانت ان قرأتها لا تشعر بحرارة في قراءتها مطلقا ، وانما تشعر ببرودة في كلماتها شعورك بالبرودة التي تتلقاك حين تفتح مبردة من المبردات الضخام . بل لعلك ان كنت اديبا ذا ذوق صقيل رفيع ، ان لا تلبث ان تصاب بالغثيان والدوار ، من جراء تلك الكلمات المعادة الساقطة التي ابتذلت حتى فنيت ، واصبحت اسمالا لا تغني من عراء ، واطمارا فقدت كل لون . فان الالفاظ حين تعاد وتلاك ، وحين تبتذل وتبلى ، كالعجائز اللواتي يشبهن السعالي ، وكالاشباح التي فارقتها الارواح .

فاين اسلوب الابراهيمي النقي القوي الجديد ، من اساليب الصحافة المريضة الخائرة ؟

فانك لتقرأ هذا الحديث السياسي الصحافي معا ، وانك لتشعر وكأن

---

(1) البصائر : عدد ٢١ .

نفس الابراهيمي تتجسم في ألفاظ حديثه هذا ، لتمد الكلمات الخرساء بما هي مفتقرة اليه من حركات واصوات ، وقوة وحياة • انك لتشعر بانفعال الابراهيمي ، وانك لتشعر بقوة الصدمة ، وعظمة هول الموقف على نفسه الغيور • فانه كان ناقما من هذه الاربع التي تزعم لنفسها ، انها « كبرى »، وما هي بالكبرى ، ولكنها تكابر الحق ، والحق اكبر منها ، وتتعالى عليه ولا بد من ان يعلو عليها • فان هذه الدول لم تبرح نذير شؤم ولؤم على الدول الصغيرة التي تريد لنفسها ان تظل صغيرة ـ وقد قال ابو العلاء : وما المرء الا حيث يجعل نفسه ـ وعلى الشعوب المستضعفة التي ترضى ان تظل مستضعفة باكية تذرف الدموع ،وتنادي بالويلات والثبور وعظائم الامور !•

وكان الابراهيمي كان يرى انه لا شيء اسخف على الارض ، من ان يحتكم محتكم الى هيئة الامم التي لا تزال جحرا ساما للمؤامرات على حرية الشعوب ، باسم الانتخاب طورا ، وباسم القانون الدولي طورا، وباسم الامتيازات التي يتمتع بها الاكابر اطورا اخرى • وفي بعض هذا ما ادى بفلسطين الى ان تستعمر جهارا ، وباسم الامم المتحدة التي كانت تسيرها يومئذ بريطانيا ، ولا تزال تسيرها اليوم امريكا من طرف خفي •

وفي هذا المقال الصحافي ، وفي المقالات الاخرى التي كتبها حول فلسطين ، نلحظ صدقا في عاطفة الابراهيمي ، وحرارة في لهجته ، وقوة في تعبيره ، وغضبا عارما في اسلوبه الذي كان وكأنه يضطرب ويتحرك ، ويمور ويثور ، كأنه كان يريد ان يتخذ من الالفاظ سلاحا يحارب به الظالمين •

ومن اظلم ممن سلب شعبا وطنه باسم لا شيء ؟؟

(26)

ونحن نحسب ان الابراهيمي لو جاء يكتب عن قضية جزائرية بحتة لما بلغ فيها اكثر مما بلغ ، ولما وفق اكثر مما وفق في كتابته عن فلسطين وانما يدل هذا على ان الجزائريين لا يبرحون ينفعلون انفعالا عميقا عنيفا بما يضطرب في الوطن العربي من احداث ، وبما يلم عليه من خطوب • ولولا خشية الاطالة المضجرة لنقلت حديثا اخر من هذه الاحاديث الصحافية

الرائعة ، لندل على ان الابراهيمي كان صحافيا ناجحا من الدرجة العليا ، وانه كان يسخر قلبه وعاطفته ونفسه واسلوبه جميعا في المواضيع السياسية التي كان يعالجها • [1]

وعلى ان الابراهيمي عالج كثيرا من المواضيع السياسية الاخرى ، الجزائرية وغير الجزائرية ، ويستطيع الباحث ان يجدها مبثوثة في البصائر ان اسعده الحظ بالعثور على بعض الاعداد منها ، والا فكثير منها مقيد في « عيون البصائر » الموجود في السوق •

٣ ـ الابراهيمي المصلح المربي :

(27)

وعلى انه من العسير على باحث مار ، صنيعي انا في هذه الدراسة العامة ، ان يغربل هذه العناصر غربلة تامة ، ويميز بعضها من بعض • فان كثيرا من هذه الاهداف التي كان الابراهيمي يسعى اليها مختلطة ببعضها لا تكاد تبين الا بجهد ومشقة • فان الاصلاح قد يتداخل مع التربية ، وذلك ما جعلنا نقرنهما ببعضهما في هذه الفقرة من البحث •

ومن اهم ما يجعل الابراهيمي مربيا وقورا ، تلك الاحاديث الرائعة التي كتبها حول « الشاب المسلم الجزائري كما تمثله لي الخواطر » [2] • فان الابراهيمي يتجلى فيها أبا حكيما ، ومربيا مجربا ، ووطنيا فاضلا خيرا ، ومسلما مؤمنا •

(28)

ولكن يجب ان لا ننسى انالابراهيمي كان اديبا فيكل هذهالجوانب التي ندرسها من خلالها فالاسلوب هو هو ، واللهجة الحارة هي هي ، والتشبيهات الادبية القوية هي هي ايضا • فاذا تغير الجوهر وتبدل احيانا ، فان الصورة واحدة ، مطبوعة في سائر الاحوال بطابع الابراهيمي الشخصي • ولذلك نجد النغمة الادبية تهيمن على هذه الاحاديث التي

---

(١) البصائر : عدد ٢٢ •

(٢) تجد هذه الاحاديث مجموعة في عيون البصائر : صفحة ٥٧٨ وما بعدها •

دبجها حول الشاب الجزائري المثالي ، فقد حاول الابراهيمي ان يرسم المثل الاعلى للشباب الجزائريين ، وهذا نموذج من هذه الاحاديث التربوية :

الحديث الرابع

« اتمثله حنيفا فيه بقايا جاهلية .. يدخرها لميقاتها ، ويوزعها على اوقاتها . يرد بها جهل الجاهلين ، في زمن تفتقت علومه عن جاهلية ثانية شر من الجاهلية الاولى ، وتمخضت عقول ابنائه بوحشية مقتبسة من الغرائز الدنيا للوحوش اقتباسا علميا البس الانسان غير لبوسه . ونقله من قيادة الحيوان ، الى الانقياد للحيوانية . واسفرت مدنيته عن جفاف في العقول ، وانتكاس في الاذواق ، وقوانينه عن نصر للرذيلة وانتهاك للحرمات . وانتهت الحال ببنيه الى وثنية جديدة في المال ، وعبادة غالية للمال ، واستعباد لئيم بالمال .

اتمثله معتدل المزاج الخلقي بين الميوعة والجمود ، وبين النسك والفتك ، تتسع نفسه للعقيق ، وعمرو ابن ابي عتيق ، فيصبو ، ولا يكبو ، كما تتسع للحرم وناسكيه فيصفو ، ولا يهفو . وتهزه مفاخرات الفرزدق في المربد ، كما تهزه مواعظ الحسن في المعبد .

اتمثله كالدينار يروق منظرا ، وكالسيف يروع مخبرا ، وكالرمح امدح ما يوصف به ان يقال ذابل ، ولكن ذاك ذبول الاهتزاز ، وهذا ذبول الاعتزاز . وكالماء يمروء فيكون هناء يروي ، ويزعق فيكون عناء يردي . وكالراية بين الجيشين تتساقط حولها المهج وهي قائمة .

اتمثله عف السرائر ، عن الظواهر . لو عرضت له الرذيلة في الماء ما شربه ، وآثر الموت ظمأ على ان يرد اكدارها . ولو عرضت له في الهواء ما استنشقه ، وآثر الموت اختناقا على ان يتنسم اقذارها .

اتمثله جديدا على الدنيا ، يرى من شرطها عليه ان يزيد فيها شيئا جديدا ، مستفادا فيها يرى من الوفاء لها ان يكون ذلك الجديد مفيدا .

اتمثله مقدما لدينه قبل وطنه ، ولوطنه قبل شخصه ، يرى الدين جوهرا ، والوطن صدفا ، وهو غواص عليهما . يصطادهما معا ، ولكنه يعرف الفرق بين القيمتين ، فا ناخطأ في التقدير خسر مرتين .

اتمثله واسع الامال ، الى حد الخيال . ولكنه يزجيها بالاعمال ، الى حد الكمال . فان شغف بحب وطنه ، شغف المشرك بحب وثنه ، عذره الناس في التخيل لاذكاء الحب ، ولم يعذروه فيه لتغطية الحقيقة .

اتمثله مصاولا لخصومه بالحجاج والاقناع ، لا باللجاج والاقذاع ، مرهبا لاعدائه بالاعمال ، لا بالاقوال .

اتمثله بانيا للوطنية على خمس ، كما بني الدين قبلها على خمس :

السباب ، آفة الشباب . واليأس ، مفسدة للبأس . والامال ، لا تدرك بغير الاعمال . والخيال ، اوله لذة وآخره خبال . والاوطان ، لا تخدم باتباع خطوات الشيطان .

يا معشر الشباب ، هكذا كونوا ، او لا تكونوا [1] .

(29)

لا نكاد ناتي على هذا الحديث قراءة ، حتى نقتنع بان الابراهيمي كان ممن تسيطر عليهم النزعة الدينية الروحية . حتى انه كان يرى للشبان الجزائريين ان يقدموا الدين على الوطن . فهل كان الابراهيمي مليما حين قدم الدين على الوطن ؟ انا لا نميل الى ذلك . لانه كان اولا رئيسا لجمعية ذات اهداف دينية بالرغم من كل شيء ، ولانه كان ثانيا ، موقنا بان الشباب المتدين بالاسلام ، المتشبع بمبادئه ، لا بد من ان يدفعه الايمان القوي بالدين الى محاربة الاستعمار الذي كان يمانع كثيرا في اقامة الشعائر الدينية بمنتهى الحرية .

ودعوة الشباب الى التمسك بالدين وايثاره على كل شيء ، ولو كان وطنا ، ظاهرة عامة في الادب العربي المعاصر في الجزائر ، تجدها في نتاج ابن باديس ، وتجدها في آثار الابراهيمي ، وتجدها كذلك في شعر محمد العيد ، وفي شعر سواه من كثير من الشعراء الجزائريين الذين كانوا يواكبون حركة ابن باديس . فان العيد مثلا — وان كان موضوع بحثنا هذا وقفا على النثر دون الشعر ، فلا بأس من الاشارة الخاطفة من اجل محاولة تعميم الحكم — نجده في قصيدة طويلة نشرتها له البصائر [2] ،

---

(١) البصائر : عدد : ١١ .
(٢) المصدر السابق :

يحض الشباب الجزائري على التمسك بحبال الدين ، والتشبث بامراسه القوية • وهو يقول في بعضها :

انت من عنصر الخلود لُبابُ   كن الى المجد طامِحاً يا شبابُ
لك دين مدى الدهر عزيزٌ   يُبْذَلُ المالُ دونه والرقابُ
لك ماض ما مِثْلُهُ قَطُ ماضٍ   تتباهى بمجدِه الأحقابُ
ولسانٌ لمْ يَدْنُ مِنْهُ لِسَانٌ   وكتابٌ لم يَدْنُ مِنهُ كِتَابُ
نتمنى بالدين ان تتحلى   من تحلى بدينه لا يُعَابُ
انما الدينُ لِلُيوثِ عَرِينٌ   لَا تَغُرَّنْكَ بِالعُواءِ الذِئَابُ
انما الدينُ في المبادىء رأس المجدِ مِنها ، وغيره أذْنَابُ(١)

وهي طويلة تقع في قريب من اربعين بيتا •

فالنزعة الدينية اذن من اهم خصائص الادب العربي الجزائري قبيل النورة •

(30)

وانا لا نذهب مع الابراهيمي في حديثه الرابع الذي يزجي فيه بالشبان الجزائريين ان يقدموا الدين على الوطن ، وذلك في قوله : «اتمثله مقدما لدينه على وطنه » ، لان الدين في نظرنا ، نزعة روحية تتصل بالنفس الباطنية للانسان • وهو من اجل ذلك حر في ان يعتنق ما شاء من الاديان • ونحن حين نقول : ما شاء من الاديان ، نؤمن اثناء ذلك بان كل من تدين بالاسلام ونشأ عليه لن يستطيع ان يحيد عنه الى دين آخر جديد •

واذن فلا خوف على الشاب الجزائري من الالحاد اذا كان قد تلقى تربية دينية حسنة • وعلى ان الالحاد نزعة شيطانية قد يبتلى بها المؤمن بالله • وكثيرا ما تكون العلة في هذا الشر النفسي احد شيئين : اما عمق الثقافة وتبحرها ، وسوء التوجيه فيها ، واما سطحيتها •

---

(١) المصدر السابق :

اما متوسطو الثقافة فلا خوف عليهم من هذا التيار العنيف . ذلك بأن الشاب الذي لم ينل من الثقافة الا مقدارا ضئيلا يجده امام ظواهر روحية وعقلية عويصة ملغزة مشكلة ، لا يحسن لها تفسيرا ، وتصادفه تساؤلات مذهلة محيرة لا يجد لها جوابا شافيا ، فتزل قدمه زللا ، وقد يهوي في مهاوي الضلال الى البلاد . على حين ان الشاب الواسع الثقافة، الغني التفكير ، الشديد الالمام بدروب المعرفة ـ والذي يكون توجيهه الثقافي سيئا الى حد ما من حيث الاساتذة ، ومن حيث الكتب التي ظل يقرؤها ـ لا يقل عن الاول حيرة وضلالا ، اذ كان العلم بدون حدود ، والمعرفة بدون نهاية . واذ كان التفكير مدعاة للريب . وقد رأينا الغزالي على عمق ايمانه بالله ، وشدة غيرته على الاسلام ومبادئه ، لم ينج من ثورة الشك الا بعد محنة نفسية عميقة وطويلة [1] ـ والريب مدعاة للحيرة ، والحيرة تؤدي احيانا كثيرة الى الضلال . وفي الضلال الفساد بانواعه العقلية والروحية والنفسية . وليس بعد الفساد من شيء .

وعلى ان مثل هذا الشاب المثقف ثقافة اسلامية متينة كثيرا ما يعود الى روضة الايمان التي كان ينعم فيها ، حين لا يهتدي في متاهته البعيدة الى جواب صحيح ، فيستسلم آخر الامر الى هذه القوة العاتية ، الى هذا الواجب الوجود العظيم ، في ثقة واطمئنان .

(31)

واذن فالدين قضية شخصية لا تهم الا الفرد وحده ، ولا تهم الوطن في قليل او في كثير . ونحن وان كنا نرى بان الثورة الجزائرية كانت تستمد من الشعب قوتها اساسا ، على حين ان هذا الشعب كان يستمد قوته من الدين ، فكانوا يطلقون على المحاربين للمحتلين : « مجاهدين » ، وعلى من خروا منهم صرعى في معارك الشرف : «شهداء»، فان الدين ليس عنصرا ضروريا ، في سائر الحالات ، لكل ثورة وطنية ضد الدخلاء . فقد رأينا كثيرا من الشعوب المتحدة على هدف واحد لا تجمعها جامعة الدين ، ولكن جامعة الوطن والمصلحة العليا .

---

(1) راجعوا كتاب المنقذ من الضلال للغزالي ، وهو الكتاب الذي يتحدث فيه عن نفسه ، وعن المراحل الروحية المفعمة بالشك التي مر بها ...

والواقع اننا وقعنا بحديثنا هذا في قضية من اختصاص علماء الاجتماع اذ ينشأ عن الوحدة الوطنية ظاهرة اخرى هي اللغة . وقد وجدنا ان اللغة ليست ضرورية ان تكون واحدة ليقوم وطن واحد ، فقد نجد الشعب الواحد يتكلم ثلاث لغات حية او اكثر كالشعب السويسري الذي يتحدث الالمانية ، والفرنسية ، وغيرهما . كما نجد الشعب الكندي يتحدث الفرنسية والانجليزية . في حين اننا نجد كثيرا من الشعوب الافريقية تتحدث بلغات اقليمية او لهجات على الاصح ، مع ان جامعة الوطن تجمعها كلها في دائرة واحدة .

وان كنا نؤمن بان تعدد اللغات او اللهجات عند اي شعب لا يزال مما يسبب الاضطرابات الداخلية . لان اللغة الواحدة لاي شعب من اسس الوحدة الوطنية الثابتة .

(32)

ومهما يمكن ان يقال في هذه المسألة المعقدة ، والتي لا يمكن ان يقال فيها الرأي الاخير بسهولة ويسر ، فان الدين ليس ضروريا ان يقدم على الوطن ، لان التسليم في الوطن او اهماله ، اي جعله في المرتبة الثانية بعد العقيدة الدينية ، ينشأ عنه فساد عام ، وذلة وانكسار للمجموعة المتساكنة في ارض ذات حدود معروفة .

وما قول الابراهيمي في اننا نحن الجزائريين بالذات ، لم نؤخذ في ذات ديننا ، الا بعد ان كنا اخذنا في ذات وطننا قبل ذلك فاحتلنا الفرنسيون؟ فلولا احتلالهم وطننا ، لما وقعنا في تلك المحن الدينية والمضايقات العقائدية التي كان ابن باديس والابراهيمي واصحابهما من قادة نهضتنا ، لا يزالون يشكون منها الشكاوى المرة الممضة ؟

(33)

واخالك لاحظت شيئا في هذا الحديث ، مثل ما لاحظت ، وان كان يتصل بجانب ادبي بحت ، وهو انه كان يصطنع تشبيهات رددتها الالسنة والاقلام القديمة في ادب العصور الغابرة . وهذه الظاهرة لا توحي بان الابراهيمي كان جامدا لا يستطيع ان ينسجم مع ما في الحياة الجديدة فيستوحي منها تشبيهاته ، ويستلهم منها عناصر افكاره ، ولكنها توحي

بان الرجل كان يعرف مثل هذا ويتجاهله ازدراء له ، ونفورا منه ، وتعاليا عنه . لان الاديب الحق في نظره ، فيما يبدو ، وفي نظر كل محافظ مثله ايضا ، هو ذلك الذي يعود القهقري الى الماضي البعيد يستنطقه . فهذا الشاب الجزائري الذي تمثله خواطر الابراهيمي للابراهيمي ، ينبغي ان يكون كالدينار : يروق منظره ومخبره .

وما نحسب ان معظم المعاصرين على تباين ثقافاتهم واذواقهم يجدون في مثل هذا التشبيه نكتة بلاغية ، بل لعلهم ان لا يجدوا فيه حتى ما يجدون من وضوح مشرق في كلام عادي خال من التشبيه .

فان الابراهيمي كان يحن الى ذلك الزمن البعيد الذي كان الشعراء العرب يشبهون فيه الوجه الجميل بالدينار ، وعيون الماء بالدينار ايضا . والجامع بين المشبه والمشبه به ، انما هو اللمعان والبريق .

وينبغي ان نذكر ان من اهداف التشبيه توضيح الصفة الغامضة ، او تفصيل الصورة المجملة ، في المشبه . ولا يبلغ المتحدث او الكاتب من امره ما يريد ، حتى تكون صفة التشبيه في المشبه به اقوى وواضح مما هي عليه في المشبه ، بحيث يلحق المشبه بالمشبه به في الصفة المطلوب ابرازها واظهارها . فهل ادى تشبيه الشاب الجزائري بالدينار غرضه المرجو منه ؟

ونحن نعترف بانه اتى حين من الدهر على الشعراء كانوا يصطنعون فيه هذا التشبيه فكان يحسن لانه انما وضع في موضعه الذي وضع له ، فكان من اجل ذلك يوضح المشبه ويزيده قوة وجمالا وحياة . فقد شبه عنترة بن شداد قرارات الماء بالدرهم في بيته المشهور :

جادَتْ عليها كلُّ عين ثَرَّةٍ فتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كالدِرْهَمِ.(١)

فحسن تشبيهه وجاد . وعنترة هنا وان شبه قرارات ماء المطر

(١) ديوان عنترة بن شداد : ١٤٥ القاهرة . الكامل للمبرد : ٤/١ . وعين ثرة : كثيرة المياه . وكان يرى المبرد وعلماء البصرة معه ان ثرة ليست من الثرثارة ، ولكنها في معناها ، ويجب ان يكون من الثرة : ثرارة . (الكامل : ٤/١) . ولكننا وجدنا الاخطل يقول :

لعمري لقد لاقت سليم وعامر على جانب الثرثار راغية البكر

والثرثار هنا ، وان كان اسم نهر ، فانه سمي به لكثرة مائه . (انظر المبرد نفسه : ٤/١) .

بالدرهم ، لا بالدينار ، فان الجوهر يكاد يكون شيئا واحدا ، فقد كان التشبيه شائعا بالدرهم والدينار جميعا ، بالرغم من أن التشبيه بالدينار تكون قيمته النفسية اكثر ، وممن شبهوا بالدينار عبدالله ابن المعتز حين قال :

وكأنَّ الشمسَ المنيرةَ دينارٌ ، جَلَتْهُ حدائِقُ الضرَّاب

والمرقش :

النَّشْرُ مِسْكٌ ، والوُجوهُ دَنَا نيرٌ وأطرافُ الأكُفِ عَنَمٌ[1]

وقد قال قائلهم ايضا :

سالَتْ عليه شِعابُ الحي حين دعا انصارَه ، بوجوهٍ كالدنانير[2]

فكان يحلو لاولئك الشعراء ان يشبهوا كل شيء بالدرهم والدينار ، حتى ابتذلوا هذا التشبيه ابتذالاً ، ومسخوه مسخا ، فالقرارة تشبه عند عنترة بالدرهم ، والشمس بالدينار عند ابن المعتز ، ووجوه الحسان تشبه الدنانير عند المرقش ، والوجوه الجميلة المشرقة تشبه الدنانير عند اخر ، وهلم جرا .

ولعل من السخف ان تشبه الشمس الوهاجة في بيت ابن المعتز ، بدينار لا يبدو لمعانه للعين الا بوجود الشمس نفسها .

ومن يزعم ان التشبيه هنا من باب قلب الصورة ، زعمنا له ان مثل ذلك لا يستقيم قلبه على هذا النحو المظلم القاتم ، فقد يحسن قلبه اذا كان من قبيل بيت البحتري في وصف بركة المتوكل :

كأنَّها حِينَ لَجَّتْ في تَدَفُّقِها يَدُ الخَلِيفَةِ لَمَّا سالَ وادِيَهَا

---

(١) العنم : شجر لين الاغصان لطيفها يشبه به البنان ، كانه بنان العذارى ، واحدتها عنمه ، وهو مما يستاك به . وقيل العنم اغصان تنبت في سوق العضاة رطبة لا تشبه سائر اغصانها .. وقيل : هو ضرب من الشجر له نور احمر : لسان العرب : ١٥/٣٢٤ عنم .

(٢) اساس البلاغة للزمخشري : (سيل) .

اما ان تشبه الشمس بالدينار ، فلم يبق الا ان نقرأ على ضيائها السلام . فتشبيه ابن المعتز ليس ثقيلا فحسب ، ولكنه فاسد لانه ينشأ عنه فساد في الكون فيصير نور الشمس ظلاما او شبه ظلام .

وعلى ان الابراهيمي شبه الشاب الجزائري بالسيف والرمح ايضا ، ولولا خوف الاضجار لجئت بابيات كثيرة يشبه فيها اصحابها الاشياء بالسيف ، ومثل ذلك يقال في الرمح ، ولكننا نريد لهذه الدراسة لونا من التوازن فلا يستبد كاتب باكثر مما يستبد به الاخر الا على نحو يسير .

(34)

اما الابراهيمي المصلح فيتجلى في كثير من الاحاديث ، ومن العسير في هذه الدراسة العامة ان نتتبع كل العناصر الاصلاحية التي كان ينادي بها او يتناولها في أحاديثه الكثيرة المختلفة .

فهو يتجلى كمصلح في مثل احاديثه « الشبان والزواج » [١] ، و « الطلاق » [٢] و « الصداق وهل له حد ؟ » [٣] ، وحتى في احاديث « فصل الدين عن الحكومة » [٤] فحسبنا ما نشير الى صفحاته من كتابه العيون .

فان الذي يتامل هذه الاحاديث يجد الابراهيمي فيها مصلحا اجتماعيا من الطبقة الاولى .

(35)

اما احاديث « الشاب الجزائري » فهي ذات شقين : شق ادبي ، وشق تربوي . والجانب الادبي واضح جدا في هذه الاحاديث من حيث التعبير الراقي ، ومن حيث التشبيهات والصور المكتظة المتلاحقة الآخذ بعضها بزمام بعض . والجانب التربوي واضح ايضا من حيث التوجيه المقصود الذي كان الابراهيمي يستمد اصوله من آداب الدين ، والدين اسم جامع يندرج تحته القرآن والحديث ، والسيرة ، وبقية الآثار الاخرى التي

---

(١) عيون البصائر صفحة : ٣١٥ وما بعدها .
(٢) ٣٢٠ وما بعدها من نفس المصدر .
(٣) عيون البصائر : ٣٥١ وما بعدها .
(٤) المصدر السابق : ٨٠ ـ ٢٦٧ .

تتفرع عنها .

(36)

ونعترف باننا اهملنا كثيرا مما كان ينبغي ان نقول حول الابراهيمي، وعذرنا في ذلك كما قلنا من قبل ان هذا البحث مشترك بين ادباء جزائريين ولا بد ان نحاول الانصاف فيما بينهم فلا نخصص لاحدهم مجلدا ، وللاخر صفحات قليلة مع اقتناعنا بان الباحث يستطيع ان يطنب ويسهب في الشخصيات الغنية من حيث يجمل ويشير في الشخصيات التي هي دون ذلك .

وقد فعلنا حين منحنا ابن باديس والابراهيمي ما لم نمنحه نسواهما في هذا البحث .

(37)

كان قلم الابراهيمي سيالا ، وكان لسانه سليطا ذربا ، فقد تناول الشؤون الدينية ، وعالج المواضيع الاجتماعية والاصلاحية ، وخاض في السياسة خوضا عنيفا ، ولم يفرط في ذات الادب اثناء كل ذلك . فتوزعت جهوده ، وتناثر نشاطه ، فلم يستطع ان يفرض وجوده في لون من هذه الالوان الثقافية التي خاض فيها . هذا بالاضافة الى ما كان منهمكا فيه من اعمال الجمعية ، واعمال البصائر الادارية ، واعمال معهد ابن باديس .

كل ذلك يجعلنا نذهب الى ان الابراهيمي لا يعد اديبا فحسب ،ولكن يجب ان يعتبر احد مفكرينا المعاصرين لما كان يقوم به من اعمال مختلفة اشرنا الى كثير منها .وان كان الجانب التفكيري في نتاجه ليس من الوضوح بحيث تتلمسه باليد او تقع عليه بالعين ، ولكنه عبارة عن بذرات مبذورة هنا وهناك من انتاجه الغزير .

فقد كان الابراهيمي اذن : صحافيا ، ومصلحا اجتماعيا ، ومربيا روحيا ورجل سياسة ، وعالم دين ، الى جانب كونه اديبا ممتازا من الصنف العالي .

ومهما يقل في الابراهيمي من خير او شر ، فلن يستطيع احد ــ الا اذا كان جاهلا او مكابرا ــ ان ينكر بان الابراهيمي كان اكبر كاتب ادبي في الجزائر خلال النصف الاول من هذا القرن ، ولا سيما ابتداء من سنة سبع واربعين حين تألق نجمه في البصائر الثانية .

الفصل الثالث

أحمد رضا حوحو

١٩١١ — ١٩٥٦

(1)

كان الادب العربي في الجزائر ، قبل ان يعمل فيه يراع حوحو ، ادبا تقليديا باردا ، يعتمد على الالفاظ ، ويعول على اللغة ، ويعنى في كثير من جوانبه بالقشور • وكان ادبنا عاجزا عن ان يهبط الى طبقة كافة الناس ، فيصور ما يؤلمهم ، ويصور ما يسعدهم ، ويحلل نفسياتهم ، ويكشف عن عيوبهم ومساوئهم ، بما تنطوي عليه من انانية وفساد •

واذا رأيت ادبا منطويا على نفسه ، لا يكاد يعدو اصحابه الذين يطرسونه ، فاستيئس منه ان شئت ، وانبذه نبذا قبيحا ان شئت ، ولكن احذر ان ترجو منه الخير ، وتلتمس فيه الحياة والقوة • وما يكون لك ان ترجو منه الخير ، وهو ادب الى ان يكون في تعداد الاجداث واكفانها ، والاموات وجثثها ، اولى ان يعتبر من المغذيات للعقول ، الموحيات الى القلوب ، الممتعات للنفوس •

(2)

وما الادب المنطوي على نفسه الا ادب المحافظين • ونحن نعترف ، والحق ان يقال ، بان ابرز خصائص الادب الجزائري منذ كان الى قيام الثورة ، المحافظة والحنين الى الماضي • ولا نكاد نستثني من ذلك الا نفرا قليلا من الكتاب وفي طليعتهم احمد حوحو الذي يجب ان يعتز به ادبنا المعاصر اعتزازا شديدا من حيث انه رائد الاقصوصة في الجزائر •

ولو بحثت عن العوامل التي أصلت هذه المحافظة العميقة ، لالفيت لها جذورا متأصلة في الحياة الاجتماعية نفسها • ذلك بان الشعب الجزائري من اشد الشعوب محافظة في كل شيء • فهو في الدين محافظ .

ويحظى الاسلام لديه بقداسة روحية عميقة ما لها من قرار • وهو في العلاقات الاجتماعية محافظ ، ويزن المرأة بميزان من ذهب ، ويغار عليها غيرة من نار • وهو في الوطنية ايضا محافظ ، ويقدس وطنه على نحو عال • وهذا بعض ما جعله لا يريم عزمه ، ولا يلين في ارادته ، ولا يضعف في امله ، ولا يلقي بالسلاح الا بعد ان تخفق الراية ، وترين السيادة في كل مكان من وطنه ، وتتبوأ الحرية كل قلب من قلوب مواطنيه • ودفاعه في ذلك معروف مشهور ، وكفاحه تسير به الركبان ، ويتغنى به الولدان ، وتتسامر بذكره السمار •

(3)

فلما جاء حوحو ابدع ولم يقلد ، وجدد ولم يحافظ ، وتحرر ولم يحنن الى ما غبر من المذاهب الادبية ، او قدم من العهود الزمنية • فما عجب اذا رأيته يتجه نحو القصة فيعالجها ، لانها احد الفنون التي تنصب على النفوس الانسانية فتنقدها حتى تهذبها ، وتربيها حتى تعلمها ،وتنصرف الى العادات الاجتماعية الشريرة فتنقم منها وتطعن فيها ، حتى تقوم ما فيها من أود ، وتصلح ما ألم عليها من اعوجاج •

فالشعر ميوعة وعاطفة وحماس ، والتاريخ اخبار عن الماضي البعيد او القريب ، وتنبؤ وتحامل على الغيب المجهول ، والدين شعور باطني خاص يقع في قلوب الناس على نحو او على اخر ، حتى اذا جاء رجل الدين يمس هذا الشعور الباطني المرهف الحساس ، ثقل كلامه على الناس ثقلا من جبال ، فليس غريبا ان تراهم يعزفون عنه ، او يضجرون به •والخطابة تهريج وتهييج • والنقد ادعاء وافتراض وتحامل ، وحكم بالباطل في كثير من الاحوال • وانما الادب كل الادب القصة !

فان عرضت لآداب تؤرخ لها ، او تبحث في فنونها ، ولم تجدها اشتملت على طرف صالح من الفنون القصصية ، فاعلم انها آداب ليس فيها للناس خير •

(4)

فان القصة اذا لم تضحكك تبكيك • وكل من الضحك والبكاء دليل على الحياة ، والاحساس بها ، والانفعال معها • فقد مضى الزمن الذي كان

الناس يؤبون فيه القهقرى الى التاريخ يضيعون فيه فراغهم ، وينفقون فيه اوقاتهم ، ليعرفوا لماذا قتل الملك او الخليفة فلان الملك او الامير فلانا ؟ ولماذا سجن الامير فلان وزيره فلانا ؟ فهل كان الناس منذ كانوا ، في معظمهم ، الا قتالين سفاكين ؟ وهل كان الملوك الا مفسدين في الارض معتدين ؟ وهل كانوا الا جشعين انانيين ، فان آمنا ، بانهم كانوا ، مثل ما هم عليه اليوم بحمد الله ، لا يحترصون على شيء احتراصهم على الرئاسة ، ولا يؤثرون شيئا ايثارهم السطو والبغي ، ولا يطمعون في شيء طماعيتهم في الاثراء والجمع ، اقتنعنا بعدم الفائدة من قراءة هذه التواريخ التي تقص اطرافا من حياة سادات من الناس في زعم التاريخ .

ولن يكون التاريخ تاريخا حتى تعيد الانسانية كتابته ، فتستخرج منه ما يهم الانسانية لا ما يهم الانسان هنا او هناك وحده .

فقد مضى ذلك الزمان وما نراه آيبا ، واقبل الزمن الذي اصبح فيه التلميذ البسيط ، او الطالب المتوسط ، او المثقف العادي ، او الجامعي العميق الالمام ، يمسك بقصة يقرأ فيها نفسه ، ويجد فيها شعوره ، فيمضي في قراءتها حتى كأنه ذاب فيها ، او كانها ذابت فيه ، فلا يلقي بها الا بعد ان يكون قد اتى عليها قراءة .

فكأن القصة انما قامت لتسجيل تاريخ اناس مجهولين ، ولكنهم حقيقيون تاريخيون ، باسم الخيال ، على غرار التاريخ الذي نصب نفسه مسجلا لاعمال اناس معروفين ، باسم الحقيقة التاريخية .

(5)

ولم يتح لادبنا العربي المعاصر في الجزائر ، ان يحظى بكاتب قصصي ينفض عنه ذلك الغبار المتعفن الذي كان قد اصابه من فعل اصحاب الاسجاع ، والمقلدين ، حتى جاء حوحو ، فنفض عنه هذا الغبار ، ووثب به الى مستوى ادب الانسان في عاطفته وشعوره ، وفي انفعاله وغضبه ، حين انبرى يكتب الاقاصيص ويعالجها .

فلهذا الرجل الذي كان بسيطا في حياته ، ولكنه كان عظيما في اعماله ، يدين ادبنا القصصي الذي لا يبرح في مهده . وان كنا نحسب ان لو نشر كل ما كتب إلى الان من قصص في الجزائر لظهر ادب كثير

ولكن الذين يشرفون على النشر لا يعرفون ما ينشرون •

(6)

فكم كتب حوحو من قصة ؟ وما ذا عالج فيها من مشاكل ، وكم طرق بواسطتها من مواضيع ؟ وما الدوافع التي دفعته الى ان يتجه الى هذا اللون الادبي الرفيع ؟ وكم كان مقدار اقبال الناس على اقاصيصه ؟

ذلك بعض ما سنحاول الافاضة فيه في هذا الفصل •

ولعل اهم الكتب القصصية التى نشر حوحو كتابان اثنان : اولهما « مع حمار الحكيم » ، وثانيهما : « صاحبة الوحي وقصص اخرى » •

اما كتاب حمار الحكيم فقد كتبه ليعارض به توفيق الحكيم الذي كان قد نشر : « حماري قال لي » بالقاهرة • وقد اعترف حوحو نفسه بانه لم يوح اليه بكتابة هذا الموضوع الا بعد الالمام بحمار الحكيم •

وسنحاول ان نتناول جانبين اثنين من هذين الكتابين فنسلط عليهما الاضواء ، ونعرف بما لكل ذلك من قيمة ادبية في عالم القصة •

١ ـ مع حمار الحكيم :

(7)

وفكرة هذا الكتاب بسيطة في ظاهرها ، ولكنها عميقة في حقيقة الامر • وهذه هي صورتها الاجمالية العامة :

يسافر حمار توفيق الحكيم من مصر الى الجزائر ، ليبث فيها الفساد ، وينشر فيها الانحلال والخرافات ، فيزيدها ويلا على ويل • وقد جاء الى الجزائر من اجل ان يغني في اذاعتها ، لما كان يتمتع به هذا الحمار، لانه حمار ، من صوت رخيم ذي اوتارندية ، وانغام شجية • ويتصل الحمار اثناء ذلك بحوحو الذي يساقطه الحديث حول سائر المشاكل الاجتماعية والسياسية التي كانت الجزائر ، يومئذ تضطرب فيها كل مضطرب • ويظل الحمار يختلف الى حوحو في منزله ليتبادلا الآراء ، ويتحاورا في شؤون الحياة المختلفة • وقد كانا يتناولان في كل مجلس موضوعا رئيسيا تتخلله مواضيع ثانوية •

والذي يجب ان نلاحظه ان هذه الفكرة ليست مبتكرة ابتكارا تاما، وانما هي مستوحاة استيحاء ظاهرا من كتاب توفيق الحكيم •

ونحن قد كنا نود ان لا يحدث هذا •

(8)

ويبدو ان احمد شيبان ، كما يزعم في مقدمة « مع حمار الحكيم » ، هو الذي اوحى الى حوحو ان يحاكي بعض ما جاء في كتاب توفيق الحكيم ليكتب شيئا جديدا على نمطه • فهل ينبغي ان تلقى التبعة على شيبان الذي امر ، أو على حوحو الذي استجاب واطاع ؟

فقد كان ينبغي لحوحو ان لا يقلد الحكيم على ذلك النحو السافر، فليس في الجزائر يومئذ الا الشقاء والدموع • والطرق الى معالجة مثل تلك المشاكل كثيرة ، والاساليب لتناولها مختلفة متنوعة ، فقد كان حوحو يستطيع ان يجعل عوض الحمار الذي تناوله الحكيم حيوانا اخر ، بالرغم من اننا نعترف بان الحمار لبلادته ، قد يكون احلى الحيوانات في هذا الباب •

وعلى ان الحكيم لم يبتكر الفكرة ابتكارا ، فهي قديمة قدم الاداب الانسانية : فقد وردت في آداب الهند والفرس ، والعرب • ثم جاء « لا فونتين » الشاعر الفرنسي الذي لم يزد كثيرا على ما قال اوائل الشرقيين ، ومن غريب الامر ان اصحاب الدراسات في الادب المقارن لم ينهضوا الى اليوم بهذا الموضوع الممتع ، فيقارنوا بين حكايات لافونتين، وكليلة ودمنة •

واذن فالحكيم لم يأت بشيء جديد ، وانما عرف كيف يستغل فكرة قديمة فاخرجها في ثوب جديد • اما حوحو فقد كان قاصرا عن ذلك ، فجعل بطل احاديثه نفس الحمار الذي كان توفيق الحكيم قد اتخذه لاحاديثه بطلا ، فاذا ما يكتب حوحو وكأنه استمرار مكشوف لما كان الحكيم قد كتب •

(9)

ومن الحق ان المشاكل التيعالجها حوحو او أثارها مع حمار توفيق الحكيم هنا في الجزائر ، ليست هي نفس المشاكل التي كان الحكيم اثارها مع هذا الحمار هناك في مصر • فان المشاكل التي عالج حوحو جزائرية بحتة •

واذن ، فما أسلفنا من طعن في اختيار حوحو لحمار الحكيم بطلا ، لا يضير حوحو ولا ينقص من عمله الادبي ، اذ وفق توفيقا عظيمـا فـي تصوير الحياة الجزائرية المحلية ، ووصف مظاهر العيوب فيها وصفا بارعا. واذن فقد استطاع حوحو ان يطرس ادبا جزائريا عاليا ، يضاف الى ما لنا من تراث ادبي ، فنعتز به كل الاعتزاز .

اما الخطة التي درج فيها حوحو في حمار الحكيم ، فانها خطة تشبه ان تكون مقامية . فالبطلان هما هما في كل جلسة وفي كل حديث . فهل نعتبر هذه الاحاديث الحمارية في عداد الاقاصيص ، أو في عداد الاحاديث ونستريح ؟

وهذا نموذج من هده الاحاديث التي كتبت على صورة قصص او مقامات مسلسلة . يقول حوحو :

انتهيت من مطالعة لذيذة لكتاب « حماري قال لي » لتوفيق الحكيم، واستلقيت في مقعد مريح بعض الشيء ، مريح بالنسبـة الي ، انـا الذي قضيت ثلاثين حجة من حياتي بين مقاعد الدراسة ومقاعد العمل . وكلهـا لا تمت الى الراحة واللين بصلة قريبة ولا بعيدة .

ثم استغرقت في تفكير عميق محاولا هضم ما قرأت ، وما هي الا دقائق حتى أغفت عيناي ، والقى علي الكرى رداء اسود خفيفا ، ورأيت فيما يرى النائم اليقظ حمارا صغيرا لطيفا تبدو عليه علامـات الذكـاء والفطنة ، يطل علي برأسه من وراء مقعدي ، فعرفته على الفور دون اشكال او عناء ، فقد كان حمار توفيق الحكيم برأسه ورجله .

فقلت له :

ــ انت حمار الحكيم ؟ فقد عرفتك . فافترت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة عريضة وقال :

ــ عرفتني هكذا بسهولة دون اشكال ؟

قلت : نعم ، فان معالمك لم تخف علي .

قال : فانا مشهور اذن في بلادكم ؟

قلت : دون شك . ومن يجهل حمارا فيلسوفا مثل حضرتك ؟

حرك الحمار الفيلسوف اذنيه الطويلتين ثم قال :

ـ انك لم تخطىء ، فقد لاحظت كثيرا من الحمير يتمتعون بشهرة كبيرة في هذه البلاد •

قلت : وما سبب هذه الزيارة يا ترى ؟

قال : استدعيت خصيصا لاغني في محطة الاذاعة الجزائرية •

قلت : تغني في الاذاعة ؟ يا للعجب •

قال : وما وجه العجب ؟ فان صوتي جميل • فهل تريد ان اسمعك شيئا مجانا دون مقابل ؟

قلت : لا ، لا • لا عدمت برك واحسانك ، ولكن اليس صوتك هو الذي ذكره الله في القرآن ؟

فكشر الحمار المطرب عن أسنانه ضاحكا ثم قال :

ـ سوف لا تخسر شيئا ، فان لم يعجبك صوتي وفني ، فما عليك الا ان تدير لولب الجهاز بعنف كما اعتدت تفعل •

واردت ان اغير مجرى الحديث خوفا من ان يذهب به الحماس الى رفع عقيرته بالغناء ، فقلت له :

ـ كيف فارقت صاحبك ؟

قال : من تعني ؟ توفيق الحكيم ؟ فقد ضقت ذرعا بهذا الرجل ، لاني كلما وضعت برنامجا اصلاحيا الا وقام بافساده علي •

قلت : رغم سداد آرائك ، فانك لن تجد من يهضمها غيره •

ـ وهل حقيقة اعجبتك آرائي ؟

ـ نعم وجدتها سديدة •

ـ هل تريد ان اوحي اليك بشيء من فلسفتي ؟

قلت له : انت حمار مصري ، وافكارك مصرية جريئة ، والحال عندنا غير الحال عندكم • واني اخشى ان لا تقوى معدنا المكدودة على هضمها •

قال الحمار الفيلسوف :

ـ لا ، لا ••• انك تبالغ ، وما عليك الا ان تشرح لي اية مشكلة من مشاكلكم ، وسافيدك برايي السديد فيها •

قلت : ان مشاكلنا كثيرة ، وحياتنا معقدة ، ولكن لا بأس ، اي

موضوع تريد ان نبحث ؟

ـ اقترح انت الموضوع •

ـ لا ••• اقترح انت •

ـ قال بخبث : انك تحترس كثيرا ، فلنتكلم في السياسة •

قلت : دعني من السياسة ايها الحمار السياسي ، انها لم تنضج بعد في بلادنا • ولا زالت تعتمد على المصالح الشخصية ، والحزازات الفردية، اكثر من اعتمادها على المبادىء والافكار ، والمصلحة العامة ، وانا لا اريد ان الطخ نفسي باوحالها •

حك الحمار قذاله برجله ، وقال :

ـ هل تريد ان نطرق موضوع المرأة ؟

ـ كن مرتاحا من هذه الناحية ، فلا وجود للمرأة في بلادنا •

ـ عجبا تعيشون بدون نساء ، وكيف تتناسلون ؟

ـ قلت : لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا •

قال : هذه مشكلة عويصة دعنا من هذه ، فلنبحث في الفقه فان لي آراء جديدة فيه لا تخلو من فائدة •

ـ ارى ان تحتفظ بها لتحدث بها فقهاءنا علهم يستفيدون منك شيئا جديدا •

ـ لنتكلم اذن في الدين •

ـ دين مـــن ؟

ـ الدين الاسلامي •

ـ اعلم ذلك ، لكن دين الحكومة ام دين الشعب ؟ الدين الرسمي ام الدين الحر ؟

ـ عجبا ، وهل لكم اديان عديدة ؟

ـ دينان فقط • دين تشرف عليه الحكومة ويحرسه رجالها مـــن موظفي المساجد والطرق ، ودين حر يعتقده الشعب ويتزعمه رجال الاصلاح فيه •

ـ قال : والتعليم ؟

قلت : هناك التعليم الرسمي ، وهو مبني [1] على قاعدة فلسفية عميقة وغامضة في نفس الوقت ، وهي : تعلم لتجهل ...

قال : عجبا ، يتعلم ما ذا ؟ ويجهل ما ذا ؟ فاني لا اكاد افهم شيئا .

قلت متضجرا : وأنى لك ان تفهم فلسفتنا العميقة ؟

ثم اردفت قائلا :

ـ واما التعليم الحر فان له لجنة عليا ، تستطيع ان تتصل بها لتقدم لها آراءك ومقترحاتك .

قال : وهل يروقك حديث الادب والفنون ؟

ـ لا ادب لدينا ولا فنون ، ولا صحافة ، ولا هم يحزنون .

فضحك بملء فيه ، وقال :

ـ انك لرجل متشائم ، لكن لا بد من طرق أي موضوع ، فلنتكلم في الاقتصاد .

قلت : اما رجال المال والتجارة فانهم لا يضيعون اوقاتهم المادية الثمينة في قراءة مهاتراتنا ، واما القراء فانهم لا يملكون ما يشترون به ما يريدون مطالعته ، وهم في غنى عن خبرتك الاقتصادية .

قال : لقد اعياني البحث . اقترح انت موضوعا شيقا نتباحث فيه مليا .

قلت : اختر بين موضوعين : الفقر والجهل .

قال مشمئزا : ان فلسفة الحمير فلسفة راقية لا تتنازل الى هذه الاشياء الحقيرة ، ثم القى نظرة خاطفة على ساعته الرجلية ، وصاح .

ـ لقد حان وقتي ولم نصل الى نتيجة ، فاستودعك الله والى اللقاء .

واستيقظت من غفوتي ، وبحركة آلية فتحت جهاز الراديو ، واذا بصوت مزعج ينطلق منه ، وسمعت ابني يقهقه على مقربة مني وهو يردد :

ـ حمار عجيب .

قلت : من ؟ حمار الحكيم ، هل هو الذي يغني ؟

---

(1) في الاصل : « فني » . وهو لفظ لا معنى له في هذا المقام ،والظاهر انه خطأ مطبعي لم يصحح في طبعة قسنطينة الوحيدة (١٩٥٣) والصواب ما اثبتناه .

قال متعجبا : حمار يغني ؟ ... واراني كتاب « حماري قال لي » الذي كان يطالعه [1] .

(10)

تحليل هذا الحديث القصصي :

ان اول ما نلاحظ في هذا الحديث القصصي روح التشاؤم البادي في كل مكان منه .فلا الأدب ولا السياسة ولا الصحافة ولا المرأة ولا شيء من هذه المقومات التي تتشكل منها المجتمعات الراقية كان للجزائر منها حظ ضئيل او خطير . فالاجنبي الذي يجهل النهضة الجزائرية المعاصرة ، يتوهم بعد ان يقرأ هذا ، ان الجزائر كانت ظلاما وجهلا وتأخرا ، وانحطاطا وبؤسا . ونحسب ان هذا ضلال مبين . وانما هو التشاؤم وثورته : فقد كان حوحو يود ان تكون الجزائر افضل مما كانت عليه في جميع الجوانب سواء اكانت فكرية ام اجتماعية ام سياسية ، وهذا كل ما في الامر . كقول قائل منا اليوم : هل لنا ادب ؟ او هل لنا كتاب ؟ او هل لنا ديمقراطية ؟فكل شيء من هذا موجود اليوم في الجزائر ، ولكن الثائرين من الكتاب يريدون ابدا اكثر مما يكون ، ولا يرضون بالحالة الراهنة في سائر الاحوال . وهو مبدأ من مبادىء الحياة الطماحة .

(11)

ان هذا الحديث القصصي ممتع شيق فيه كثير من عناصر الخيال والابتكار والجرأة في نقد المشاكل ، وهو يستميز بدقة التصوير ، وروعة التحليل للمشاكل والاحوال التي كانت قائمة في الجزائر على عهد حوحو، كما يستميز بالاسلوب الخفيف ، والسخرية المرة ، والدعابة الحلوة والتهكم الحاد العنيف .

ومن الامثلة على مواطن التوفيق في هذا الحديث قول حوحو :

« ... حمارا صغيرا لطيفا تبدو عليه علامات الذكاء والفطنة » .

وقوله :

---

(١) احمد رضا حوحو : مع حمار الحكيم ،المطبعة الاسلامية الجزائرية بقسنطينة : ص ١٢ ـ ١٧ .

« فافترت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة عريضة » • فان هذين التعبيرين يشتملان على سخرية مرة ، وتهكم عنيف ، بالرغم من ان هذا التعبير مبتذل يعرفه الناس جميعا ، وانما الروعة تأتي اليه من كون الحمار يضحك ، وتفتر شفتاه وهما غليظتان ، عن ابتسامة عريضة •

اما حين يقول : « استدعيت خصيصا لاغني في محطة الاذاعة الجزائرية » ، فانه فضح جميع المغنين الجزائريين ، وغير الجزائريين ، الذين ينبرون الى الغناء واصواتهم تشبه اصوات الحمير المنكرة •

ونحن لم نر كلمة قيلت في الاذاعة الجزائرية ووصفها على ذلك العهد المظلم ، ابلغ من كلمة حوحو هذه : فقد كانت تلك الاذاعة هولا هائلا لا يطاق ، وشرا شريرا لا يحتمل ، وعارا مخزيا يندى له جبين الانسان الواعي •

ونحن نحسب ان القائمين المستعمرين بامر تلك الاذاعة ، كانوا يغرون الغربان بالغناء والتطريب ، ابتغاء قتل الشعور الحي في نفوس الجزائريين ، وكانوا ياتون ذلك باسم الفن الشعبي ، او الاندلسي ، وما هو بالفن الشعبي ولا الاندلسي ، وانما هو مصيبة ابتلانا بها الله ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما يزعمون •فالفن جزء من حياة الامة الفكرية ، والنفسية ، والوجدانية ، ولو جئنا نبحث في امر الامة الجزائرية لوجدناها ثائرة حية شديدة الحماس قوية الانفعال ، فهل كان ذلك الفن — واخشى انه لا يزال موجودا — يعبر عن شعورها العنيف • اللهم ، لا ، ثم لا • فهذا الغناء الذي لا نبرح نسمعه الى اليوم صبحا ومساء ، وليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، لا يعبر عن مشاعر الانسان الجزائري الثائر المتحرر القوي العنود المتمرد الجبار ، المتطلع ابدا الى حياة امثل ، وانما هو غناء يصدر عن قوم يمثلون اهل القبور • ولا يصلح غناء اهل القبور الا لمن في القبور •

ونحن لا نمتري في ان الاستعمار القذر هو الذي حملنا هذا البلاء ، وجشمنا هذا العناء ، ثم مضى لشأنه بعد ان طرد شر طردة عرفها تاريخ الاستعمار ، اذ لو كان يشجع الاصوات الجميلة ، والحركات الخفيفة والانغام الندية ، والالحان المرحة ، لما آمن ان يكون ذلك مدعاة لانفجار

ثورة عارمة . ولكن هل اجداه ذلك فتيلا ؟ فقد انفجرت الثورة قوية عنيفة بالرغم من هذه الاصوات الخائرة الهزيلة ، وبالرغم من هذه الدقات المريضة التي يدعونها ، خطأ ، انغاما موسيقية .

فعسى ان تتطور الموسيقى تطورا يواكب تطور التعليم والاقتصاد والمجتمع في وطننا .

(12)

وفي قول حوحو : « واردت ان اغير مجرى الحديث خوفا من ان يذهب به الحماس الى رفع عقيرته بالغناء .. » شيء كثير من التوفيق ، وحظ عال من اجادة الادبية . وهي فكرة اشبه ما تكون بما اورد الجاحظ في البيان والتبيين ، من أن انوك كان يغني بدانق ، ويسكت بدرهم .

(13)

وعلى ان حوحو لم يسلم من بعض الهنات التي لا تكاد تبرأ منها اقلام الرجال . والذي يقرأ احاديثه هذه يقتنع بان معرفته النحوية كانت رقيقة . فان المعرفة بالنحو يجب ان تكون في مستويين : اما اذا كان المرء صحافيا ، او معلما ، او شيئا من ذلك فلا عليه ان لا يلم بالضوابط الدقيقة العميقة ، وان لا يتقنها ، اما اذا كان كاتبا منشئا ، فلا مناص له من دراسة كتب النحو المطولة المعمقة ، ليأمن الزلل والعثار . بل اننا وجدنا حوحو قد صرف ما لا يصرف حين قال : « والقى علي الكريم رداء اسودا » [1] ، مع انه من الصرف ممنوع . وهذا مما لم يذكر في جدول الخطأ والصواب الذي وضع في نهاية الكتاب مما يدل على انها سقطة من حوحو او سهو ولكنه شنيع .

وقد قال حوحو ايضا : « انا الذي قضيت ثلاثين حجة » ، والوجه الفصيح الذي يصطنعه الفحول هو : « انا الذي قضى ثلاثين حجة » .

وقد قال ايضا : « ولا زالت تعتمد على المصالح الشخصية » ، وهو خطأ شنيع يجري على اقلام الذين لا يعرفون العربية . لان « لا » اذا

---

(1) وقعت هذه العبارة في صفحة : ١٢ من « مع حمار الحكيم » . وقد فاتنا في كتابة النص ان ننبه على هذا الخطأ في موضعه ، وقد اصلحناه ، وها نحن نبهنا عليه هنا .

اتصلت بـ « زال » في الماضي ، تعني الدعاء له او عليه ، لا النفي ، وانما الوجه ان تصطنع « ما » ، فيقال : « ما زالت » . فقد قال ذو الرمة :

الا يا آسْلَمِي يا دارَ ميَّ عَلَى ٱلبِلَى
ولا زَال مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكَ القَطرُ[٢]

وقد قال رجل من بني حنيفة في مسيلمة الكذاب :

سموت بالمجد يا بْنَ ٱلْأَكْرمِين أباً
وَأَنْتَ غَيْثُ ٱلْوَرَى لازِلْتَ رَحْمَانَا[٣]

وهناك مواطن اخرى وقعت فيها هنات ايضا غضضنا الطرف عنها مروءة ، فليس من الحق على الناقد ان يكون شريرا يتتبع كل سقطة .

(14)

فان غادرنا جانب النحو الذي لا يبرح يشقى بالكتاب الفطاحل انفسهم ، بله الذين يحتكرون الصحافة ويحترفون الاخبار ، ومضينا الى جانب التعبير او الاسلوب وجدناه سليما في احاديث حوحو هذه . بيد ان هذه السلامة لم يصاحبها التوفيق طول الطريق ، فانت تستطيع ان تلاحظ مثلا ان تعبيرا مثل « سوف لا تخسر شيئا » ، تعبير غير مستقيم لدى الحذاق ، لان « سوف » يراد منها تحويل معنى المضارع المثبت الى المستقبل ، ولا علينا ان يكون هذا المستقبل قريبا او بعيدا ، وان كان النحاة يزعمون بدلالتها على المستقبل البعيد الخالي من التهديد والتهويل. فاذا نفي المضارع فمن الخير ان يقال : « لن تخسر شيئا ... » اما ان يقال « سوف لا تخسر شيئا » ، فان ذلك مما لا يستقيم لان سوف تدل على المستقبل ، ولا تدل على النفي ، وجمعهما معا في مكان واحد يعني نفي

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٤١٨/٦ القاهرة .

(٢) الكشاف في التفسير للزمخشري : صفحة ٧ من الجزء : ١ . وقد قال شارح شواهد الكشاف ، وهو الشيخ محمد عليان : « ولا زلت رحمانا: دعا بدوامه رحيما عليهم » (كشاف : ٧/١ ذيل رقم : ١) .

المستقبل . وقد نعلم ان لا انما تنفي في الحاضر ، وانما نفي المستقبل يتم بـ « لن » :

وشيوع هذا التعبير على اقلام بعض عجزة الكتاب لا يعني استقامته وسداده .

اما هذا التعبير والذي نصه على لسان الحمار :

« عجبا يتعلم ماذا ؟ ويجهل ماذا ؟ فاني لا اكاد افهم شيئا » ،فنحن والله ايضا لم نفهم شيئا منه . فعلى من ، او علام يعود الكلام في قوله : « يتعلم ماذا ؟ » فهل على انسان ؟ او على حيوان ؟او على شيء من الاشياء؟ انا لا ندري ، ولا نجد مكانا صالحا في الجملة السابقة لنعيد الضمير المستكن عليه . فان كان ذلك ضربا من الالتفات ، فقد ساء في هذا المقام وقلق به المكان قلقا شديدا .

ثم ان تأخير الاستفهامات مما لا يروق . فأفصح الكلام ان تتصدر ادوات الاستفهام الجمل .

(15)

وقدر ما وردت بعض التعابير في هذا الحديث القصصي ، حارة حية نابضة قوية ، فيها اكسير الحياة ، قدر ما وردت تعابير اخرى فاترة خائرة، لا تكاد تعني شيئا ، ولا تعبر تعبيرا قويا عن المواقف التي تتناولها .

ولنضرب مثلا للصنف الاخير بمثل هذا التعبير ، الذي كان جوابا على سؤال الحمار :

هل اعجبتك آرائي ؟

ـ « نعم وجدتها سديدة » . فان هذا الجواب بارد ثقيل ، لانه لم يستطع ان يحرك نفس القارىء ، ولم يؤثر فيه التأثير المطلوب لينفعل بمحاورة حوحو والحمار .

وعوض ان اركب الصعب والذلول ، لادلل على برودة هذا التعبير، اسوق شاهدا اخر وهو قديم ، يحضرني في هذا الموطن ، فانه قد يعطينا موازنة واضحة بين التعبيرين ، في حوارين متشابهين الى حد ما . فقد قال بديع الزمان الهمذاني على لسان احد ابطال مقاماته ، وهو تاجر بغدادي ثرثار كان يحاور ابا الفتح الاسكندري :

للتاجر :

ـ كم تقدر يا مولاي ، انفق على كل دار منها ؟ قله تخمينا ، ان لم تعرفه يقينا •

قلت : (ابو الفتح الاسكندري) :

ـ الكثيــر !

فقال : يا سبحان الله ، ما اكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ؟

وتنفس الصعداء وقال :

ـ سبحان من يعلم الاشياء [1] •

فانظر الى دقة التصوير النفسي ، وروعة التحليل التصويري عنـد البديع ، فهو يجري قصدا على لسان بطله الاسكندري هذا التعبير البارد، الذي لم يكن التاجر يريده ، لانه كان في معرض الفخار له بداره الفخمة التي كانت تقع في اشرف مخال بغداد ، ليعقبه بتعبير حار جار على لســان البغدادي الثرثار :

ـ يا سبحان الله • ما اكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ؟

فكأن لفظ « الكثير » بالقياس الى هذا التاجر البغدادي فقد مدلوله المعروف فلم يعد يدل على الكثرة الكثيرة التي يريدها للتعبير عن غلاء ثمن داره وارتفاع قيمتها في الاسواق ، وكأن البغدادي كان يريد من ابـي الفتح الاسكندري ان يصطنع له تعبيرا آخر اكثر وضوحا ، واقوى دلالة كتعبير الارقام مثلا ، فيقول : « ثلاثة آلاف دينار » ، او نحو ذلك •

اما ان يجيب حوحو الحمار ، وهو في معرض السخرية والتهكم منه:

ـ نعم اعجبتني ، فان ذلك لم يؤد المطلب المراد على النحو الاكمل •

والكتاب يوهبون التوفيق في مواطن فيبدعون ، ويحرمونه في مواطن أخرى فيسفون ويضطربون •

(16)

وقد استقبل القراء احاديث حوحو هذه استقبالا حسنا في الجزائر • وقد تواردت على المؤلف رسائل منها ما يستفسر ، ومنها ما يستزيد ،ومنها

---

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني : (المقامة المضيرية) صفحة : ١٠٧ بيروت .

ما يستنكر ، ومنها ما يبدي فيها اصحابها الاعجاب والعُجب والعَجب جميعا . وقد كتب حوحو مقالا بعد هذه الرسائل الكثيرة التي انهالت عليه من كل صوب ، يقول :

ما كادت هذه الشخصية الفذة تبدو في عالم الصحافة والادب ،وتظهر في دنيا السياسة والمجتمع ، حتى تساءل بعض الناس في حيرة ، وتساءل بعضهم في فضول ، فمن قائل : اي شيء هذا اللون الجديد من الرأي والفكر ؟ ومن قائل : متى كان للحمير آراء في شؤون بني الانسان ؟ ومتى اصبح للحمير احكام عن البشر واخلاق البشر ؟ ولم اجد بدا ازاء كل ذلك من ان اعرف بصاحبي ، وان اشرح امره للقراء ، وان القي مسؤولية آرائه وأفكاره واحكامه على عاتقه ، يتحمل وحده تبعة سخط الساخطين ،ويجني وحده اعجاب المعجبين ...

وكان من سوء حظي ان اتصل بي هذا الحمار من دون الكتاب ، وجاريته بعض الشيء في صراحته فجر علي مشاكل كما جرها على صاحبه من قبل .

فهذا سياسي يغضب لنقدي الخفيف للسياسة فيحاول ارغامي على توجيه هذا النقد الى حزب اخصصه او هيئة اعينها .. وهذا سياسي آخر يوجب علي اعتناق حزب سياسي اختاره والا حرم علي الكلام في السياسة ...

وليس هذا كل شيء ، فحتى المرأة ثارت ثائرتها ، وتفضلت علي بالشتم والسباب ، اللائقين بمقامي .

اما انت يا سيدتي الفاضلة ، فقد أسأت فهم عبارتي ، وأسأت كذلك تفسيرها .[1] .

(17)

ان مثل هذا الفصل الذي كتبه حوحو ليدفع به عن نفسه هجوم الهاجمين ، وليوضح فكرته في الموضوع ، دليل على ما اثار الحديث الاول

---

(1) البصائر : عدد ٦٩ (١٩٤٩/٢/٢٨) . ويلاحظ ان احاديث مع حمار الحكيم نشرت في البصائر قبل ان تجمع في كتاب خاص وتنشر في قسنطينة سنة ١٩٥٣ .

من اقاصيص « مع حمار الحكيم » في المحافل الادبية من عجب واعجاب معـا •

ويبدو انه قد شق على حوحو ان يهاجمه الناس ويطاردوه ويثوروا في وجهه ، ولو تأمل هذا الامر لوجد الناس له غير ظالمين .لان الذي يبادر بالهجوم والثورة ، لن يجد امامه الا الهجوم والثورة ايضا • ومهما يكن الشأن ، فقد نجح حوحو في استثارة ثائرات الناس وقد كانت ساكنة ،وقد وفق في ان يحرك نفوس كثير من المثقفين يومئذ في الجزائر ، فيفيقـوا مما كانوا يغطون فيه من نوم مغرق عميق •

(18)

ومن الحق ان الحديث الاول الذي حاولت تحليل بعض جوانبـه في هذا الفصل ليس ، ينبغي ان يعطينا الصورة الحقيقية عن كتاب حوحو : مع حمار الحكيم ، فانما هذا الحديث كان عبارة عن مقدمة للمواضيع التي كان حوحو ينتوي معالجتها في هذه الاحاديث القصصية الطريفة • فهـي خليقة ان تقرأ كما هي مجموعة في مصدرها •

٢ ـ صاحبة الوحي وقصص اخرى :

(19)

يضم هذا الكتاب مجموعة من الاقاصيص التي كان حوحو يعالج فيها مشاكل ادبية او اجتماعية وغيرها • يقول حوحو في شأن هـذه الاقاصيص في مقدمة كتبها في صدر الكتاب :

كتبت هذه الاقاصيص في فترات متباعدة ، وفي ظروف مختلفة ،وذلك لاني لم الجأ الى الخيال اغرف من منهله الزاخر ، واحلق في اجوائه الرحبة، وانما توجهت الى الحياة فانتزعت من صميمها هذه الوقائع التي عرفت بعض ابطالها وعشت معهم ، واستمعت الى احاديثهم • ولا يزال البعض منهـم احياء يواصلون سيرهم في منعرجات الحياة ، بينما انتقل الاخرون الى عالم الراحة الابدية •• ولم يتركوا في هذه الدنيا سوى هذه الذكريـات الحبيبة الى نفسي ، التي اقدمها للقراء • وسيجد فيها السعيد المغرور بملاذ الحياة وزخرفها متعة ، ويجد فيها البائس الواقف على زيف الحياة وشقائها

سلوى، وساجد انا في متعة هذا ، وسلوى ذاك ، خير العزاء [1] .

(20)

يتبين لنا من هذه المقدمة القصيرة ان حوحو كان شديد التشاؤم ، ساخطا على الحياة ، وكان يرى من اجل ذلك زخرفها غرورا ، وابتسامها خداعا ، وسعادتها زيفا ، كما يتبين لنا ايضا ان حوحو لم يعول في تدبيج هذه الاقاصيص على الخيال قدر ما عول على الوقائع الاجتماعية يستمد منها عناصر افكاره . ثم انه لم يكتب اقاصيص « صاحبة الوحي » جملة واحدة ، وانما كتبها في ازمنة متباعدة ، وظروف متباينة .

وهو الحق ، فقد رأينا حوحو نشر اقصوصة « فتاة احلامي » في مجلة « افريقيا الشمالية ». سنة تسع واربعين [2] ، وهي احدى الاقاصيص الواردة في كتاب « صاحبة الوحي » الذي نشر سنة اربع وخمسين . وقد اشتمل « صاحبة الوحي » على تسع اقاصيص ، مصدرة بصاحبة الوحي التي سمي الكتاب بها ، من باب اطلاق الجزء وارادة الكل .

---

(1) احمد رضا حوحو : صاحبة الوحي وقصص اخرى : صفحة ٣ (المقدمة) قسنطينة : ١٩٥٤ .

(2) مجلة افريقيا الشمالية : العدد الرابع ، ماي ١٩٤٩ ص : ٢١-٢٦

نموذج من اقاصيص صاحبة الوحي لحوحو

فتاة احلامي

كان زملائي في الجامعة شديدي الولوع بمغازلة الحسان، تلك المغازلات البريئة في الشوارع أيام الاحاد ، وفي دور الصور المتحركة ، حتى اذا ما اقبل المساء بظلامه الدامس . انطلقنا الى الجامعة منهوكي القوى من تعب التجوال والركض في جميع احياء المدينة ، حيث نجلس على المائدة تتناول طعام العشاء في ضوضاء وجلبة ، اذ يغدو كل منا يقص مغامراته ويطري خططه ومناورته لاقتناص الفتيات بعد ما يضيف اليها ألوانا من الخيالات يقتبسها غالبا من أقرب فيلم سينمائي شاهده •

وكنت الوحيد من بين الطلبة الذين يصغي بامعان الى مغامرات زملائه ، دون ان يستطيع مشاركتهم في احاديثهم وعجبهم وزهوهم ، وكنت اجد في ذلك آلاما وحسرة ، ولكن ماذا عساني ان افعل ، فان الحظ لم يسعفني ولو مرة واحدة بفتاة تفسح امامي مجالا للكلام ،والفخر والزهو امام زملائي ، حتى اني كنت عندما أسأل عما لاقيته من مسرة في هذا الاحد افر مسرعا اخفي خجلي وخمولي بعيدا عنهم ، واندب حظي العاثر •

وكنت ايام الاحد ، وهي الايام الوحيدة التي يفسح فيها لطلبة القسم الداخلي بالخروج تمر سراعا بدون جدوى • فكنت كل يوم الاحق ذي من بعيد ، واطيل النظر الى هذه حتى اذا ما رشقتني بنظرة عابرة فررت مضطربا مرتجفا • فهل كنت اخشى المروءة ؟ هذا ما لا زلت اجهله • والحقيقة اني لم اكن شابا جريئا مثل زملائي ،وان كنت ابدو ظريفا وشديد التأنق • ومعظم ما كنت افعله ، وهو ما كنت اسميه ملاحقة الحسان ، هو ان اعرض نفسي للفتيات ، كأنني بضاعة بائرة • واقف في طريقهن منتظرا ان تعثر في احداهن فتلتقطني وتجعل مني « دون جوان العصر » • ولكن ويا للاسف طال انتظاري دون ان اجني اية فائدة ، وخيل الي ان جميع فتيات المدينة الجميلات منهن والدميمات ، أضربن عن مغازلتي ، وابرمن اتفاقا بذلك ••

كنت لا افتر من التفكير في « فتاة احلامي » • وكثيرا ما يمر الدرس باكمله ، وانا غارق في بحور الاحلام ، شارد الفكر ابحث عنها في

عالم الخيال الفسيح فلا اجدها ، ولا اهتدي اليها ، وحصل لي مرارا ،وانا على المائدة ، ان استغرق في تفكير عميق ، واغدو اضع الخطط والمناورات لاقتناصها ، حتى اذا ما استقر رأي على الخطة الناجحة ، وارتحت اليها وازمعت تنفيذها يوم الاحد المقبل ، واقبلت على الطعام بسرور وشهية ، لم اجد في الصحن شيئا اذ اقتسمه زملائي والتهموه ، وغدوا يطرون قدرتي على التعمق في التفكير ،ويخلعون علي القاب الفيلسوف بسخاء ،ويؤكدون ان الفلاسفة يتغذون من ثمرة افكارهم ، فاقوم خاوي البطن ،واصبر على مضض الى ان تحين وجبة العشاء ••• ورغم هذه التضحيات العظيمة التي كنت ابذلها في سبيل خططي ، لم اقو ولو مرة واحدة على تنفيذ احداها ، فقد كانت تخونني الشجاعة وتنقصني الجرأة دائما وابدا •

كانت تشاركنا في حياتنا الداخلية في الجامعة آنسة عانس تدعى « بولوني » تخطت عتبة الشباب منذ امد بعيد ، ومسحت السنون من نظرتها فلم يبق منها الا اثر ضئيل • وكانت هذه الفتاة العجوز تقوم بحراسة الباب ، وقرع جرس التوقيت ،وتعرض في اوقات فراغها اصنافا من الحلوى الرخيصة والشكولاته حيث تضعها على نافذتها المطلة على فسحة الجامعة، فنلتف حولها اوقات الراحة نبتاع من حلوياتها وناخذ عنها دروسا في اقتناص الحبيبات ، وكيفية المجاملات ، والتحدث اليهن ، وكانت الانسة « بولوني » أشد الناس سخرية مني ومن خجلي ، وخمولي • وكثيرا ما كنت اتملقها ، فاشتري منها قطعة حلوى باضعاف ثمنها ، لأنجو من لسانها اللاذع ، وسخريتها المرة •

* * *

قصدت ذات مساء احدى دور الصور المتحركة ، واذكر تماما اني قصدتها للتسلية ، ولم اقصدها للبحث عن « فتاة احلامي » اذ بلغ مني اليأس يومئذ اشده ، وكان الاخفاق حليفي في جميع محاولاتي الفاشلة، وما كدت اجلس على المقعد الذي يحمل رقم بطاقتي حتى ابصرت بفتاة تتقدم برشاقة ، وتحتل المقعد المجاور وبدت لي ، في غسق الغرفة المظلمة الانوار ، رشيقة القد ، ولكني لم اتمكن من رؤية وجهها حيث منعني ظلام الغرفة وقبعة اللباد التي كانت تغطي راسها ، من التمعن في قسماتها •

ولكنني تخيلتها جميلة ظريفة ، او قل : رضيت بها في علاتها ، وهل يجوز لمثلي من الخاملين الخافقين ان يكون شديد التعصب في الاختيار ، مغاليا في الشروط • وما كدت أقنع نفسي بان هذه فتاة احلامي ، حتى اخذ قلبي يخفق بشدة • وكدت أيأس عندما تبينت هندامها ، اذ كنت اعتقد ان الفتاة التي لا تغالي في التجمل هي ابعد النساء عن المغازلات ومبادلة الحب •

وبدأت الصور تتحرك على الشاشة • وكانت تمثل رواية غرامية • وما لبثت ان استهوتني هذه الرواية حتى نسيت نفسي ، ونسيت فتاتي ، وما يجب علي من القيام به من الادوار الاولى التي تعلمتها من « العانس بولوني » حتى اني لم اشعر حينما وضعت يدي فوق يدها على المتكأ المشترك بين مقعدينا المجاورين [1] • ولم انتبه الا حينما احسست بضغط خفيف على يدي ، فانتبهت حينذاك ، وسحبت يدي واعتذرت بكلمات متلعثمة ، وما كان من هذه الا امسكت بيدي بقوة ووضعتها على المتكأ ، ووضعت يدها فوق يدي ، وهمست في اذني :

ــ لا تكن سخيفا ، فلا حاجة الى هذه الاعتذارات المتكلفة ، فان المتكأ مشترك بيننا : لكل منا الحق في استعماله •••

ولم استطع ان انبس بكلمة ، واخذ بدني يرتجف ، وقلبي يخفق بشدة ، حتى خيل الي ان جميع من بالقاعة يسمعون دقاته الشديدة ، واضطربت كثيرا ، ولكنني كنت سعيدا بهذا الانتصار على بنات حواء اللواتي طالما اشقينني ، ودخلني شيء من الزهو والغرور ، واخذت افكر في طريقة تعذيب هذه العشيقة المدلهة بحبي ، وتخيلتها وهي راكعة عند اقدامي تستعطفني وتطلب رحمتي •

ثم قطعت علي فتاتي حبل افكاري حيث اخذت تهمس في اذني والظلام الحالك يكتنفنا ، وتستطلع رأيي في روعة الرواية وحاولت ان اتكلم ، فلم اقو على الكلام ، وراجعت نفسي واذا بي اجدها لا تزال مضطربة وجلة •••

---

(١) كذا بطبعة قسنطينة ومجلة شمال افريقية عدد : ٤ ص ٢٤ ، والوجه ان يقال المتجاورين •

واخذت اقوي نفسي واستنجد بعزمها ، واحاول اقناعها بالغلبة والانتصار ، ولكن بدون جدوى ، فما كانت تزيد الا ارتجافا وخذلانا ..

واخيرا انتهت الرواية واشعلت الانوار ولم يستقر رأيي بعد على شيء ، وحانت مني التفاتة واذا بي اجدها قد ابتعدت واختفت وسط الجماهير المزدحمة امام مخرج الدار فلحقت بها مسرعا ، وانا ألعن نفسي وانحي باللائمة . وبعد جهد اهتديت اليها ما بين الجماهير المتناثرة في الشارع ، وما كادت تبصرني من بعد حتى ابتدرتني قائلة :

ـ ان طريقنا واحد ، انتظرني قليلا سألحق بك على الفور .. وغابت وحدثتني نفسي بالفرار ولكني خذلتها هذه المرة ، وانتظرت . وبعد دقائق رأيتها قادمة تحمل طردا كبيرا لاحظت انها تجد عناء شديدا في حمله ، ولم ار قبل ذلك فتاة رشيقة تحمل مثل هذه الطرود الضخمة الثقيلة . وما كان مني الا ان تقدمت اليها وتناولت حملها فلم تمانع ، وسرنا جنبا لجنب ، وكانت تتقدمني دائما ببضع خطوات فلم ابصر وجهها ..

قالت تحدثني : اذاهب الى الجامعة ؟

قلت : نعم . ان موعدي قد حان .

قالت : وانا كذلك .

ففهمت انها تسكن بالحي المجاور للجامعة ، وقلت لها : ساوصلك الى منزلك ، قالت :

ـ طبعا سنصل سويا .. .

ولم افهم ما تقصده بهذه العبارة .

واخيرا وصلنا الجامعة وانا لاهث متعب ، فقد وجدت مشقة وعناء كبيرين في حمل هذا العبء الثقيل ، وكنت احاول مسك انفاسي المتصاعدة خشية ان تتنبه فتاتي الى تعبي فتوصمني بالضعف . [1]

كنت انتظر ان تنحرف الفتاة ذات اليمين او ذات اليسار في طريقها الى مسكنها ولكني تعجبت كل العجب ، حينما رايتها تصعد درجات [2]

---

(١) كذا بطبعة قسنطينة ومجلة افريقيا الشمالية ، والوجه : « فتصمني بالضعف » .

(٢) كذا بالمصدرين اللذين بين يدينا ، والوجه « درج » لا درجات .

الجامعة بخفة متكلفة وتدخل ، وما كدت الحق بها حتى وجدتها فتحت باب المسكن القائم على يسار بوابة الجامعة الحديدية الضخمة ، وتقدمت نحوي فاخذت مني الطرد ، وقذفت به داخل المسكن ، واختفت وراءه وهي تقول :

ـ سامنحك غدا قطعة شوكولاته ، مقابل حملك للطرد ..

وهنا فقط انتبهت من غفوتي او قل اذا شئت من غفلتي وعلمت ان قنيصتي ، او عشيقتي في هذه الليلة لم تكن سوى العانس « بولوني » قارعة جرس الجامعة [١] .

دراسة لقصة : فتاة احلامي :

(21)

نستطيع ان نقسم هذه الاقصوصة الى قسمين اثنين رئيسيين :

فاما احدهما فعام ويتناول حياة البطل ومن كان معه من الطلاب في الجامعة ، وما كانوا ينغمسون فيه من سخافات .

واما الثاني فخاص ، ويتناول فيه حوحو مغامراته الخاصة التي كان يقوم بها في اقتناص بعض طالبات الجامعة ، او بعض الفتيات الاخريات بوجه عام .

ولكن ما شأن القسم الاول من الاقصوصة ؟ فهل هو مقدمة للاقصوصة ؟ فان زعم زاعم : ان نعم ، زعمنا له ان المقدمة لا تكون اطول من العرض في اية كتابة من الكتابات . فان نفى ان تكون من المقدمة ، وانما هي جزء منطقي يهيىء به لبقية حوادث الاقصوصة ، اجبناه بأن اقل الناس الماما بالفن القصصي ، ينكر ان يكون هذا الجزء الاول الضخم كله مما يشكل عنصرا منطقيا ضروريا لقيام الجزء الثاني من قصة « فتاة احلامي » .

ثم ان عنوان القصة نفسه يوحي بان القسم الاول منها كان من اجل

---

(١) مجلة افريقيا الشمالية : ص ٢١ ـ ٢٦ (العدد الرابع ماي ١٩٤٩ الجزائر) . ثم : صاحبة الوحي وقصص اخرى : ص ٣٠ ـ ٣٩ (قسنطينة: ١٩٥٤) .

لا شيء ، وكتب هدرا . فاذا كان حوحو انما كان يريد ان يكتب لنا سيرة ذاتية لحياته في الجامعة ، فقد كان ينبغي ان تكون طريقة عرض الحوادث أوضح ، كما كان ينبغي لحوحو ان لا يدرجها في زمرة القصص الصريحة.

هذا اذا حق لاحد من الناس ان يكتب لنا صفحات قصيرة عن حياته ليزعم لنا بعد ذلك انه كتب عن حياته ، وكشف عن اسرارها ، وحلل عناصرها .

(22)

واول ما ينبغي ان نلاحظه غموض المكان في الاقصوصة وعدم تحديده ، وما يكون لقصة ناجحة ان تدبج مجردة عن الزمان والمكان ؟ واين تضطرب الوقائع ان لا تضطرب في مكان معين ؟

فاذا كان الله قد قيض لحوحو ان يومىء الى زمان القصة ايماء خفيفا — واني أصر على ان القصة انما تتمثل في الجزء الثاني مما كتب — فان مكانها ظل مجهولا جهلا تاما . ولا تحسبن دارا للصور المتحركة ، او مطعما في حي جامعي ، مما يعتبر ان مكانا — في قواعد الفن القصصي . فاية جامعة من جامعات الدنيا كان يقصد حوحو عافاه الله ؟ واية دار من دور الصور المتحركة كان يريد في قصته ؟ فكل ارض من الارضين في الدنيا فيها جامعة ، او جامعات ، وكل مدينة ، بل كل قرية من قرى العالم فيها مثل هذه القاعات للصور المتحركة .

فانه لا مناص ، وهذه الحال ، لمن كان يريد ان يفهم حوادث فتاة احلامي ، من ان يلم بتاريخ حياة حوحو نفسها من اولها الى اخرها ، فيعرف اين كان يدرس مثلا ، وما هي الجامعات التي اختلف اليها ليستطيع ان يتفهم هذه الاقصوصة . وهذا محال .

(23)

اما فكرة الاقصوصة فهي تدور حول شاب غر خجول يتطلع الى استكشاف عالم المرأة وما يحدودق بها من مخبآت واسرار ، فهو يغامر بما أسطاع وبما لم يسطع ، وهو يجاهد نفسه جهادا شاقا ليستكشف سرا من تلك الاسرار ، او ينال منية من تلك الاماني ، دون ان يكون الله قد كتب له في ذلك توفيقا . فهو يبحث والحرمان يقوده ، وهو يعشق

والخجل يحظره ، ويجمجم لسانه ، وهو يتمنى والقدر يساوره فيشتت امانيه ، ويعبث بأحلامه العذاب ، وآماله المراح • فقد كان هذا الشاب اذن يعيش في الشقاء المبرح ،ويتجرع كؤوس الفشل والاخفاق انفاسا •

واغلب الظن ان وقائع هذه القصة كانت قد اعتورت حوحو في بعض ما سلف من عهود طلبه ، او على نحو من ذلك قريب • ولما كان اديبا قاصا فقد كان حرا في ان يتصرف في حوادث القصة ، ليخرجها في لباس قصصي يرضي الفن والذوق ، ثم يرضي من بعد ذلك القراء •

اما القراء فاننا لا نمتري في ان حوحو وفق الى ارضائهم ، واما الفن، فلا نحسب انه قد أرضاه • ولقائل ان يقول : وما شأن الكاتب بارضاء النقد والنقاد ، اذا رضي عنه عامة الناس من القراء ؟ وهذه المسألة اثيرت في النقد الادبي منذ أغبر العصور في الادب العربي ، وخير ما يذكر في هذا المقام ما كان خلف الاحمر اجاب به احد الجهلة قال له :

ـ اذا سمعت أنا بالشعر استحسنه ، فما أبالي ما قلت فيه انت واصحابك • قال له (خلف الاحمر الراوية المعروف) :

ـ اذا اخذت انت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف :انه رديء، هل ينفعك استحسانك له ؟ [(1)] •

(24)

وليس ينبغي ان تلتمس العقدة القصصية في القسم الاول الذي نبرأ من ان يكون الله قد جعل له نصيبا من فن القصص القائم على القواعد والاصول ، وانما ينبغي ان تلتمس في القسم الثاني الذي يؤلف القصة • فلم يكد حوحو يكتب الجملة الاولى في القسم الثاني من قصته ، حتى اجتذبنا اليه فكأنما شدنا بالامراس ، وربطنا الى القصة بامتن الحبال ، فنحن لا نستطيع ان نعزف عنها ، الا بعد ان نأتي على قراءتها أتيا •

انك لا تكاد تقرأ عبارة : « قصدت ذات مساء احدى دور الصور المتحركة ... » حتى تشعر بان وراء هذه العبارة خبرا ، وان بعد هذه

---

(1) محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء : ص ٨ (طبع دار المعارف بمصر) تحقيق : محمود محمد شاكر •

الجملة شأنا ، ينبغي ان يعرف • ونحن لا نتردد في ابداء اعجابنا بالتوفيق الذي صاحب حوحو من حيث المحافظة على حياة العقدة القصصية ، وقوتها الى نهاية القصة • فانت لا تعرف هذا السر الغريب الذي كان يحف بتلك المرأة التي صادفها حوحو ، او صادفته ، اثناء عرض سينمائي ، الا حين تقرأ العبارة الاخيرة من القصة •

(25)

واحمد حوحو بارع في التصوير النفسي براعة فذة ، ولعل اكبر عامل جعله يوفق في هذا العنصر الهام الذي بقدر ما تعلو نسبته في الكتابات القصصية ، بقدر ما تدنو هذه الكتابات من التوفيق ، وتتحلى بالقبول ، انما هو السخرية • والسخرية من اخصب العناصر التي تعلي من قيمة العمل الادبي ، وترقى باسلوب الكاتب القصصي الى ذروة الكمال •

ونحن لا نتردد في إن نذهب الى ان حوحو استطاع ان يصور نفسية البطل ـ ولا علينا ان يكون هذا البطل هو نفسه او سواه ـ تصويرا جعلنا نعيش قصته بقلوبنا وعقولنا ونفوسنا جميعا ، حتى اننا كنا نرسل ابتسامات وربما ضحكات من فقرة الى اخرى •

وكيف لا يبتسم القارىء من مثل قوله : « وغابت ، وحدثتني نفسي بالفرار ، ولكن خذلتها هذه المرة •• » ؟ فانها عبارة تنم عن تجربة صحيحة لشاب خجول يرى المرأة على انها كائن غريب يرهبه ويخشى جانبه • فهي عبارة تصور تجربة قاسيه بالنسبة الى مراهق لم يتكشف له عالم المرأة بعد ، فقد وقع على فتاة ، وهو لا يعرفها بعد ، وقد غبرت عنه ، وانتظرت منه ان لا يذهب عنها ، فما يصنع ؟ ايولي مدبرا وقد امكنته الفرصة ؟ فان انتظر فانما سيكلف نفسه ثقيلا من الامر ، فلا مناص له من تهيئة الابتسام، ومن تكلف التأنق في الحديث ، ومن تكلف المسير معها في الشارع على نحو خاص ، ثم من تكلف خلق مواضيع الحديث اثناء كل ذلك ، حتى لا يخيم عليهما الصمت العميق •

ولكن حوحو تشجع هذه المرة وغالب نفسه فغلبها ، وانتظر فتاة احلامه التي لم تكن في حقيقة امرها الا عانسا ، او بعبارة اوضح كانت عجوزا •

ونستطيع ان نجد شيئا من هذا التصوير الرائع في مثل قوله ايضا حين حدثته تلك العجوز في قاعة عرض الصور المتحركة ، وهو لا يدري انها عجوز من السعالي الخمس :

« ولم استطع ان انبس بكلمة ، واخذ بدني يرتجف ، وقلبي يخفق بشدة ، حتى خيل الي ان جميع من بالقاعة يسمعون دقاته الشديدة • واضطربت كثيرا ، ولكنني كنت سعيدا بهذا الانتصار على بنات حواء اللواتي طالما اشقينني ، ودخلني شيء من الزهو والغرور ، واخذت افكر في طريقة تعذيب هذه العشيقة المدلهة بحبي ، وتخيلتها وهي راكعة عند اقدامي تستعطفني ، وتطلب رحمتي » •

(26)

ان مثل هذه العناصر الغنية تكتظ بها اقاصيص حوحو بوجه عام ، وقصة فتاة احلامي بوجه خاص • سخرية من فوقها سخرية من تحتها سخرية ، كأن هذا الرجل انما كان في هذه الحياة من اجل السخرية فحسب• وكل ذلك يدل على حرارة عاطفته ، وصدق شعوره • والكاتب الذي لا يتصف في انتاجه بالسخرية والمرح ، يجب ان يكون ثقيل الظل على قرائه، شديد الوطء عليهم : يقرأونه وهم يتخيلون عبوسه ، ويتصورون دموعه، ويتمثلون أحزانه الثقال ، فاذا هو امامهم كانه حفار معتوه ، او غراب يبكي الاطلال ، او بوم يندب الايام •

وقد استطاع حوحو ان يعبر خير تعبير عن تجربة مرت به ، او مرت بغيره ، فوهب توفيقا في ذلك عظيما •

(27)

اما الحبكة الفنية التي تربط العمل القصصي الداخلي ، وتشد من بنيانه ان يتداعى ، فاننا نحسب انها لم تكن من القوة على النحو الذي كنا نرتجي • واذا لم يكن في بعض ما كتبت عن القصة قبلا ، في هذا الفصل ، مقنع ، فاني لا املك الا ان اقرر هنا ، بانه كان ينبغي لحوحو ان يجزىء القصة جزئين : مستقل بعضهما عن الاخر • فان القسم الاول الذي يتحدث فيه لنا عن جو المطعم الجامعي ، وعن حياة الطلاب ومغامراتهم بوجه عام ، لا يدخل في نطاق القصص ، ولكنه يدخل في نطاق المقالات او

المذكرات . ولذلك تفككت وقائع القصة ، وضعفت الروابط الداخلية في بنائها العام . فان ذلك انما كان سببا فيه هذه المقدمة الطويلة التي استغرقت نصف الاقصوصة تقريبا .

(28)

اما اللغة التي اصطنعها حوحو فقد كانت صالحة للفن القصصي ، لسهولتها ، وعذوبة مخارجها ، ولكنها كانت رقيقة جدا حتى ان حوحو لم يسلم من كثير من الزلات اللغويات ، مما يدل على انه لم يكن يعنى بلغته فيجيدها ويحذقها ، كما يدل على انه لم يكن يحقق الكلمات التي كان يصطنعها في المعاجم شخصيا ، وانما كان يأخذ ما كان في سوق العصر على حد تعبير الابراهيمي .

خذ لذلك مثلا قوله : « رأيتها تصعد درجات الجامعة » ، تقتنع بما ازعم . فان الدرجات تعني المراتب ونحوها ، اما المراقي التي يصعد عليها ، ان جمعها « درج » ، على وزن « فرح » . [١]

وكذلك قوله : « كنت لا افتر من التفكير في فتاة احلامي » . والوجه ان يقول : « لا افتر عن التفكير » [٢] ، لان فتر هنا بمعنى امسك .

ثم قوله ايضا : « وهل يجوز لمثلي من الخاملين الخافقين .. ؟» ، فان خفق ليس اخفق الرباعي الذي كان ينبغي لحوحو ان يصطنعه في هذا المقام ، لانه يريد الاخفاق بمعنى الفشل لا الخفقان بمعنى الوجيب والاضطراب .

(29)

احمد رضا حوحو كاتب قصصي ما في ذلك من امتراء ، وهو الى ان يكون كذلك ، اولى له ان يكون اي شيء اخر : كأن يكون ناقدا ، او مصلحا مثلا . فان طبيعته المرحة ، ونفسه الثائرة ، كانتا خليقتين بان تجعلا منه كاتبا قصصيا غنيا من الطبقة الاولى .

---

(١) انظر : اساس البلاغة للزمخشري : (درج) .
(٢) المصدر السابق : (فتر) .

كان في اسلوبه خفة لا تعدم ضعفا ووهنا ، وفي لغته عذوبة لا تعدم فقرا وارتباكا بين حين وحين . وعلى ان اللغة لم تستقم الا لقلة قليلة من الناس .

واكاد اجزم بان حوحو لو لم يسفح دمه الطاهر الفرنسيون ، لاضحى كاتب القصة القصيرة الاول في الجزائر [1] . فليس علينا ان نقرر اذن ، ونحن مطمئنون ، الى ان هذا الكاتب الشهيد يجب ان يعد رائدا للاقصوصة في الجزائر بلا منازع .

وما يشعرنا ؟ فلعل نفسه ان تكون قد حدثته يوما بمعالجة ما طال من القصص ، وضخم من الروايات ، ولكن عين الاستعمار لا تنام ، ويده الاثيمة لا تقبض .

فتبا ثم تبا لتلك اليد المجرمة القذرة التي سفكت دمه ، فحرمت الادب العربي المعاصر في الجزائر ، احد اساطينه الاقوياء ، ورجالاته النبغاء ، واحد الذين كان ينبغي ان يكون لهم في هذا الادب شأن أي شأن .

---

(1) قتل الفرنسيون احمد حوحو في ربيع سنة ست وخمسين ان لم تخني الذاكرة ، في محنة رهيبة . فهو احد اوائل الكتاب الشهداء ، ثم قتل العربي التبسي في سنة سبع وخمسين من قبل الفرنسيين انفسهم ، ولا ندري اين وضعوه بعد قتله ، فهل اكلوا لحمه الطاهر الكريم ؟ انا لا ندري ، ولكن الفرنسيون هم الذين يدرون ذلك . ثم قتلوا في ابان الاستقلال ، اي قبله بزمن قليل مولود فرعون الكاتب الجزائري باللغة الفرنسية ...



الباب الثالث

النهضة التاريخية

- مبارك بن محمد الميلي ،
- احمد توفيق المدني ،
- عبد الرحمن الجيلالي .

الفصل الأول

مبارك بن محمد الهلالي الميلي

1898 ــ 1945

(1)

نحن بازاء رجل يختلف كثيرا عمن تناولناهم ، وخضنا في شأنهم في الفصول الماضية ، فلم يكن الميلي ممن يرضون ان يقصروا نتاجهم على المقالات المختلفة ينشرونها في الصحف السيارة ، ثم لا يصنعون بعد ذلك شيئا ، وانما كان طويل النفس ، واسع الصبر ، شديد التجلد على معاناة البحث .

ويبدو ان الميلي ، رغم ميله الى الاصلاح ، واشتغاله بالاشراف على تحرير البصائر وادارتها زمنا ، كان يميل اكثر الى الدراسات التاريخية وخصوصا التاريخ الجزائري . وآيتنا على ذلك انه استطاع ان يتوج جهوده وابحاثه وقراءاته ، بتأليف كتاب في التاريخ الجزائري ، وهو : « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » [1] .

(2)

يعد مبارك بن محمد الميلي من اكابر مؤرخي الجزائر في النصف الاول من القرن العشرين وتاريخه يجب ان يعد مفخرة من مفاخر الامة الجزائرية في ذلك العهد ، لانه يدل على نشاط ابناء هذه الأمة الحية ، وعمل رجالها المستمر . أرأيت ان كثيرا من الناس كانوا يحسبون ان

---

(1) صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٢٩ ، وقد قرظه الشيخ ابن باديس ، برسالة مؤرخة بـ : ٤٧/١/١٥ هـ ، انظر تاريخ الميلي نفسه : ٧/٢ . وقد كتب ابن باديس هذه الرسالة في مساء الثلاثاء بـ « حصن الماء » من التاريخ المذكور . ثم انظر تراث ابن باديس : ٤٧/١ .

الجزائر لم تعد عربيه ، وان الفرنسية رانت عليها ، وخيمت على عقول سكانها ، وجرت على ألسنة اهلها ، حتى غدوا لا يفكرون الا بهذه اللغة وفيها ، ولا يكتبون او ينطقون الا برطانتها ، أما العربية فسلام عليها الى يوم الدين .

في حين ان الميلي بتاليفه هذا الكتاب في تاريخ الامة الجزائرية ، في تلك الظروف السود ، وفي ذلك الزمن الحالك بوجود استعمار ، دل على ان الجزائر لم تمت ، وان اهلها لم يفرطوا في ذات لغتهم ، ولا في ذات تاريخهم ، بل ان تشبثهم باصالتهم الجزائرية ازداد ، وحرصهم على دينهم تضاعف ، ورغبتهم في معرفة كل ما يمس حضارتهم او يمت اليها قد اتسعت على نحو عجيب .

(3)

ونحن نحسب ان الميلي لم يكتب تاريخ الجزائر رغبة في كتابة التاريخ ، ولم يؤلفه كلفا بعرض الاحداث التاريخية وجمع شتاتها ، وضم متفرقاتها ، وانما كتبه من اجل هدف اعلى من ذلك كثيرا . فقد نظر ،فيما يبدو ، في امر هذه الامة الجزائرية ، فوجد فيها نزوعا الى الحرية ، وآنس منها تشبثا بدينها ولغتها وحضارتها وتقاليدها ، فعلم انها مفتقرة الى كتاب في تاريخها يوضح لها هذه المعالم ، ويبين لها تلك السبل خير تبيان . لان المفكر او المؤرخ لا يأمن ان ينقلب امر الامة الى غير ما كانت عليه ، ويتغير على نحو سريع ، بفعل التأثيرات الدعائية الاستعمارية او بفعل التطور الحضاري ، فاذا ما كان الجد يراه مثلا أعلى ، ويراه الاب مبدأ مقدسا ، يراه الابن شيئا خسيسا من خرافات المخرفين ، وشعبذة المشعبذين لا معنى له على الاطلاق .

يضاف الى كل ذلك ما كان الباحثون الفرنسيون يرونه ضلالا وتضليلا ، او جهلا او تجاهلا ، من ان الرومان ، وهم غرباء ، قدموا للجزائر كل خير ، وأفادوها في كثير من النواحي الحضارية ، في حين ان العرب لم يصنعوا لها شيئا [1] .

---

(١) احمد توفيق المدني : البصائر الثانية ، عدد ٢٦ صفحة ٤ .

من اجل كل ذلك عمد الميلي مبارك الى تأليف كتابه في التاريخ الجزائري عبر عصوره ، لانه كان يعلم ان تأثير هذا الكتاب وقيمته النفسية والروحية والاخلاقية ، يكاد يساوي ثورة عسكرية قائمة بنفسها ضد الاستعمار . وعلى ان الثورة العسكرية يمكن ان تقمع بشوكة السلاح ، اما الافكار والمبادىء ، فانها لا تموت بموت اصحابها ، ولكنها تظل بعدهم حية نابضة بالحياة ، تستثير النفوس فتثور ، وتدفعها فتندفع ، وتقودها فتنقاد .

(4)

واذن ، فليست الامة الجزائرية جزءا من الامة الفرنسية ، ولا متأثرة بالوجود الروماني القديم ، واذن ، فلم تكن الجزائر ارضا بدون قانون ، ولا رعية بدون راع ، ولا شعبا بدون حاكم ، وانما كانت كغيرها من الامم : هزمت وهزمت ، وغزيت وغزت ، وشقيت وسعدت . وان ما اصابها من احتلال كان نصيب غيرها منه مثيلا ، وان ما الم عليها من إحن ومحن ، كان حظ سواها منه كثيرا .

والامم كالافراد تشقى وتسعد ، وتجوع وتشبع ، وتفتقر وتغنى . والامم كل الامم هي التي اذا اصابتها الذلة والمهانة تصبر ولا تجزع ، واذا تبنكت في العزة والابهة تتواضع ولا تبطر .

وان الاباء هو الذي يمكن لمثل هذه الامم المحتلة من ان تظل صامدة لعوادي الزمان ، متجلدة على الخطوب والهوان .

(5)

فتاريخ الميلي من هذا الوجه ، له شأن خطير على قيام الثورة الجزائرية من وجهة ، وعلى قيام حركة التأليف التاريخي وسواه من وجهة اخرى .

ولكننا لا نريد ان نذهب الان اكثر مما ذهبنا اليه ، ذلك بانه لا بد من وقفة موضوعية امام هذا المؤلف التاريخي المبكر لنرى شأنه ، ولنتناول بعض ما له وما عليه .

فلم يكن الميلي الا رجل دين وفقه واصلاح ، قبل ان يكون رجل

تاريخ من الصنف العالي . فهو لم يكن ممن يتقنون لغة اجنبية [1] .ونحن لا نزال نؤمن بان المؤرخ الذي لا يتقن لغة غربية حديثة ، ولا سيما الفرنسية او الاسبانية ، وهما اللغتان اللتان يتصل تاريخ امتيهما بنا ، باعتبار ان الاسبان والفرنسيين ممن استعمرونا بقوة الحديد والنار ، ثم كتبوا كثيرا عن تاريخنا من حيث ما يحلو لهم ويتفق مع مبادئهم التي لم تكن في معظم الاحوال قائمة على العلم ،وانما كانت قائمة على العنصرية الاستعمارية ، والمكابرة التي تنشأ عن نشوة الانتصار ، وحمية السيادة .

واذا كان الميلي قد عول على بعض أصدقائه في ترجمة بعض هذه النصوص الاجنبية التي كان يستعين بها في فهم الوقائع التاريخية وتحليلها او تركيبها [2] ، فان ذلك لا يكاد يغير من الوضع شيئا ، لان التأليف يجب ان يخضع لخطة شخصية محضة ، ولو اشترك معه بعض هؤلاء الذين ترجموا له هذه النصوص عن اللغات الاجنبية الى العربية ، مشاركة عملية في كتابة هذا التاريخ ، لكان عسى ان نلتمس له عذرا ، ولكن اولئك الذين ترجموا له لم يساهموه في مسؤولية التأليف ، ولم يتحملوا معه مؤونة البحث .

وفي مثل هذا الصنيع ما يسبب القصور والاضطراب في العمل التاريخي .

(6)

وقد عدنا الى تاريخ مبارك الميلي فحاولنا ان نقرأه قراءة منهجية بحيث كنا نسجل كل ما يعين لنا من ملاحظات اثناء هذه القراءة التي لم نكن فيها متاثرين بعاطفة ولا هوى ، وهذا بعض ما سجلنا اثناء تطوافنا في رياض هذا التاريخ :

١ ــ ان الميلي كان ينقل النصوص التاريخية التي يستشهد بها من غير ان يعين الكتاب الذي نقلها منه . كأنه كان يرى ان كل قارىء يستطيع ان يعرف مثل ما كان هو يعرف ، او ان كل باحث لا بد ان يكون قد ألم

---

(١) توفيق المدني : البصائر ، عدد ٢٦ ص ٤ (السنة الثانية) .

(٢) تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، للميلي : ٧/١ .

بمصادر كتابه التي استقى منها حتما مقضيا • ويعود ذلك ، فيما يبدو ، الى كون الذين ترجموا له ، وقد ذكرهم الميلي باسمائهم وهم ثلاثة [1] ، لم يكونوا في مستوى البحاثين « الاكاديميين » • واقول هذا لا أنال من قيمة هؤلاء الاشخاص الثلاثة الذين ساعدوا الميلي ، ولاطعنا فيهم ، وانما اقوله مضطرا لانه حقيقة يجب ان تقال بصرف النظر عن فلان او فلان • فان الحق اعلى من الاشخاص • ونحن بظاهرنا على ما نزعم في بعض هؤلاء . ان احدا منهم لم يخلف لنا بحثا جامعيا عاليا في موضوع من المواضيع • ولذلك كان هؤلاء يترجمون النصوص بدون ان يذكروا للميلي في اغلب الظن ، ارقام الصفحات التي نقلوا منها على وجه التحديد •

وعلى ان الميلي كان يذكر احيانا مراجع النصوص التي استشهد بها في كتابه ، بيد انه كان يهمل في كل حين ذكر ارقام الصفحات ، وتحديد الاجزاء • ومن لا شاهد له لا رأي له ولا حق ، فلنضرب امثلة على هذه المسألة من كتاب الميلي ، يقول :

قال بيروني : « القرن الرابع الذي سقطت فيه حكومة رومة ،والقرن الخامس الذي استولى فيه الوندال ، والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بافريقية ــ هذه القرون كانت قرون اهوال وحروب مبيدة » • ثم قال : « وقد كانت هذه القرون علة في مرض افريقية مرضا اجتماعيا واقتصاديا ، ذهبت الفنون الجميلة ، وعطلت الاراضي الفلاحية . وتنوسيت الاساليب العلمية ، وتكاثرت اللصوصية حتى صار الناس يفزعون الى الغابات ، ويختفون بالشعاب ، وتعطلت التجارة ، وخشي الناس المجاعة • » وقال مرسي : « كان المؤرخ بروكوب لما نزل افريقية مع بليسير دهش من عمرانها ، ونشاط تجارتها ، ونفاق اسواقها ، وسعادة فلاحتها • ولكن بعد عشرين عاما لم يبق شيء من ذلك ، وعم الخراب جميع افريقية » [2] •

---

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي : ١/٢٧٧ ــ ٢٧٨ (نشر مكتبة النهضة ــ الجزائر) .

فقد رأينا ان الميلي ذكر نصين اثنين لمؤرخين اجنبيين : احدهما (وهما في الحقيقة نصان اثنان ، ولكن لما كانا لمؤرخ واحدا اعتبرا بمثابة نص واحد) لبيروني Peyronnet والثاني لمرسيي Mercier ، دون ذكر لكتابيهما ، ولا اشارة الى ارقام الصفحات التي نقل منها من هذين الكتابين انفسهما .

وفي هذا العمل ما فيه من عدم الاكتراث بالمنهجية العلمية التي توجب نسبة كل شيء الى اهله على وجه التحديد الدقيق ، ليكون القارىء او الباحث على بينة من الامر فيما اذا شاء ان يعود الى اصول الفكرة التي استمد منها المؤلف ، ليتوسع في مسألة ، او يجلو عن نفسه امرا غامضا في نفسه منه شيء .

ونحن نرجع هذا الخطأ المنهجي الى احتمالين اثنين :

١ ــ جهل الميلي باللغات الاجنبية الغربية . وينشأ عن هذه العلة علة ثانية ، وهي القصور عن علم المنهجية ، وعدم التمكن من الاطلاع شخصيا على كيفية التاليف والبحث لدى الغربيين ، مع العلم بان المؤرخين القدامى بمن فيهم العرب ،لم يكونوا يحددون صفحات الكتب وانما كانوا يجتزئون بذكر المؤلف مع اهمال عنوان الكتاب نفسه احيانا كثيرة .

ونريد ان نؤكد بان الاخذ عن الغربيين في هذه المسألة لا يعد تقليدا لا معنى له ، ولكنه يعد اقتباسا علميا قائما على الافادة منه والاخذ عنه ، بحيث يكون لسائر الناس الحق في اتباعه على نحو او على اخر . ولو لم نفعل ذلك لما تقدمنا نحو الامام فتيلا .

٢ ــ ان الذين كانوا يقومون بالترجمة للميلي ــ وقد قلنا هذا منذ قليل ــ لم يكونوا في مستوى اكاديمي ، فكانوا حين يترجمون للميلي لا يبالون بذكر الصفحات وتحديدها ، مجتزئين بذكر المؤلفين وحدهم .بل ان هؤلاء ــ وكل هذا يظاهر مزعمنا ــ كانوا يترجمون له ترجمة ركيكة ضعيفة ، فكان يضطر الى تصحيحها وتنقيحها حتى تلائم اسلوبه الكتابي[1]

---

(١) انظر العدد ٢٦ من البصائر الثانية ، في مقال كتبه توفيق المدني عن الميلي .

وفي هذا التنقيح ما فيه ، لانه تنقيح لا يعتمد على المصدر الاصل مباشرة، وانما يعتمد على ترجمة الاصل التي لا نأمن ان يكون فيها شيء كثير من التنقيح الشخصي ، او قليل .

(8)

ثانيا : كان الميلي يمر بالحوادث التاريخية في كتابه مرا عجلا ، وكأنه كان يكتب على استحياء ، دون نقاش او تمحيص للحوادث كبير ، ودون تحليل او تعليل للقضايا التاريخية . وربما كان يصنع شيئا من ذلك ،ولكنك لا تكاد تجد ذلك في كتابه الا بمقدار يسير . ذلك بان الوقائع الهامة التي غيرت مجرى وجه التاريخ ينبغي للمؤرخ او الباحث ان يخصص لها عناية اكبر ، وتحليلا اعمق .

فقد نقل الاقدمون ان طارق بن زياد لما وصل الاندلس احرق السفن التي اقلت جيشه مخافة ان يطمع بعض الجبناء من هذا الجيش في الفرار والتقهقر عند ما يحمى وطيس الهيجاء ، ولكن القضية غير مسلمة لدى اهل العقل .

ولما ثبت الفتح بالمغرب أمر (موسى بن نصير) طارقا بغزو الاندلس . فتوجه اليها سنة ٩٢ في جيشين : احدهما تحت رئاسته ، نزل به الجبل المعروف باسمه الى اليوم ، والاخر تحت رئاسة طريف بن مالك النخعي ، ونزل مكانا سمي به ايضا . ولما اجتازوا البحر كسر طارق المراكب كي لا يطمع في الفرار ضعفة الصبر من الجيش . وخطب فيهم خطبته الشهيرة التي ضاعفت شجاعتهم واقدامهم . [1] .

(9)

فقد كان الميلي اذن مطمئنا كل الاطمئنان الى سلامة سير هذه الوقائع التاريخية ووقوعها على هذا النحو بالذات . فقد افسد طارق اسطوله لئلا يطمع ضعاف جيشه في الهروب ، وقد القى فيهم طارق خطبته المشهورة فضاعفت حماسهم . مع ان هذه القضية يجب ان تكون من التعقيد والاضطراب ما كان جديرا بالميلي بان يقف عندها طويلا ، ويحاول

---

(١) تاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي : ٢/٣٣ .

ان يقول في شـأنها رأيه الخاص ، وهي معقدة لبعض هذه الاسباب استخلصناها بعد التأمل واعمال النظر :

١ ــ ان في هذا الاحراق ما يمكن ان يعتبر عملية انتحارية ليس فيها خير مؤكد . وقد كان طارق مسؤولا عن سلامة جنوده ، وكان اعطف عليهم ، وارأف بهم ، من الاب بالابناء ، ومن الام بصغارها الضعاف . وذلك من أحد الاسباب التي دعت عمر الى عزل خالد بن الوليد ، وهو سيف الله المسلول ، لانه كان لا ينام ولا ينيم ...

ومن السخف ان يحرق طارق أسطوله بدون تفكير في عواقب الامر .

٢ ــ ان جنود طارق كانوا اشجع واثبت على القتال من ان يفكروا في الفرار على نحو مفضوح ، وهذه القضية تسيء الى سمعة الجيوش العربية التي اكتسحت معظم العالم القديم في اقل من قرن من الزمان ، وهي المعجزة التاريخية التي لم تحدث الا في تاريخ الاسلام .

٣ ــ ان طارقا كان اعقل وارزن من ان يفسد سفنا كانت تشكل اسطولا ينبغي ان تكون له من الاهمية والقيمة العسكرية والمادية جميعا، ما ينبغي ان يكون لكل اسطول حربي الان .

٤ ــ ان الذي يفهم من نص الميلي نفسه ، ان رئاسة الجيش لم تك لطارق وحده، وانما كان يشركه فيها طريف بن مالك . واذا كانت القيادة العامة انما كانت لطارق باتفاق المؤرخين ، فان طريفا كان قائدا مساعدا له باتفاقهم ايضا .

وقد اهمل ذكر طريف في قضية احراق السفن اهمالا كليا ، مع ان قادة المسلمين كانوا يستشيرون اصحابهم ، ولا سيما في الاقدام على امر هام من هذا الجنس ، ثم ان طريفا نفسه كان اول من مهد لفتح الاندلس . ومثل هذا القائد لا بد من ان يستشار . هذا هو منطق التاريخ .

٥ ــ ان خطبة طارق نفسها مشكوك في امرها ، لان صاحبها من اصل بربري ، والمخطوب فيهم من اصل بربري ايضا ، بل كانوا برابرة اقحاحا . ولو فرضنا ان طارقا كان قد تمكن من العربية حتى استقامت له وجرت على لسانه كما يجري الماء في الجدول ، لكان في افتراضنا هذا بعض الحق . لان طارقا كان مولى لموسى بن نصير ، وكان موسى رجلا

عربيا من اهل الشام[1] .

ولكن الذي يضعف من افتراضنا هذا ، ان جيش طارق كان يتألف في معظمه من برابرة ، وكان البرابرة حديثي عهد بالعربية لم يتمكنوا منها بعد ، ولم تسعها مسامعهم ، فكان تقبل هذه الخطبة البليغة من باب السذاجة . لان الرجل لا يخطب الا باللغة التي يفهم بها الناس .

فهل معنى ذلك ان طارقا القى هذه الخطبة بالبربرية وترجمت الى العربية ؟ أو انه القاها باللغتين جميعا ، باعتباره مولى بربريا كان يحسن العربية والبربرية جميعا ؟ أو أن هذه الخطبة القيت بلغة عربية بسيطة جدا بحيث يفهمها عنه معظم اصحابه ، ثم زاد فيها الرواة ، ونقحها الادباء ، فصارت على هذا النحو الرائع البليغ ؟

٦ ـ ان هذه الخطبة ، الى كل ذلك ، يحوم حولها الشك والاضطراب من نواح اخرى ، اذ لم يحفظ ان فاتحا عربيا كان يلقي على جنوده مثل هذه الخطب قبل المعارك ، فان في بعض ذلك ما قد يفسد الخطة العسكرية ، والخدعة الحربية ، بل اننا نعرف في التاريخ ان القادة كانوا يخططون في الخفاء والسر ، ثم يعطون الامر الى الجيش بالهجوم على النحو المبيت ، والخطة المدبرة من قبل ...

اننا لا نريد ان نقرر احتمالا او فرضا مما ذكرناه في هذا المقام بوجه ، وانما نريد ان نلفت النظر الى هذه المسألة التي ليست مما يمر به الباحث المؤرخ على نحو سريع بدون ان يتوقف ويتأمل ، فيثير الاسئلة ، ويسوق الاحتمالات ، حتى يتبين له فيها وجه الحق ، فان لم يبلغ هذا الحق ، فلا أقل من ان يكون قد أعذر .

(10)

وعلى ان الميلي لم يكن يسكت عن كل حادثة ، ويحجم عن تعليل كل ظاهرة تاريخية ، فقد ربما كان ينبري لتعليل بعض الظواهر على نحو او على اخر . ولقائل ان يقول : ان الميلي حين تحدث عن فتح الاندلس انما تحدث عرضا ، ولم يكن يعالج موضوع فتح هذه الجزيرة . ولنا ان

---

(١) الموسوعة العربية : صفحة ١٧٨١ (القاهرة : ١٩٦٥) .

نقر هذا القائل على قوله من باب درء الحدود بالشبهات كما يقول القضاة.

ومن الامثلة على ما كان الميلي يحلل من حوادث احيانا ، ما علل به قضية شيوع ظاهرة التصوف وانتشارها بين الناس في هذا العصر او ذاك، فقد قال :

وانتشار طرق الصوفية بين العامة في عصر ، دليل على تقصير علمائه في احياء كتاب الله ، وعلى ضعف الحكومة عن بسط نفوذها في الامة مباشرة ، او تقول : ان سيادة المتصوفة دليل على انحطاط الامة سياسيا وعلميا ودينيا ...

وفي القرن التاسع انتشرت بالمغرب الطريقة اليوسفية المنسوبة الى الشيخ احمد بن يوسف الهواري وطنا ، الوابودي نسبا ، الملياني وفاة . كان في حياته ممن يعتقد فيه الصلاح والخير يلقن الاسماء للعامة والنساء، وكان اشد اصحابه غلوا فيه رجلا يدعى ابن عبد الله . ادعى فيه النبوة وتابعه الاجلاف من البوادي واهل الاهواء من الحواضر .

وخشيت الحكومة الزيانية من اتساع نفوذ الشيخ ابن يوسف ،فامر السلطان بقتله او اشخاصه اليه . وكتب عامل وهران الى قائد هوارة بذلك فأبى القائد حمله الى العامل . وامره بالخروج قال ابو راس : فلما ارتحل الشيخ من وطنه قال : شوشوا علينا ، شوش الله عليهم من البر والبحر . فلم يكن الا قليل حتى أخذ الكفرة وهران ، والاتراك تلمسان . واعترض الشيخ في طريقه محاربون من سويد ، فأخذ ثلاثة احجار ، وحكها بيده فصارت رمادا ، وقال لهم : ان تعرضتم لنا يسحقكم الله مثل هذه الاحجار . فأتوه تائبين . وكراماته لا تحصى .. [1] .

واذا كان تغلب الكفرة على المسلمين كرامة ، فما هي الاهانة ؟ [2] .

(11)

فقد كان الميلي يرجع انتشار التصوف في الامة الى جهلها من جانب، والى تفريط علماء الدين في ذات العلم من جانب ثان . فكأن التصوف لون

---

(١) لم يذكر الميلي على عادته المصدر الذي قال فيه ابو راس هذا ما قال .

(٢) تاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي : ٢/٣٨٩ – ٣٩٠ .

من الشعوذة لا يشيع الا في المجتمعات التي يرين عليها الجهل ، وتلم على اهلها الغفلة والغباء . كما ان انتشاره ، في رأي الميلي ، دليل على ضعف الحكومة عن بسط نفوذها في الامة مباشرة ، فكأن التصوف من هذه الناحية يشبه التمرد الذي يسرى في أمة فلا تنقاد لحكومتها وتتمرد عليها. بل ان التصوف في نظر مؤرخنا الميلي ، دليل على انحطاط الامة سياسيا ، وعلميا ، ودينيا .

واذن فالتصوف لايعني شيوعه في امة الا الانحطاط بأنواعه المختلفة ، فكأن الرجل الصوفي جعله الله منحطا كل الانحطاط ، وهو من أجل ذلك لا خير فيه للمجتمع بحال . لانه لا يفهم السياسة ، ولا يتحلى بالعلم ، ولا يدرك مدلول العقائد الدينية ولا مبادئها الصحيحة . فالصوفي اذن اجهل الجاهلين ، واحط المنحطين .

(12)

ونحن لا نذهب مع الميلي في تعليل انتشار ظاهرة التصوف فيمجتمع ما ، وارجاعها الى الجهل والانحطاط ، فقد رأينا كثيرا من المتصوفة علماء، وكثيرا من العلماء متصوفة ، دون ان تتعارض صفة التصوف مع العلم . لان التصوف الحق لا يدعو الى الجهل ، ولان العلم الحق لا يدعو الى نبذ التصوف . فقد كان الغزالي صوفيا ، وهو حجة الاسلام ، افيكون الغزالي منحطا جاهلا لانه كان صوفيا ؟ وهل يغض من شأنه الخطير انه كان ينزع نزعة روحية صرفة مع انه كان من الفلاسفة ، او من نابذي الفلسفة .

فما التصوف الا لون من صلاة النفس لربها ، فكأنه في رأي اهله قمة العبادة .

ومفكروا الاسلام انفسهم كانوا ينظرون الى التصوف على انه علم قائم ، لا دليل على انحطاط الامة ، فقد قال ابن ابي الحديد في معرض حديثه عن فضائل علي بن ابي طالب رضي الله عنه :

« ومن العلوم : علم الطريقة والحقيقة ، واحوال التصوف . وقد عرفت ان ارباب هذا الفن في جميع بلاد الاسلام ، اليه (الى علي بن ابي طالب) ينتهون ، وعنده يقفون . وقد صرح بذلك الشبلي ، والجنيد ،

وسري [١] ، وابو زيد البسطامي ، وابو محفوظ معـروف الكـرخي ، وغيرهم • ويكفيك دلالة على ذلك ، الخرقة التي هي شعارهم الى اليوم، وكونهم يسندونها باسناد متصل اليه عليه السلام » [٢] •

(13)

وللمتصوفة الحق في ان يعبدوا ربهم على نحو ما يرون ، استنادا الى الدين الاسلامي الذي كان رؤساؤهم الاوائل اعلم الناس به ،وناهيك انهم يرجعونه الى علي الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه : « انا مدينة العلم وعلي بابها » • فمصدر التصوف من هذه الناحية هو الرسول الكريم نفسه عليه السلام ــ في رأي اهل التصوف على الاقل ــ لان عليا كـان صوفيا ، ولا يمكن ان يكون علي من ضالي هذه الامة • وهو الفقيـه البارع ، والمفتي الحاذق الذي كان يقول فيه عمر بن الخطاب كثيرا : «لولا علـي لهلك عمـر » و « لا بقيت لمعضلة ليس لها ابو الحسن » • و « لا يفتين احد في المسجد وعلي حاضر » [٣] •

وقد ذكر ابن ابي الحديد بالرواية المتصلة ان سائر ائمة الفقه يعودون الى علي ، فكل « فقيه في الاسلام فهو عيال عليه ، ومستفيد من فقهه •اما اصحاب ابي حنيفة ، كأبي يوسف ومحمد وغيرهما ، فأخذوا عن ابـي حنيفة • واما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن ، فيرجع فقهه ايضا الى ابي حنيفة ، واما احمد بن حنبل فقرأ على الشافعي فيرجع فقهه ايضا الى ابي حنيفة • وابو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام ، وقرأ جعفر على ابيه عليه السلام ••• واما مالك بن انس فقرأ على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبدالله بن عباس ، وقـرأ عبدالله بن عباس على علي بن ابي طالب • وان شئت رددت اليه فقه الشافعي بقراءته على مالك ، كان لك ذلك • فهؤلاء الفقهاء الاربعة [٤] •

---

(١) سري هذا هو سري بن المغلس السقطي ، خال الجنيد واستاذه، وهو من مشاهير الصوفية . (شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ٣٧/١ - ذيل رقم ٣) .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ٣٧/١ بيروت .

(٣) ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٣٦/١ .

(٤) المصدر السابق .

وايضا فان فقهاء الصحابة كانوا : عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن عباس . وكلاهما اخذ عن علي عليه السلام . اما ابن عباس فظاهر ، واما عمر فقد عرف كل احد رجوعه اليه في كثير من المسائل التي اشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ... » [1] .

(14)

وانما جئنا بكل هذا لندلل على ان علي الذي يعتزى اليه اصل التصوف كان افقه الفقهاء ، فكيف يتصف اتباعه بالجهل والانحطاط ؟ واذا كان علي لا يسلك إن يكون المتصوفة جميعا من العلماء الفقهاء ، فقد كان ينبغي للميلي ان يدقق في التعبير ويحتاط فيخصص ولا يعمم ، ويقيد ولا يطلق ، فان من الصوفية رجالا ابرارا علماء ،يغارون على الاسلام ويقومون باداء شعائره خير قيام . انما يضيف الصوفية الى العبادة الظاهرة المفروضة اعمالا روحية اخرى كالذكر ، والنوافل ، والقيام بالليل والناس نيام . ولا ينكر احد ان يكون القيام بالليل الذي مدحه الرسول صاحب العقيدة الاسلامية ان يكون خروجا عن الدين ، وبدعة من بدع الضالين .

فالصوفي حين يصنع ، انما ياتي ذلك مدفوعا بحب الفوز والفلاح ، يرى الاقتصار على اداء الفرائض والواجبات لونا من التقصير في حق الله . فهو يعمل كل ما يعمل المؤمن العادي ، ولكنه لا يرضى بذلك حتى يزيد زيادات ــ وهذه الزيادات جاء بها الاسلام منها القيام الذي امر به الرسول وحض عليه ــ لينال بها جزاء أوفى ، واجرا اعظم . فالواجبات والفرائض ، كما يدل على ذلك اسمها ، حين يؤديها المؤمن انما يكون قد ادى واجبا مفروضا عليه ، فهو انما قضى دينا كان عليه . وانما الفائدة والاجر والثواب فيما زاد على ذلك في التسبيح والتهليل والذكر وقيام الليل .

(15)

ولم نصدر في هذا عن جهل بالتصوف والمتصوفة ، بل اننا بلوناهم منذ الصبا المبكر ، وامتزجنا بهم ، وناقشنا شيوخهم ومقدميهم ، فلم

---

(1) المصدر السابق .

ننكر من امرهم شيئا ، ولم نجدهم في المكانة التي وضعهم فيها الميلـي من انحطاط سياسي وعلمي وديني • بل اننا وجدنا المتصوفة من العـوام افضل من غير المتصوفة منهم ، لان الصوفي يعـاهد شيخه علـى اداء الصلوات والزكاة ، وعدم الغتب ، وعدم السعي بالنميمة والوشاية بالانام• اي انه يعاهده على القيام بواجباته الدينية على اختلافها ، يضاف اليهـا المستحبات والرغائب ، فماذا ينكر المنكرون على المتصوفة من الناس ؟

ونحن نعلم ان الميلي انما قال ما قال ، لانه كان مدفوعا بمحاربـة المشعوذين المتلبسين بلباس الصوفية • وقد كان هؤلاء يثرون على حساب تجويع اتباعهم من العوام •

اما ما ينقل الميلي من أن الشيخ احمد بن يوسف دعا على السلطان، وقد أهان بدعوته الوطن ، بعد ان احتله الاسبان والاتراك ، فان هذا القول يستحق الى دليل خريت ليثبت ويستدل به على قضية جدلية مثل هذه •

وهو لو فعل ذلك ، فانه غير ملم بعد ان هدر السلطان دمه ظلمـا وعدوانا ، وكان ذلك في اغلب الظن غيرة من سمعته التي نالها عند الشعب فاتهم بان اصحابه أدوا له النبوءة •

(16)

وانا مع الميلي في ان طائفة من المتلبسين بلباس الصوفية على عهـد الاستعمار كانوا يمالئون وجوده ، كما كانوا يستغلون سذاجة وجـهل العوام من الناس • وفي بعض هذا ما يمكن اعتباره خيانة للوطن • وعلى ان الثورة حين نضجت ، وظهر رجالها لم يبق احد من الجزائريين الا آمن بها ، ونهض لنجدتها بكل ما يملك ، بمن فيهم الشيوخ وحتى الشياطين الذين كانوا في الجزائر ، ولم يشذ عن ذلك الا شرذمة من الخونة ممـن يعدون على رؤوس الاصابع كما يقال • اما قبل ذلك فكان الكلام كثيرا والعمل الذي يفهمه الاستعمار وهو الحرب ، قليلا ، فحق لقوم من الشيوخ على اختلافهم ، ان يرتابوا على نحو او على اخر • وقد كان عمر قبل ان يسلم ويقتنع بحقيقة الاسلام كافرا معارضا مناوئا للاسلام والمسلمين ،فهل يغض ذلك من قيمته شيئا ؟

(17)

ولعل ما دعا الميلي الى ان يذهب هذا المذهب في الصوفية ويقرر هذا الرأي السيء فيهم ، انه كان يفكر في عصره حين كان يكتب حول حركة التصوف في القرن التاسع الهجري ، وهذا لون من الخطأ . لان متصوفة القرن التاسع ليسوا هم متصوفة القرن الرابع عشر . فقد تغير الزمان . وتبدلت مفاهيم كثير من الامور . ونحن نعلم من التاريخ ان كثيرا من المتصوفة دافعوا عن اوطانهم . وجاهدوا في سبيل نصرة الحق . ونضرب مثلا لذلك ببعض زوايا المغرب الاقصى التي دافع اصحابها دفاعا مجيدا عن حوزة المغرب حين بلي جنوبه باحتلال الاسبان ... [١]

وهذا يدل على ان الصوفية ليسوا متأخرين سياسيا من حيث انهم دافعوا دفاعا حسنا عن بعض الثغور المغربية بقيادة احد الشيوخ ، كما يدل على انهم كانوا يفهمون دينهم حق فهمه ، اذ كانوا يعلمون ان الكفرة سيمسونهم في عقائدهم فيصبحون من الخاسرين .

(18)

ونضيف الى ما كنا قلنا حول اعتراض الميلي على دعوة الشيخ احمد بن يوسف ، فنقول : انا وجدنا نوحا دعا على قومه حين عصوه فأغرقوا بالطوفان ، ووجدنا موسى دعا على اليهود فصعقوا ، وعلى اهل مصر فأغرقوا ايضا ، وصنع ذلك كثير من الانبياء والمرسلين . وقد ذهب الى ذلك علي بن ابي طالب ايضا مع اهل العراق حين قال : « فرق الله بيني وبينكم ، واعقبني بكم من هو خير لي منكم ... » [٢] ، وحين قال في رواية اخرى : « اللهم اني قد مللتهم وملوني ، وسئمتهم وسئموني فابدلني بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بي شرا مني ، اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء ... » [٣] وليس بعد هذا دعاء اقبح منه .

فما وجه الاعتراض على شيخ آمن يراد قتله ظلما ، ان يدعو على هذا السلطان الذي اراد به الشر المستطير ؟ فقد كان الشيخ في موقف المظلوم .

---

(١) كنا سمعنا هذا من الاستاذ عبد العزيز بن عبدالله بكلية الاداب بجامعة الرباط ، سنة ثلاث وستين في محاضرة خاصة مع طلابه بالكلية هناك
(٢) البيان والتبيين للجاحظ : ٥١/٢ (تعليق السندوبي : القاهرة) .
(٣) شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديد : ٢٦٧/١ . بيروت .

(19)

ثم ان تعليل انتشار ظاهرة التصوف بكونها عائدة الى انحطاط الامة ليس رأيا مسلما ، فقد وجدنا الدكتور شوقي ضيف يعلل هذه الظاهرة تعليلا اخر ، وهو ان الناس في نهاية القرن الخامس واول السادس كانوا يولون وجوههم نحو الدين يرجون من ربهم ان يخرجهم من ظلمات انفسهم وظلمات ولاتهم ، وفساد ملكهم وحكمهم ، وان يعينهم في حربهم ضد الصليبيين مما دفعهم دفعا ، او قل دفع كثيرا منهم الى التصوف ، وان يطلبوا ما عند الله ، ويتركوا ما عند الناس [١] . ولولا مخافة ان يتشعب هذا النقاش الى ما لا نهاية لناقشنا شوقي ضيف ايضا ، وانما جئنا برأيه لندل على ان تعليل انتشار التصوف الاسلامي لا يزال الناس يختلفون فيه ، فكل يعلله من وجهة نظره الخاصة .

ثالثا : ومما لاحظناه ان الميلي كان قليل الاشارة الى المصادر التاريخية التي استقى منها معلوماته . فقد كان يعرض علينا الحوادث وكأنه كان شاهد عيان ، ومن الامثلة على ذلك قوله في معراض حديثه عن الفتح العربي للجزائر :

« وبعد فتح جبل اوراس عاد حسان الى القيروان . ووجه همه الى الادارة الحربية ، فمدون الدواوين ، وكتب الخراج ، وضرب الجزية على من اقام على المسيحية . ثم انشأ بتونس دارا لصناعة المراكب البحرية ، والآلات الحربية » [٢] .

(20)

فكأن هذا النص انما كان من نسج الخيال ، او كأنه انما صدر عنه صدور الالهام ، لا انه وقائع تاريخية مقررة مستقاة من مصادر . لأن الميلي اهمل المراجع التي رجع اليها في استقاء هذه المعارف التاريخية الهامة . فقد كان من حقه ان يشير الى مصدر الخبر .

واذا كان للمؤرخ حق التعليق والتعليل ، والرفض والقبول ، والنقض والابرام ، اذا تحدث عن قضية هامة ، فانه يعدم هذا الحق حين يتصل

---

(١) المقامة لشوقي ضيف : ٥٨ ـ ٥٩ . القاهرة .
(٢) تاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي : ٣٢/٢ .

الامر بمثل الاشارة الى المصادر الاولية التي اورد منها الخبر •

حقا ان القارىء العادي لا يعنيه ، من هذه المسألة التي نثيرها هنا ، شيئا ، وانما الذي يعنيه هو مادة الكتاب ومحتواه • ولكن القارىء الباحث لا يستطيع ان يعوج على كتاب هذا شأنه ، ويغض الطرف فلا يقول شيئا•

ولقائل ان يقول معتذرا للميلي : انما انشأ هذا الكتاب للعوام والخواص ، والتلامذة دون الباحثين الجامعيين •

(21)

ولكن هذا لا يضير الميلي شيئا ، لان العمل الانساني لا يمكن ان يوصف بالكمال ، او كل التوفيق في سائر الاحوال • وانما حسب المرء ان يعمل ، لان الخير كل الخير في العمل •

وقد لاحظت اثناء قراءتي كثيرا من المحاسن التي ينبغي التنويه بعضها في هذا المقام ، فليس من الحق ان يلتفت الناقد الى المساوىء والعيوب وحدها ، فان ناقدا هذا شأنه يجب ان يكون من الظالمين ، وانما الناقد هو الذي يذكر المحاسن ، ولا يغفل الاشارة الى المآخذ التي يأخذها على العمل ، سواء أكان تاريخيا ام ادبيا •

(22)

واول هذه المحاسن انه اخرج كتابا ضخما في تاريخ الجزائر اثناء ظروف سياسية جدا ، فليس من اليسير تأليف مثل هذا الكتاب في عهد كان المحتلون الاجانب يتربصون بأهل العلم الدوائر • فليس آشق ولا اشد على المستعمرين من ان ينبري كاتب يؤرخ لامته ، ويذكرها بمجدها التليد ، وعزها القديم ، وماضيها العريق • فليس على الاستعمار من شيء اذا سرقت او قتلت ، او تلصصت او تشردت ، فهو يصرف هذه الظواهر الى وضع الطبيعة وسيرة الحياة ، اما ان تكتب سفرا ضخما تؤكد فيه تمسك الامة بحضارتها ودينها وتاريخها ، فان في عملك ذلك ، تهديم لكل ما بنى ، وهورا لكل ما شيد من اوهام على انقاض الرمال • وثانيها : انه لم يأل جهدا في اصطناع منهج علمي في عرض الاحداث التاريخية بوجه عام • وهذا لا يناقض ما كنا نعيناه عليه من اهمال للمنهجية ، لان المنهجية ليست كلا لا يتجزأ ، وجوهرا لا ينقسم ، فاذا اهملها الانسان فقد اهمل

كل شيء ، ولكن المنهجية علم ذو جوانب مختلفة ، وطرائق متشعبة ، واذا حرم المؤلف من الوقوع على جانب ، فلن يعدمه التوفيق فيقع على جانب ثـان .

واهم ما يمتاز به منهج الميلي ، هو استشهاده بالنصوص كلما وجد الى ذلك سبيلا . وهذا جانب مشرق في متن الكتاب ، وان كنا لا نبرح مصرين في ان اهماله لذكر المصادر وصفحاتها جعل الباحث والقارىء جميعا يتعبان تعبا شديدا في محاولة للوقوع على مظان مواطن النصوص المستشهد بهـا .

وثالثها : جرأة اللهجة في العرض حين الكتابة ، ولعل هذه الجرأة وهذا الاعتزاز ، هما اللذان ورطاه في اهمال ارقام صفحات المصادر في كتابه . والكاتب او المؤرخ اذا حرمه الله من الجرأة الادبية فمن الخير له ان يقبع فلا يكتب للناس شيئا ، لانه سيظل مقيدا تحت وطأة وهم احترام افكار الآخرين ، والثقة بها والاطمئنان اليها . ولا نزال نقول : ان افكار الكاتب وآراءه وتعاليقه واحكامه ليست قرآنا نزل من السماء ، ولا وحيا صدر من العلاء ، وانما هي امور صادرة عن انسان يخطىء ويصيب ، وهو يخطىء اكثر مما يصيب . وعلى اننا لا نريد للناقد او المؤرخ ان يركب متن الباطل ، ويسير في سبيل الضلال ، ابتغاء اشباع رغبته الشخصيـة من القذف والطعن والغض مما صدر عن الاخرين كتابا او مؤرخين او نقادا . فمثل هذا ليس ناقدا ، ولكنه شيء آخر .

وقد كان الميلي يبدو في كتابه ناضجا مقتدرا ، والذي هيأ له بعض ذلك ما كان يتمتع به من جرأة ادبية ، وشجاعة فكرية . وقد رأيناه ناقش انتشار التصوف في المجتمع وعلله تعليلا لم يعجبنا ، ولكن هذا لا يغض من قيمته شيئا . اذ كان له رأي خاص متشدد سيىء في الحركات الصوفية. وكان له الحق كل الحق في ان يذهب هذا المذهب . لان حرية التفكير مسألة مقدسة عند الانسانية المتحضرة كلها .

ورابعها : انه استطاع ان يتناول تاريخ الجزائر كله : قديمه ووسيطه وحديثه ، وان كانت امنية الميلي لم تتحقق ، لان المنية عاجلته قبـل ان يصدر الاجزاء الاربعة التي كان يود انجازها في مقدمة الكتاب . بل انه

توفي قبل ان ينجز الجزء الثالث (1) .

(23)

ومثل هذا العمل ليس سهلا ولا يسيرا ، فقد يستطيع المؤرخ ان يتناول عصرا معينا ، او عهدا تاريخيا محددا ، اما ان يلتهم كل العهود والعصور في تاريخ امة نشيطة حافل ماضيها بالاضطراب والاعمال كالامة الجزائرية ، فان ذلك مجهود ضخم يستدعي صبرا جميلا ، وجلدا طويلا . مع ما نعلم من قلة المصادر في الجزائر ، ومع ما نعلم من عدم اتقان الميلي للغة او لعدة لغات اجنبية يستعين بها مباشرة على انجاز بعض جوانب عمله التاريخي الشاق ، ومع ما كان يضطلع به من اعمال ثقافية اخرى ، ومع ما اصيب به من مرض السكر ، وحتى السرطان في آخر حياته العزيزة ، وهما المرضان اللذان اوديا به وهو لا يزال في ريعان الكهولة ، اذ لم تكن سنه قد اربت على السابعة والاربعين (2) .

---

(1) البصائر الثانية : العدد ٢٧ .

(2) المصدر السابق : عدد ٢٦ ص ٢ .

هذا ، وقد كنا سودنا مذكرات كثيرة حول ثورة الميلي الاصلاحية التي ضمنها كتابه «رسالة الشرك ومظاهره »،ولكننا حذفناها عند التبييض لانها لا تليق بهذا الفصل ، ولا بسواه من فصول الكتاب الاخرى،اذ كان منهج بحثنا هذا يتعارض معها ؛ ونتمنى ان تتاح لنا فرصة خاصة لنشر هذه المذكرات حول هذا الكتاب الاصلاحي الهام الذي دبجه يراع الميلي النشيط .

الفصل الثاني

أحمد توفيق المدني

(1)

احمد توفيق المدني من كتاب الجزائر المعاصرين الذين لم يبرحوا يملأون الصحف السيارة ، والمجلات الثقافية بمقالاتهم وابحاثهم التاريخية والسياسية ، وهو اول وزير للتربية والتعليم في الحكومة الموقتةللجمهورية الجزائرية . فالى أي مدى بلغت قيمة هذه المقالات وهذه الابحاث ؟

وقبل ان نجيب على مثل هذا السؤال نود ان نثير ظاهرة هامة جدا في النهضة الادبية والثقافية المعاصرة في الجزائر ، وهي أن المدني لم يك كاتب مقالات فحسب ، شأن ما وجدنا عند الابراهيمي وابن باديس وكثير من سواهما قبيل اندلاع الثورة الكبرى ، بل كان المدني مؤلفا طويل النفس يتناول مواضيع اكثر ما كانت تاريخية او جغرافية .

(2)

وقد صدر لتوفيق المدني في هذه المرحلة التي نتناولها ، كتابان هامان هما : « كتاب الجزائر » سنة ١٩٣١ ، وكتاب محمد عثمان باشا [١] وقد اهدى هذا الكتاب الثاني الى ابن باديس الذي لم يعدم له تقريظا في مجلة الشهاب [٢] .

كما لم يعدم المدني البحث في كثير من المواضيع التاريخية المتفرقة ، وليس معنى ذلك ان المدني حاول ان يجوب بفكره مجاهل التاريخ

---

(١) عمار طالبي : آثار ابن باديس : ١/٤٧ .

(٢) الشهاب : ج٧م ١٣ ص : ٣١٩ — ٣٢١ (سبتمبر : ١٩٣٧)، وانظر براث ابن باديس ايضا : ١/٤٧ .

الانساني العام ، فذلك ما لم يكد يتاح لمؤرخ من الجزائر في هذا القرن حتى الآن فيما نعلم ، وانما معناه ان المدني كان ولعة بالدراسة التاريخية التي تتصل بالجزائر وحدها • وقد كان من العسير على اولئك المؤرخين الجزائريين ان يصرفوا وجهتهم الى التاريخ الانساني العام ، من حيث ان تاريخهم نفسه لا يبرح بحاجة الى البعث والاحياء ، والى الفهم والتهذيب • انما يفعل ذلك مؤرخون كثر فيهم الباحثون في هذا الفن ، فلم يغادروا موضوعا وطنيا الا تناولوه ، وحللوا جوانبه ، وعللوا حوادثه، وعالجوه في أبحاث اكاديمية عليا ، اما من كانوا لا يزال تاريخهم عند اممهم مجهولا ، وماضيهم مغمورا ، امثال الميلي والمدني والجيلالي فقد كانوا جديرين بالاشتغال بالتاريخ الوطني البحت •

ولم يكن مثل هذا العمل في حد ذاته هينا ولا يسيرا ، فلا تبرح الجزائر ترقب من يؤرخ لها احداثها ، ويقص للناس أيامها ، ويروي لهم مفاخرها ومآثرها • لان تاريخها كتب في اغلب الاحوال من وجهة نظر واحدة ، وهي استعمارية بحتة ، حين كلف المستشرقون وغير المستشرقين من الفرنسيين وغير الفرنسيين ايضا ، بكتابة تاريخها • فاننا لا نجد احدا اولى ، ولا اجدر بهذا من ابنائها ، اذ كانوا باخبارها أعرف ، وبأيامها ادرى ،وباحوالها اخبر ،وبماضيها اوصل واشد ارتباطا• ولا يعرف شعاب مكة الا اهلها •

(3)

فان رأينا المدني ينبري للكتابة في الجغرافية وسير الادارة والاقتصاد الجزائري في كتابه « كتاب الجزائر » ، ثم يتصدى للكتابة في فترة حرجة جدا في تاريخنا الوطني وهي الفترة التي تم فيها احتلال كثير من أجزاء وطننا الشمالية على يد الفرنسيين ، في كتابه : « عثمان باشا » ،فبما ايمان منه بان هذا التاريخ لا يزال مفتقرا ، بالرغم مما كتب فيه بعد ، الى كثير من الدراسات المعمقة المفصلة المحللة المعللة الجادة الناضجة • فليس التاريخ • فليس التاريخ ، ولا الادب ، ولا غيرهما من الفنون ، مما ييسر كتابتهما على سائر الناس وهم فيه مجودون موفقون متفوقون •

فقد كتب احدنا كثيرا ، ولا يقيض الله نصيبا من التوفيق فيما كتب فيضل ضلالا بعيدا ، وقد يكتب مجاهدا نفسه اشق الجهاد واعنفه ،فيوفق في جوانب دون جوانب .

من اجل ذلك لم تقم النهضات الثقافية الكبرى على كتف قلم واحد، او اقلام قليلة فقيرة ، وانما قامت على اقلام سيالة غنية كثيرة ، متباعدة اتجاهاتها ، من اجل ذلك رأينا توفيق المدني يعالج مواضيع تاريخية قد عولجت من قبل كنحو ما جاء في « حرب الثلاثمائة سنة » ، مع اننا نعلم ان كثيرا من مؤرخينا عالجوا بعض ما عالج او مثله . منهم الميلي ، وعبد الرحمن الجيلالي .

(4)

ونحن نعتقد ان احمد المدني كان يوفق في ابحاثه التاريخية توفيقا عظيما ، ولكنه لم يكن يعدم بعض الهنات كغيره من الناس جميعا ، ولم يكن مثل هذه الهنات في ذكر الارقام او تقرير الاحداث ، وانما كانت في تعليل هذه الاحداث وتحليلها . ولكن هذه المسألة ليست من قبيل القواعد المتبعة ، والقوانين الصارمة المنفذة ، وانما هي وجهات نظر ، فما أراه انا صوابا قد لا يكون كذلك بالقياس الى غيري ، وما اراه خطأ ، قد لا يراه الناس خطأ ايضا . وهذا سر اختلاف الناس .

وكان المدني ذا نزعة دينية في معالجة الوقائع التاريخية ، شأنه في ذلك شأن جميع رفقائه في النهضة . وبعض ذلك ما كان يحول بينه وبين التوفيق في تعليـل الحوادث احيانا ، في رأينا .

ولا اريد ان اردد هنا نظرية المستشرقين والمستغربين جميعا ، من كون الاسلام يعد عائقا رئيسيا في تأخر المسلمين ،فما يكون لي ان اقول هذا ، وانا بنعمة الله مسلم اغار على عقيدتي واجلها ، وأرى ان هذه النظرية ان هي الا محض افتراء واذعاء ، فالعقيدة واللغة لا شأن لهما يذكر في تقديم أمة او تأخيرها ، وانما الامر يعود الى الذين يشرفون على الامة ويقودونها ، ويخططون لها ، فان كانوا صالحين مخلصين صلحت وتقدمت ، وان كانوا غير ذلك ظلت تخبط في متاهات الضلال ، وتترنح في مهاوي الانحطاط . وانما اريد ان اقول : ان المدني كان يحاول ان يصب كل شيء يعزى الى التاريخ في مصب الاسلام .

والمدني احد من كانت لهم يد بيضاء في عمل مبارك الميلي التاريخي ، وهو اول عمل تاريخي ناضج يستحق الاهتمام . فبالرغم من ان الميلي لم يذكر صراحة ان المدني قد ظاهره على عمله هذا ، فان المدني حدثنا في البصائر (١) بانه بعد ان كان تعرف في سنة خمس وعشرين من هذا القرن بقسنطينةحين نفاه الاستعمار الفرنسي من تونس ، على الميلي ، وقضيا معا وقتا ممتعا استغرقته المناقشات العلمية ، والمحاورات الثقافية اللذيذة، اجتمعا من جديد معا ، بعد ست سنوات بمدينة الجزائر بمناسبة تأسيس جمعية العلماء . وكان الميلي حينئذ منهمكا في انجاز تاريخه . وكان قد جمع المصادر العربية ، فتعهدت ، يقول أحمد المدني ،له : «بان أجمع لهاهم المصادر الفرنسية ، وان اقدم له مترجما الى العربية ما يهمه من ذلك . وانكب كل منا على عمله ، منقطعا له انقطاع الناسكين .

واذ تم تعريب اهم الابواب ، واغلب الفصول من مختلف الكتب التاريخية الفرنسية ، قدم العاصمة ، رحمه الله ، خصيصا من اجل ذلك . وجاء معه باصول الكتاب ، وقضينا حوالي العشرين يوما في عمل مستمر، لا ينقطع الا الفترات القصيرة ، ونحن نقابل بين نص ، ونحكم مختلف الكتب (٢) فيما يتراءى لنا من تناقض او اختلاف بين مؤرخي الشرق ومؤرخي الغرب ، وننهمك في عمليات حسابية طويلة ، كي ندقق تاريخا ، او نوفق في شأن الحادثة الواحدة ، بين ما يرويه هذا ، ويقصه ذاك .

واقسم أنني ما عملت مع احد عملا ، احب الي ، وامتع لنفسي .. من عملي ذلك ، خلال تلك الفترة القصيرة ، الى جانب مبارك الميلي (٣) » .

فهذا النص ضريح الدلالة على ان المدني ظاهر الميلي على عمله ، فترجم له كثيرا من النصوص عن الكتب الفرنسية ، ونسق معه كثيرا من فصول الكتاب ، كما ساعده في تحقيق كثير من تاريخ بعض الوقائع الزمنية

---

(١) عدد ٢٦ ص ٤ .

(٢) كذا في البصائر : عدد : ٢٦ صفحة : ٤ .

(٣) المصدر السابق .

والتاريخية • فلم ذكر الميلي في كتابه [١] ثلاثة اشخاص ، ممن ساعدوه ، ليس فيهم المدني ؟

(6)

ومهما يكن من امر ، فان هذا يدل على ان احمد المدني اشتغل بالابحاث التاريخية ، منذ سنة خمس وعشرين من هذا القرن [٢]، وقد آتت هذه البحوث أكلها طيبا حين نشط المدني في اصدار كثير من الانتاجات التاريخية المختلفة ، منها ما كان يصدره في الصحف والمجلات [٣] ، ومنها ما كان يقدمه الى المطابع في هيأة كتاب •

ولو لم يكن المدني موزعا بين كثير من الاعمال الادبية ، وتخصص للتاريخ وحده ، لرجونا ان يكون ابرز المؤرخين الجزائريين ، لالمامه باللغة الفرنسية الماما حسنا ، ولنشاطه وحماسه وحيويته •

ولكن الاشتغال بكثير من النشاطات الادبية المختلفة لم تكن بلية اصاب الله بها المدني وحده ، وانما هي عامة عند كثير من الكتاب العرب، كما لحن الى ذلك كثير من الباحثين ، وانما هي عند الجزائريين اكثر استفحالا واعظم خطبا ، ولا سيما في الفترة الادبية التي تتحدث عنها في هذه الدراسة ، فبينما كان احدهم ينشر اليوم قصيدة ، فتحسبه من الشعراء ، يفاجئك غدا بمقال في التاريخ ، او بفصل في الادب ، أو ببحث في علم الاجتماع ، او بكلمة في الفقه او التفسير •

فكأن هذه الظاهرة الادبية كانت استمرارا للعهود الادبية المتأخرة التي كان الكتاب فيها شعراء ، والشعراء كتابا ، الا من قل منهم • ويبدو ان هذه الظاهرة اخذت تشيع منذ القرن الرابع ، حين زعم البديع الهمذاني ان الجاحظ لم يكن في أدبه شيئا ، لانه لم يكن يستطيع قيل الشعر ، وانما كان كاتبا ناثرا ، فكان في احد شقي البلاغة يقطف ، وفي الاخر يقف [٤] •

وقد وجدنا منذ هذا القرن كثيرا من الناس المحترفين للادب يتناولون الشعر والنثر ، منهم البديع ، والخوارزمي ابو بكر المعاصر له ، وابو العلاء

---

(١) تاريخ الجزائر في القديم والحديث : ٧/١ •
(٢) البصائر : عدد ٢٦ صفحة : ٤ •
(٣) انظر مجلة افريقيا الشمالية مثلا : ص ٨ ـ ١٦ عدد : ٤ ـ ١٩٤٩
(٤) المقامة الجاحظية للهمذاني ص ٧٥ بيروت •

المعري ، والحريري ، وسواهم كثير . كما وجدنا من الاندلسيين من ساروا هذا المسار ، ومنهم ابن عبد ربه ، وابن زيدون ، وابن الخطيب .

فاذا جئنا الى العصر الحديث لم نعدم لهذه الظاهرة وجودا ، حيث ان اليازجي كتب مجمع البحرين ــ وهي مجموعة مقامات ــ قصد بها اظهار التفوق في مجالي النثر والشعر جميعا . ولم يفت احمد شوقي ان يتناول النثر والشعر رغم انه كان ملقبا بامير الشعراء . وقل مثل ذلك في حافظ ابراهيم الذي كتب فيما كتب « ليالي سطيح » ، وهي احاديث كتبت على طريقة المقامات المسلسلة من بعض الوجوه [1] . اما الابراهيمي فلم يعدم هو ايضا هذه الصفة حين كان يتناول الشعر والنثر جميعا ، بل ان الابراهيمي كانت له ملاحم شعرية بلغت الالاف من الابيات [2] ولا نعرف نحن اليوم عنها شيئا . لان الابراهيمي لم ينشرها . بل لم ينج من هذه الظاهرة حتى ابن باديس الذي خلف لنا اشعارا كثيرة ، ما تزال محفوظة متداولة الى اليوم .

(7)

فليس غريبا ان نجد المدني ايضا ينهمك بأعمال ادبية مختلفة ، لانه كان متأثرا بتيار هذه الظاهرة التي لا تبرح بعض آثارها مخيمة علينا نحن ايضا الى اليوم .

ونحن نحسب ان المدني يجب ان يعد في الطبقة العليا من المؤرخين الجزائريين بكتابه « حرب الثلاثمائة سنة » ، وقد كان المدني نشر كثيرا من فصول هذا الكتاب الذي يتناول الحروب الجزائرية ــ الاسبانية ... في مواضع متفرقة ، وليس معنى ذلك انه صنفه في السنين الاخيرة فقط ، كما قد يعتقد بعض الذين لا يعلمون .

ومن حق المدني علينا ، والقارىء ايضا ، ان نثبت شيئا من فصل كان المدني تحدث فيه عن معارك الجزائريين مع الاسبان الغازين بمدينة وهران ، والمرسى الكبير ، ومسرغين ، يقول المدني :

---

(1) لنا بحث حول هذه المسالة ضمن رسالة جامعية ، وتقاليد الجامعة تحظرنا من ان نذكر منه هنا شيئا .

(2) عيون البصائر : ٦٤٥ .

الاعتداء الاسباني قبل تدخل الاتراك العثمانيين
الحرب البحريـة

ابتدأت الحرب رسميا بين اسبانيا ، والامة الجزائرية فوق عبـاب البحر ، وامتدت وقائع تلك الحرب منذ بزوغ فجر القرن السادس عشر .

فبينما كانت الوقائع الحربية قاصرة قبل ذلك التاريخ على المعامـع التي يخوضها الفرسان من الجانبين ، والتي كان من نتائجها الحتميـة استيلاء احد الفريقين على الغنائم تساق للاسواق ، وعلى الاسـرى تتناولهم ايدي النخاسين ، اصبحت الحرب البحرية تقع بين الاسطوليـن الرسميين ،وخاصة منذ توطد قدم الاسبان بمليلية،وساحل الريف المغربي . وكان الاسطول الجزائري يتخذ له ميناء في مدينة المرسى الكبير التي كانت من قبل مركز اسطول الخليفة عبد المؤمن بن علي ، والعظماء من امـراء الموحدين والزيانيين .

ولقد تعزز جانب الاسطول الجزائري بما انضم اليه من البحـارة المقتدرين من المهاجرين الاندلسيين ... وبينهم وبين الاسبانيين ما منـع الحداد ، فكانت المغامرات تتلو المغامرات ، والغارات تقفو اثر الغارات ، فان كان الاسبان يتمكنون احيانا من ناصية المسلمين ، فان هؤلاء كانوا يثبتون الفينة بعد الفينة على المدن الساحلية الاسبانية كمدينة « اليكانتي » ومدينة « الكي » ، وتجرأ اوامرة على نفس مرسى مدينة مالغة ، في عمارة صغيرة لا تشمل الا ستة من السفن ، فاثخنوا في اسطول العدو ،واحرقوا الكثير منه [1] .

لكن اسبانيا كانت في هاتيك الاثناء تستعد للامر الجلل ، وتتخذ الاهبة سرا لتدويخ الساحل الافريقي ، ونصب اعلام المسيحية فوق مرتفعات الاطلس .

احتلال المرسى الكبير :

كان فرناد الكاثوليكي جلاد مسلمي الاندلس ، هو الملك المتولـي

---

(١) يلاحظ ان غموضا واضطرابا يخيمان على هذه الجملة : « وتجـرأ اوامرة على نفس مدينة مالغة في عمارة صغيرة » .

امر اسبانيا ، وكان وزيره الحاكم بأمره هو الراهب المسيحي ، الراسب في غياهب التعصب الآثم الممقوت ، الكاردينال « اكسيمينيس •• » وقد كان الى ذلك اسقف مدينة طليطلة •

لم تكن الخزينة الاسبانية يومئذ فسيحة الارجاء ، فالحروب المستمرة قد اتت على كل ما فيها ، اما الاسلاب والغنائم ، اسلاب وغنائم المسلمين ، فقد اقتسمها القوم واتلفوها ، ولم تنل الدولة منها شيئا كثيرا •••

تجهزت الحملة العتيدة ووضعت تحت امرة القائد دياغو فرناديني، ثم ابحرت من مدينة مالغة يوم الثالث من سبتامبر ١٥٠٥ ، ونزلت الساحل الجزائري الى جانب المرسى الكبير في اليوم التاسع منه •

كانت مدينة مرسى الكبير محصنة ، وكان اغلب اهلها رجال حرب ونزال ، وقد استعدوا للمقاومة وصمدوا على الثبات في وجه العدو ، لكن قوتهم لم تكن يومئذ كافية لمهاجمته على الساحل ، ومحاولة ارجاعه من حيث اتى ، فاكتفوا بالوقوف على الحصون والاسوار ، واصبحوا بعد ايام ضمن منطقة ضيقة من الحصار •

لم تكن الحكومة الزيانية الواهية يومئذ بمستطيعة عملا مستعجلا لفك الحصار عن ذلك الثغر العظيم ، ولم يكن لها يومئذ من النفوذ والسلطان ما يجعلها تنادي الامة للجهاد ، وتسلح الرجال القادرين على القتال لتدفع بهم غائلة العدوان •••

ثبت اهل المرسى الكبير ثباتا عجيبا في وجه المهاجمين،وكانوا يتلقون شيئا من المدد يسيرا من القبائل العربية التي ترتاد تلك الناحية ، لكن الحصار ضاق ، ونفدت المؤن ، ونضب المعين ، واستشهد كثير من المدافعين ، فما وسع الباقين الا الاستسلام للعدو العاتي بعد حصار دام خمسين يوما •

دخل فرنانديز دخول الفاتح الظافر مدينة المرسى الكبير ، واتخذها مركزا لاعماله ، وجاءه الامر من الملك بتسميته حاكما على المدينة ، فكانت تلك اول ثغرة فتحت في الجدار البحري الجزائري ؛ وكانت فاتحة عهد الحرب الطويلة المدى ، الكثيرة المعامع والمغامرات ، والتي لم ينته امرها

الا بعد ثلاثة قرون من ذلك » [١] .

(8)

لم اثبتنا هذا النص التاريخي في هذا المقام ؟

انما فعلنا ذلك ابتغاء البرهنة على مقدرة توفيق المدني على عرض الاحداث التاريخية ، ولا اقول تحليلها . اذ كان التحليل يختلف عن العرض اختلافا كبيرا ، فليس كل الناس قادرا على التحليل والتعليل ، في حين ان كل الناس يستطيع ان يعرض الوقائع ويفصلها اذا كرع من المعارف التاريخية كروعا صالحا .

ومن الحق انني طالعت هذا الفصل ، فيما طالعت للمدني ، فأعجبت به اعجابا حسنا . ولكني لاحظت ان المدني كان شديد السرعة في عرض الاحداث ، قليل التساؤلات في التحليل ، قليل التدقيق بل عديمها في ذكر الارقام التي هي قوام التاريخ . ارأيت انه لم يذكر لنا عدد سفن الاسطول الاسباني الغازي ، ولا عدد الذين كانوا فيه من الجنود الغزاة ايضا ، ولا عدد الذين كانوا يحاولون الدفاع عن المدينة من الجزائريين ، وفي عدم ذكر مثل هذه الامور الهامة ما يترك في نفس القارىء اسئلة كثيرة بدون جواب ، وحيرة خرساء جاثمة عليه ، لان الذي يطالع مسألة تاريخية يجب ان يجد حولها كل شيء مكتوبا ، وتبعة بعض ذلك تقع على المؤرخ الذي كان قد تصدى لمعالجة تلك المسألة التاريخية .

(9)

وهناك قضية اخرى جديرة بالاثارة هنا ، وهي ان المدني لم يحاول ان يرجع قراءه الى المصادر التي استقى منها معلوماته التاريخية ، وان يحيلهم على اهم المراجع التي قد تساعد منهم الباحثين في مثل هذا الموضوع ، مع انه نشر هذه الفصول في مجلة كانت تعتبر ارقى مجلة في الجزائر على ذلك العهد ، وكان من اليسير جدا ان تذكر بعض المصادر ، وارقام صفحاتها في ذيول الصفحات . ولكن المدني لم يفعل من ذلك شيئا ، واغلب الظن

---

(١) احمد توفيق المدني : مجلة افريقيا الشمالية (عدد : ٤ مايو ١٩٤٩) ص ٨ ـ ١١ .

انه كان مقتنعا بأنه انما يكتب للطبقة الوسطى من المثقفين الذين يهمهم اولا وقبل كل شيء معرفة الحقائق التاريخية ، بدون نظر الى المنهجية العلمية المتبعة في عرض مثل هذه الحقائق التاريخية وسردها وتحليلها وتعليلها .

(10)

كما ان تعليله لبعض سير الوقائع التاريخية لم يكن موفقا ، في رأينا طبعا ، فاذا رأينا الاسبان ينتصرون على العرب الجزائريين في المرسى الكبير ، فليست علة ذلك تؤوب الى قلة في جيش هؤلاء ، وكثرة كثيرة في جيش اولئك . فقد وجدنا العرب في اول امرهم ، كانوا يفتحون البلدان تلو البلدان ، ويخوضون المعارك بعد المعارك ، بأيسر الجنود عددا .

ونحن نحسب ان الاوان قد أنى لرفض هذه النظرية ، لان سير التاريخ يكذبها ، ووقائعه تضعفها وتبعدها ، ولان ما نشاهد اليوم وما شاهدنا امس ، وما سنشاهد غدا ، يناقضها ويبين اخطاءها وضلالها .

ثم ارأيت ان فئة قليلة من اليهود الاغبياء ومرتزقة اوربا وامريكا الجياع ، استطاعوا ان يحققوا نصرا ساحقا على امة عظيمة في ستة أيام ، ولا أقول الامة العربية كلها ، لانها لم تشارك في حقيقة الامر في الحرب ، وانما شاركت في الكلام ، وانما اقول : الامة العربية التي كانت تحدودق بفلسطين المحتلة .

ولو تأملنا هذا الامر ، لما اعدناه الى تفوق اليهود ، ولا الى شجاعتهم ، وانما قد ربما اعدناه الى ضعف عزيمة العرب وتواكلهم . وسوء قيادتهم . في حين ان الاعداء استغلوا كل مواطن الضعف عند العرب ، وافادوا من الفساد الذي كان يفتك بالجيوش العربية التقليدية التي انما كانت جيوشا بقبعات الرؤوس ، ونجمات الاكتاف ، وبراعة حركة المشي في الاستعراضات والاحتفالات السلمية ، اما ما وراء ذلك من اللياقة البدنية ، والجلد ، والصبر والثبات في المعارك ، واتيان العدو من حيث لم يكن يحسب ، وضربه من حيث لم يكن يتوقع ان يضرب ، فذلك شيء آخر لم يكن جند العرب يعرفونه ، وحتى لو كانوا يعرفونه فرضا ، فانهم لم يبالوا بتطبيقه في ساعة الحرج ، فيشرفوا انفسهم ويشرفوا تاريخهم .

ان انتصار غزاة فلسطين على العرب لم يكن مرده الى تفوق اولئك وضعف كفاءة هؤلاء ، وانما يعود اساسا الى قوة عزيمة الغزاة الجياع على الانتصار والحياة ، وقوة عزيمة بعض العرب على البقاء السلبي الذي ينشأ عن الهزيمة المخزية ، والفرار الجبان .

واذن فنظرية الكثرة والقلة ، او القوة والضعف ، في التاريخ ، يجب ان ينظر اليها معلل سير الوقائع التاريخية نظرة حذرة . لان كثيرا من الاحداث التاريخية تقوم ضدها .

(11)

واذن ، فلم ينتصر الاسبان على الجزائريين في المرسى الكبير ، لان اولئك كانوا كثيري العدد ، وكان هؤلاء قليليه ، وانما علة ذلك ان الاسبان كانوا في شباب تاريخهم ، وان الزيانيين كانوا في شيخوخة دورهم التاريخي الذي كان يعول على الدفاع اكثر مما يعول على الهجوم . وكل امة تجتزىء في الحروب الوطنية بالدفاع ، فهي عاجزة وما كان لها لتحقق انتصارات في اغلب الاحوال العادية ، ولكن الامة لا تستطيع ان تهجم على العدو ايضا الا اذا كانت نشيطة حية متحمسة متحدة ذات مبادىء عليا في الحياة .

فقد كان الاسبان تعلموا من العرب انفسهم كيف ينبغي ان يسيروا التاريخ ، لان حملات العرب ذاتها كانت تعول على الاسلام ونشره في اصلها ، ولم تك حملة الاسبان الا شيئا من ذلك ، لانها كانت تقوم في اساسها على المسيحية ، وبايعاز من رجالها المتعصبين يومئذ . ولو وقف الأمر لدى هذا الحد لهان ، ولكن الاسبان كان بينهم وبين العرب عداء فجر حروبا طاحنة ، وسال دماء غزيرة في الاندلس طوال قرون من الزمان فلم يكن مقام العرب بالأندلس يعول على شيء قدر ماكان يعول على القوة العسكرية ، فقد كان وجود العرب مهددا في الأندلس منذ عهد يوسف ابن تاشفين ... فلما ضعفت قوة العرب وانقسموا على انفسهم ، واراد كل احد منهم ان يصبح خليفة ، لم يبق خليفة قادرا على جمع كلمة المسلمين ، ودفعهم الى تسيير التاريخ كما فعل اجدادهم قبل ذلك بقليل .

فكأن الاسبان انما كانوا ينظرون الى العرب على انهم مستعمرون محتلون لا ناشرون للحضارة والاسلام . ولذلك ظل الاسبان يحاربون

العرب كلما وجدوا الى ذلك سبيلا ، فلما امكنتهم الفرصة طردوا العرب شر طردة عرفوها في تاريخهم الطويل ، وحاولوا ان يمحوا كل ما شيدوه من صروح الحضارة السابقة الرائعة ، ولكن هيهات ان تمحى الحقيقة التاريخية ولو كره المكابرون الحاقدون ، فقد ظل وجود العرب ماثلا في اسبانيا الى اليوم ، والى ما بعد اليوم •

(12)

فالاسبان اذن ، انما جاءوا الى الجزائر ، والى المغرب الاقصى قبل ذلك ، لاسباب اهمها :

١ ـ الانتقام من العرب المسلمين الذين كانوا قد استطاعوا النجاة من محاكم التفتيش المجرمة القائمة على العنصرية الخبيثة •

٢ ـ نشر المسيحية خارج اوربا اقتداء بالمسلمين انفسهم الذين ظلوا ينشرون الاسلام بين ظهرانيهم زمنا طويلا •

٣ ـ تحقيق انتصار ثان بعد ان كانوا قد ظفروا بشمال المغرب ، واستقروا به ينامون فيه ملء الجفون •

٤ ـ طلب الرزق ـ أي تقوية اقتصاد البلاد الاسبانية بتعبير فني ـ واستغلال خيرات البلدان الاخرى ، وفي طليعتها الجزائر لانها مجاورة لها، ولان ملوكها كانوا كالاشباح المسندة التي ذهبت عنها ارواحها ، يرون ولا يتحركون ، وينكرون ولا يستطيعون ان يصنعوا شيئا •

٥ ـ غزو العرب في عقر ديارهم حتى لا يطمعوا في الاياب الى الاندلس تارة اخرى ، فما كان يدري الاسبان ان قوي العرب ان يعودوا من حيث طردوا ، ويفتحوا الاندلس تارة اخرى ؟

وقد كان الاسبان يعلمون انه ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا واستكانوا ، ارسلها علي بن ابي طالب كلمة صادقة خالدة • والعجب كل العجب من العرب حين يعرفون هذا المبدأ الحربي ، ويهملون تطبيقه ، من حيث يعمل به اعداؤهم الطامعون •

فكان محالا على أي شعب في مستوى الشعب الجزائري يومئذ ، الذي كان يعيش بدون قائد عبقري محنك ، ويجب ان نقول هذا وامرنا الى الله ، ان يقف في وجه الاسبان الذين كانوا كالقدر النازل ، للاسباب الخمسة التي اتيت عليها ذكرا في هذه الفقرة •

ومهما يكن من امر فان احمد توفيق المدني يجب ان يعده التاريخ ، احد المؤرخين الجزائريين الذين قامت على اكتافهم النهضة التاريخية في وطننا خلال فترة عصيبة ، فلم يكد يفتر عن البحث في القضايا التاريخية التي تتصل بالشعب الجزائري منذ ان بدأ هذه البحوث سنة خمس وعشرين من هذا القرن [١] ، فقد ساعد الميلي بما كان يترجم له من نصوص اجنبية كما أسلفنا ، وقد ألف « قرطاجنة في اربعة قرون ، أو تاريخ شمال افريقيا» قبل ان يصدر تاريخ الميلي نفسه ـ وقل الجزء الاول منه خصوصا ـ بنحو ثلاث سنوات ، ثم الف « كتاب الجزائر » وهو كتاب يبحث في النواحي الادارية، والاقتصادية ،اكثر مما يبحث في التاريخ، فهو كتاب بالجغرافية ألصق، وبها اوصل . ولم يزل يبحث ويحقق حتى اجتمعت له حقائق تاريخية خطيرة عن حروب الجزائر مع الاسبان وغيرهم في القرون الثلاثة التي سبقت الاستعمار الفرنسي ، فنشرها اخيرا ، تحت عنوان « حرب الثلاثمائة سنة » ، وانما ذكرنا هذا الكتاب مع انه ظهر منذ نحو سنة فقط ، لان كثيرا من مواده كان المدني قد نشرها في الفترة التاريخية التي نلقي شيئا من الضياء عليها في هذا البحث .

ففضل المدني على التاريخ الجزائري اذن عظيم [٢] .

---

(١) انظر العدد : ٢٦ من البصائر الثانية صفحة : ٤ .

(٢) والذي يلاحظ ان المدني كان صحافيا سياسيا بارعا ناجحا في عمله، وقيمته الصحافية في النهضة الثقافية بالجزائر لا تقل عن مقدرته على الكتابات التاريخية والخوض في قضاياها المختلفة ، وقد راينا في الباب الاول من هذا البحث انه كان احد كتاب البصائر المعدودين ، ومحرريها المشهورين .

الفصل الثالث

عبد الرحمن الجيلالي

(1)

ولا نبلغ في بحثنا هذا في النهضة التاريخية بعض ما نريد ، حتى تتناول عبد الرحمن الجيلالي، فانه يختلف اختلافا ظاهرا عن مبارك الميلي، فتاريخ الجيلالي اغزر مادة ، وادخل في المنهاج العلمي ، والعرض التاريخي ، من تاريخ الميلي . ولعل هذا من الامور الطبيعية في مثل هذه الاحوال ، فان الفضل يكون للاول في السبق الى موضوع علمي ما ، ولكن الثاني يستفيد من أخطاء الاول نفسها ، ومن تجاربه ، فيحسن ذلك العلم او الفن ، ويطوره على نحو احسن ، ووجه اكمل .

تقرأ تاريخ الجيلالي ، فتجدك امام مؤرخ غني ، يريد ان يطلعك على كل شيء ، ويريد ان يجعلك تلم بما ألم ، وتفيد من كل ما قرأ أو درس من كتب تاريخية وغير تاريخية .

فالتاريخ للامة الجزائرية وحدها ، ولكن الجيلالي لم يقنع بهذا ، فمضى يتحدث لك عن الامة العربية بوجه عام ، وانها أعقل الامم وارقاها تفكيرا [1] .

(2)

ونحن نحسب ان كثيرا من التمهيدات والمقدمات التي اوردها الجيلالي في تاريخه كانت ضرورية ، لان المؤرخ لا يستطيع ان يحدثك عن الفتوحات العربية الاسلامية في شمال افريقيا ، حتى يعوج على تاريخ الاسلام فيحدثك منه بطرف ، فالقارىء هو الغانم المستفيد . ولكن المنهجية

---

(١) انظر تاريخ الجزائر العام للجيلالي : ١/١٥٠ .

العلمية مع ذلك كثيرا ما تنعى على مثل هذا ، وتعده من الفوضى في التأليف . ولكن كيف يستطيع مؤرخ ان يتناول حوادث تاريخية دون ان يربطها ببعض ما يسبقها او يلحقها او يتصل بها على نحو او على اخر ، من حوادث اخرى ايضا ؟

ومع ذلك فلا بد من الاقتصاد في هذه المقدمات التي لا تمثل طرفا من الموضوع ، فان الاسراف فيها ليس فيه خير . فاذا كان المؤرخ يعتقد ان الفتوحات العربية في افريقيا الشمالية ، مرتبطة بالفتوحات الاسلامية في المشرق ، جره ذلك الى الحديث عن ظهور الاسلام ، ويجره الحديث عن ظهور الاسلام الى الحديث عن الامة العربية قبل الاسلام ، والى التعرض ، من اجل ذلك ، الى دولتي الفرس والروم اللتين كانلهما صلة وثقى بالامة العربية ابان البعثة المحمدية الشريفة .

(3)

وقد وقع الجيلالي في كثير من هذا الهول ، فلم يستطع ان يخلص الى موضوعه الا بعد جهد جهيد . انظر اليه وهو يتحدث عن « الجزائر العربية المسلمة » تجده يتحدث اول الامر عن الامة العربية ، ثم عن أخلاقها وعاداتها ، ثم عن مجتمعها ، ثم عن معتقداتها وعقلها ، ثم عن ظهور الاسلام فيها ، ثم عن الفتوحات الاسلامية اخر الامر [1] ولم يصل الى الحديث عن « العرب في شمال افريقية » الا بعد ان كاد يذهل عن موضوعه الذي هو تاريخ الجزائر .

فقد كان ينبغي له ان يكون شديد اللباقة في تناول موضوعه ، فيأتي بمقدمة قصيرة جامعة ، ينفذ منها الى موضوعه المقصود ، وهو « فتح افريقية » .

فان من الاشياء لما يستغني عنها القارىء مهما كان مستواه الثقافي وضيعا ، وان من المعلومات لما يعرفها الخواص والعوام سواء . فماذا قال الجيلالي عن ظهور الاسلام ؟ « قضت حكمة الباري جل جلاله بانقضاء ايام الفوضى ، والجور المخيمين على العالم يومئذ ، وبانقشاع غشاوة

---

(١) المصدر السابق : ١٤٨/١ ــ ١٥٥ .

الجهل الضاربة اطنابها على الناس • كي يسود العدل . ويظهر العلم • فانبثق نور النبوة والوحي على رأس القرن السابع الميلادي ، فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون •هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين • وهو عليه الصلاة والسلام من جنس العرب يعرفون نسبه وفضله وصدقه وامانته وعفافه ، فدعاهم الى عبادة الله وحده ، وخلع ما كان يعبد اباؤهم من الحجارة والاوثان •• [1] •

(4)

فهذا النص الذي اورده الجيلالي في كتابه « تاريخ الجزائر العام » لم يأت بجديد في موضوع البعثة المحمدية ، بل كل ما ذكر معروف عند الناس جميعا ، يسمعونه كل يوم ، ويردده الخطباء على المنابر كل يوم جمعة • وما شأنه بهذه الايات التي اوردها وهو انما يكتب عن التاريخ ؟

وعلى اني لا اريد ان اجرد الجيلالي من كل فضل ، واعريه من كل نجاح ، وانزع عنه كل توفيق ، فقد وفق الجيلالي في كتابه هذا توفيقا عظيما ، ولكن ذلك لم يك في سائر عناصر الكتاب ، لان مثل هذا التوفيق الشامل لا يطمع فيه مؤرخ او باحث مهما بذل من الجهود ، وعانى من الاتعاب • ومن أجل ذلك تراه يهوي في بعض المواطن من كتابه الى حضيض الاسفاف •

ونحن سنحاول ان نذكر الملاحظات التي للكتاب . والتي كانت عليه سواء ، والتي عنت لنا اثناء قراءتنا لكتابه من اجل ان نحرر عنه هذا الفصل القصير •

وليعلم من في قلوبهم مرض أننا لا نبخس الناس اشياءهم ، ولا نهضمهم حقوقهم ، ولا نغض من اقدارهم ، ولكننا لا نهاب ان نصدع بما نراه حقا ولو جر علينا ذلك تهما ووصمات •

وكل نقد لا يقوم على هذين المبدأين : مبدأي التوفيق والحرمان ،

---

(1) المصدر السابق : ١ / ١٥٣ •

او الاجادة والقصور ، نقد بعيد عن العلم ، خارج عن دائرة الحق • لانه اما ان يكون شرا كله ، واما ان يكون خيرا كله ، وهذا مما لا يكون • فلا بد من ان يقيض الله توفيقا ما لاي كاتب قام يكتب عن شيء أو يؤرخ لشيء ، ولكن لا يخلو هذا التوفيق من حرمان وتعثر واضطراب •

هذا هو مبدؤنا في النقد •

(5)

واول ما تبدى لنا من محاسن هذا الكتاب ، انه يعد موسوعة ضخمة للمعارف التاريخية ، فهو خليق بان يفيد القارىء افادة عميقة ، اذ كان عبارة عن عرض مفصل طويل لسائر الاحداث الهامة التي كان لها صلة مباشرة او غير مباشرة ، بالجزائر منذ العصور البعيدة الممعنة في القدم الى ايام الاتراك •

فهو تاريخ غزيرة مادته ، غنية معارفه ، وواسعة مسالكه • فالذي يقرؤه لا يخرج منه بالمامة شاملة لتاريخ الجزائر فحسب ، ولكنه يخرج منه ملما بكل ما يتصل بذلك من قريب او بعيد ، فقد يستطيع قارئه ان يلم بطرف صالح من تاريخ الاسلام ، وبشيء كثير من احوال الدول التي اعتورت ارض الجزائر خلال العصور التاريخية المتباعدة ، وبمقدار هام يتصل بالدول التي كانت تجاور الجزائر او تتصل بها على نحو او على اخر كدول المغرب وتونس ، ومصر •

(6)

ثانيا : ان الجيلالي لم يفته ان يثبت جداول تاريخية تقيد الحوادث التاريخية الهامة التي وقعت على عهد الدولة التي يؤرخ لها في كل فصل من فصول كتابه الرئيسية ، ولم يعن بالحوادث الداخلية في هذه الجداول فحسب ، وانما عمد الى اثبات فهارس تاريخية تتصل بالدول الاخرى كالدولة العباسية مثلا •••

وهذه امثلة من هذه الجداول :

امراء افريقية وحكامها :

	تاريخ التولية
عمرو بن العاص	٢٢ هـ ـــ ٦٤٣ م.
عبدالله بن سعد بن ابي سرح	٢٧ هـ ـــ ٦٤٨ م.
معاوية بن خديج الكندي	٤٥هـ ـــ ٦٦٥ م.
عقبة بن نافع الفهري	٤٩ هـ ـــ ٦٧٠ م.
ابو المهاجر دينار .	٥٥ هـ ـــ ٦٧٥ م.
عقبة بن نافع الفهري (للمرة الثانية)	٦٢ هـ ـــ ٦٨٢ م [١]

وقد اثبت الجيلالي في ذات الحين جدولا ثانيا في المشرق ، في نفس هذه الفترة الزمنيه :

الخلفـــاء

	تاريخ الولاية
عمر بن الخطاب	١٣ ـــ ٢٣ هـ ـــ ٦٣٤ ـــ ٦٤٤ م.
عثمان بن عفان	٢٣ ـــ ٣٥ هـ ـــ ٦٤٤ ـــ ٦٥٦ م.
علي بن ابي طالب	٣٥ ـــ ٤٠ هـ ـــ ٦٥٦ ـــ ٦٦١ م.
معاوية بن ابي سفيان	٤٠ ـــ ٦٠ هـ ـــ ٦٦١ ـــ ٦٨٠م.
يزيد بن معاوية	٦٠ ـــ ٦٣ هـ ـــ ٦٨٠ ـــ ٦٨٣ م.
معاوية الثاني	٦٣ ـــ ٦٣ هـ ـــ ٦٨٣ ـــ ٦٨٣ م [٢]

وعلى ان هنالك جداول تاريخية اكثر تفصيلا ، وهي خاصة بالوقائع الهامة التي عرفتها افريقيا الشمالية ابان الفتوحات الاسلامية [٣] ،وسواها من الحوادث التاريخية ذات البال ، وانت تستطيع ان تجدها لدى نهاية كل فصل من فصول الكتاب .

وتسائلني عن فائدة كل هذا ، فلا أملك الا ان اسارع الى القول ، بان فائدة هذا عظيمة جدا ، لان القارىء يستطيع ان يجني ثمرة الكتاب التاريخية من اقرب طريق ، وايسر سبيل . فقد وجدنا كثيرا من الكتب

(١) المصدر السابق : ١٧٥/١ .

(٢) المصدر السابق : ١٧٦/١ .

(٣) المصدر السابق : ١٧٧/١ .

التاريخية التي أهملت هذا الجانب الفني ، فقدت كثيرا من الفضل ، وحرمت قراءها من كثير من النفع . واي فرق بين القصة التاريخية والدراسة التاريخية اذا لم تشتمل هذه على بعض هذه الجداول الدقيقة التي تسجل الوقائع تسجيلا تاريخيا قائما على ضبط التواريخ ضبطا مدققا ؟

(7)

وثالثا المحاسن في كتاب الجيلالي ما خصصه من فصول لدراسة النواحي الثقافية ، والحضارية ، والمذهبية خلال الفترة الزمنية التي أرخ لها . فهو بعد ان يعالج المسائل التاريخية البحتة ، يخلص الى الانحاء الفكرية والمذهبية فيتناولها في ايجاز ، ولكنه نافع مفيد . فكان هذا الكتاب من اجل ذلك مصدرا هاما من مصادر المعرفة ليس في مجالي التاريخ والحضارة فقط ، ولكن في الثقافة والفكر بوجه عام ايضا .

وهذه حسنة مشرفة من حسنات الكتاب ، لان المؤرخ الضيق الافق الذي لا يكاد يخرج في كتاباته التاريخية ، عن ذكر الوقائع السياسية والعسكرية للفترة الزمنية التي يؤرخ لها ، بدون التفات الى المناحي الاجتماعية الاخرى المختلفة ، مؤرخ قاصر محروم . فليس التاريخ حوادث سياسية ، ولا معارك حربية ، ولا فتوحات عسكرية فحسب ، وانما التاريخ انصباب شامل على سائر النواحي الهامة التي تعتور امة من الامم في فترة زمنية محددة من جميع النواحي بما فيها الاقتصاد والمجتمع . ويندرج تحت المجتمع التعليم بما يتصل به من ادب وثقافة وتفكير ، والدين بما يعتوره من مذاهب اصلاحية ، وتطورات .

واذ لحن الجيلالي الى تلك الجوانب ، فقد كان ينبغي له ان يلحن ايضا الى الجانب الاقتصادي ، فيخصص لدى نهاية كل فصل حديثا عن المنحى الاقتصادي اثناء كل فترة تاريخية محددة . ونحن وان كنا نعترف بانه كان يشير احيانا الى بعض ذلك اشارات ، فان هذه الاشارات كانت عاجلة ، ولذلك نتمنى ان يعيد الجيلالي النظر في هذه المسألة ، ويشتغل بها ليتداركها في طبعة لكتابه تالية ، فان مثل ذلك سيفيد القارىء ويضفي على كتابه قيمة اكبر .

وعلى اننا لا نريد ان نولي ظهرنا عن هذه الفقرة حتى نستشهد بنص يدعم مذهبنا ويثبت للمؤرخ فضله وجهده ، فقد كان يعني كما اسلفت بالجوانب الحضارية ، ويقف عند منشآتها ومظاهرها طويلا احيانا، وهذا نص يتحدث فيه عن بعض ذلك ، اي عن الحضارة في عهد الاغالبة ، يقول الجيلالي :

الثقافة والحضارة والعمران

يمتاز عصر الاغالبة هذا بكثرة عقد الرحلات في طلب العلم • وكتب التراجم حافلة بذكر اسماء العلماء من اهل المغرب الذين اخذوا علمهم عن مالك ، وابن القاسم ، ومحمد بن الحسن ، وسفيان بن عيينة ، واضرابهم من ائمة المشرق • وشاع يومئذ بين الناس التعليم العام والخاص في المساجد والكتاتيب وغيرها ، وعلى الخصوص علم الفقه والتشريع • ولقد خصص الخليفة المنصور الجزائر ببعثة من الفقهاء ، فجاءت الى هنا ، واستقرت بمدينة مرسى الخرز (القالة) • وكان مما أنيط بهذه البعثة ، علاوة على ما عهد اليها من نشر الاحكام الشرعية بين الناس ، انها تتولى جباية اموال الزكاة • وما فعل ذلك المنصور الا خدمة للدين ، وذلك لعلمه بشدة حاجة الناس اليه يومئذ حيث انهم لا يزالون حديثي عهد بنظام الاسلام وقوانينه التشريعية • فكثير من الجزائريين اشتهروا بالتفوق الادبي ، وحازوا على الرئاسة في العلم ببلدهم وفي غيرها كذلك ، مثل محمد بن حسين الطبني ، واسحاق الملشوني ، واحمد بن علي الباغائي ، وابي القاسم يوسف البكري •••

كما انتشرت يومئذ بالمغرب علوم الحكمة والفلسفة والطب على يد العالم الحكيم ابي يعقوب اسحاق بن عمران البغدادي ••• وعنه اخذ المغاربة الطب والفلسفة • ولا ننس كذلك فضل علي بن نافع الملقب بزرياب وما جاء به من علم وادب وفن الى بلاد المغرب ايام مكثه بالقيروان في طريقه الى الاندلس •••

ثم ان هذه الدولة عرفت كيف تستثمر خلاصة حضارات من تقدمها من الدول العظيمة الكبرى التي حكمت هذه البلاد مثل دولة الفينيقيين

والرومان ، فانها انتفعت بما احدثه هؤلاء من سبل وجهازات للري ، واستفادت كذلك بما جاء به الاعاجم من صناعات النسج والطرز ، وبما خلفه الكنعانيون من اساليب التجارة في البر والبحر والزراعة وغيرها من صناعة البناء ، فاحدثت المساجد والاسوار والقصور والمنائر ...[1] .

فبعض هذا النص الذي اثبتناه يبين لنا مدى الجهود التي انفقها الجيلالي في سبيل الالمام الشامل بسائر الجوانب التي تتصل بالتاريخ السياسي من وجهة او من اخرى . ونحن ، بعد ، لم ننقل كل ما قال حول الحضارة والثقافة والفلسفة على عهد دولة الاغالبة ، لاننا وجدنا النص طويلا ، ولا يوائم روح منهجنا الذي آثرناه لهذا البحث ، ولو اثبتناه كله لاقتنعنا بان الجيلالي كان كثير التوفيق في تحلية كتابه بهذه النفحات الحضارية المشرقة ، بالرغم من انها لم تك واسعة ولا عميقة ولا مدققة . وهذا امر يفرضه عليه موضوعه العام الواسع . فلو حاول ان يفصل اكثر مما فصل لخرج كتابه في مجلدات ضخام .

(9)

ورابع محاسن هذا الكتاب خلوه من الانفعالات العاطفية ، لان المؤرخ ينبغي له ان يتحلى بصفة الهدوء والتروي في معالجة الوقائع التاريخية وتحليلها تحليلا موضوعيا هادئا رزينا . فان رأيت مؤرخا مندفعا اندفاعا عاطفيا ، كثير النعوت للاشياء ، فاعلمن انه شاعر بعيد عن علم التاريخ .

ونحن نعترف بان هناك حوادث عنيفة جدا ، يعسر ان يلم عليها المؤرخ ويعالجها دون ان تضطرب نفسه اضطرابا مريعا ، فان من الحوادث لما يؤز الجبال ، وان منها لما تجزع له النفوس ، ولكن المؤرخ يجب ان يكون قويا هادئا لا ينفعل ولا يجزع ، ولا يضطرب ولا يعجل . وانما ينظر الى الوقائع كلها نظرة رزينة ، ثم يحللها تحليلا هادئا ، ويعللها تعليلا منطقيا ، ليخرج منها بعد ذلك باحكام موضوعية اقرب ما تكون الى الحق .

---

(١) المصدر السابق : ١/٢٦٩ - ٢٧٢ .

اي اننا نريد مؤرخا محايدا ، فعلينا ان نكتب تاريخنا بروح محايدة كانه لا يتصل بنا ، حتى لا نقع فيما وقع فيه الغربيون حين قاموا يكتبون عنا ، فان كثيرا مما كتبوا مفعم بالعاطفة والهوى والانفعال والحقد والعصبية •

(10)

وخامس محاسن الكتاب استشهاده بالنصوص الكثيرة الطويلة المختلفة التي تؤيد مذهبه ،أو تدعم حجته فيتقرير رأي ، أو اصدار حكم• ولم تك هذه النصوص تاريخية كلها ، بل ان المؤرخ عول على النصوص الادبية كثيرا • وقد عول على النصوص الشعرية بوجه خاص • وهذه طريقة ناجحة في تعجيل وقائع التاريخ ، لان المؤرخ البارع ينبغي له ان لا يحجم عن الاستعانة بالنصوص الادبية في تفسير حادثة ، او للتدليل على امر ذي بال •

فالتاريخ مادة تعول على كل شيء ، لانها هي نفسها تسجل كل شيء • ونحن نحسب ان النصوص الادبية اكثر فائدة للمؤرخ ، اذا عثر عليها بالقدر الكافي ، وعلى النحو الذي يريد ، من النصوص التاريخية البحتة نفسها • ولو تأملت هذا الرأي لوجدت فيه كثيرا من الحق ، لان النصوص التاريخية تكتب كتابة مقصودة ، على حين ان النصوص الادبية تكتب لغير غاية تاريخية غالبا • فالشاعر حين يقرض قصيدة يتناول فيها موضوعا معينا ، لم يصدر في ذلك من اجل غاية تاريخية • وانما أتى ما أتى ، لانه كان مدفوعا بشعور باطني قوي ليصور حادثة معينة ويسجلها وكثيرا ما يكون هؤلاء الشعراء او الكتاب المنشئون صادقي الشعور والاحساس في تصويرهم للمجتمعات التي يضطربون فيها ، وفي وصفهم للمناظر المادية وللوقائع التاريخية التي يحيونها ويرونها عن كثب • وليس ينبغي ان يرتاب في هذه المسألة احد من علماء التاريخ ، اذ كان الشعراء والكتاب لا يصفون الا ما يشاهدون ، ولا ينطقون ــ في معظم الاحوال العادية ــ الا بما يعتقدون •

في حين ان المؤرخين كثيرا ما يكتبون عن ازمنة لا يعيشون فيها ، ويخوضون في امر مجتمعات لم يتصلوا بها ، حياتهم ، من قريب او بعيد ،

ويتناولون امورا يصطنعون في تحليلها الظن والعقل ، اكثر مما يعولون فيها على المشاهدة والمخالطة والمعايشة . فاذا جاء مؤرخ اخر بعد هؤلاء ، ونقل نصوصهم واعتمد على ارائهم في بحوثه التاريخية ، فانه لا يأمن خطأ هذه النصوص ، فيتضاعف الخطأ وينضاف بعضه الى بعض ، فتكتظ الكتابات التاريخية بالاباطيل .

(11)

وليس معنى ذلك ان كل نص تاريخي ينطبق عليه هذا الحكم ، فان هناك نصوصا صحيحة ثابتة لا مطعن فيها ، ولا نعي عليها بوجه ، وانما معناه ان كثيرا من هذه النصوص ينبغي الحذر منها ، في اصدار حكم او تقرير رأي . والافضل ان تدعم النصوص التاريخية بسواها من النصوص الادبية ، ونصوص كتب الرحلات ان وجدت وتوفرت ، فان كتاب الرحلات من اصح الكتب التاريخية وارقاها ، واسلمها من الطعن ، وابعدها عن الريب .

(12)

ولعل الجيلالي كان يدرك بعض ذلك حين لم يعول على النصوص التاريخية المحضة وحدها ، وانما عمد الى النصوص الشعرية فسخرها لاغراضه التاريخية . وقد رأينا ان مثل هذه الخطة مما ينبغي ان يكون موفقا محمودا ، بالرغم من اننا لا نعدم من يعترض من المؤرخين على هذه الطريقة ، ويطعن فيها طعنا . وانا اقول لهؤلاء المعترضين ، اذا جئتم لتبحثوا في مستوى المعيشة ، والحالة الاقتصادية لمجتمع ما بوجه عام ، في تاريخ القرون الوسطى ، فهل كنتم تستطيعون ان تعثروا على احصائيات ونشرات رسمية بهذا الشأن فتضربوا صفحا عن الشعر الذي كان يسجل مثل هذه الامور وينصب عليها من حيث يشعر او من حيث لا يشعر ؟

ارأيت اننا استطعنا بفضل الادب والشعر والغناء ، ان نعرف مستوى المعيشة على عهد هارون الرشيد ، وان هذه المعيشة كانت رخيصة بحيث كان يكفي الرجل وزوجه من عامة الناس ، في العام الواحد ، ثلاثمائة درهم ، فكانت ثلاثة الاف درهم تكفي زوجين ، على ذلك العهد ، لعشر

سنين ؟ [1] .

(13)

ومما استدل به الجيلالي من نصوص شعرية ما اورده من ابيات للساعر ابي عبدالله محمد بن حبوس قالها حين فتح عبد المؤمن الموحدي مدينة بجاية وقد فر منها صاحبها يحيى بن عبد العزيز راكبا زورقا ، ميمما اخاه الحارث الذي كان واليا على عنابة [2] ، يقول ابن حبوس :

مَنِ القومُ بالقرب تصغي إلى	حديثهم اذن المشرقِ ؟
جروا والمنايا الى غايــة	فلم يسبقوهــا ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبــة	فمهما تُصِبْ باطِلاً تُحْرِقِ
يقودهمُ مِلــك اروع	تفرَّدَ بالسُّؤْدَدِ المطلقِ
تخيّره الله مــن آدم	فمــا زال مُنْحَدِراً يَرْتَقِي
إلى « الناصرية » سِرْنا معا	ولّمــا تَفُتْنا ولم تلحق
إلى برزة في ذُرَى أرعن	تجل عن السور والخندق
يعوذون منّا بمَوْلاهُمُ	ومولاهُمُ عَاذَ بالزَّوْرَقِ ...
واكسبه خوفــه خِفَّــةَ	فلو خاضَ في البَحْرِلم يَغْرَقِ [3]

(14)

لسنا نريد ان نعلق على قيمة هذه القصيدة الادبية ، فقد رأينا الشاعر الذي كان يرافق عبد المؤمن التجأ فيها الى كثير من الضرورات الشعرية واستغلها استغلالا مفرطا ، فقد كسر المضارع ، وصرف ما لا ينصرف ، وجعل المهابط مرتقيات ، حين قال :

---

(١) انظر كتاب مصارع العشاق : ١/٢٤٠ ـ ٢٤١ ففيه نص هام ستفاد منه مستوى المعيشة عند الفرد على عهد الرشيد .

(٢) تاريخ الجزائر العام للجيلالي : ٢/٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٣) المصدر السابق : ١/٣٨٧ وما بعدها .

فما زال منحدرا يرتقــي

وكيف يستطيع المنحدر باستمرار انيرتقي الى العلاء في ذات الحين ؟ اللهم الا اذا كان جلمود امرىء القيس الذي شبه به فرسه في الكر والفر والاقبال والادبار • ويبدو ان ابن حبوس كان اقرب الى الصنعة النحوية منه الى الصنعة الادبية • تستطيع ان تلمس ذلك في قوله خصوصا :

فمهما تصب باطلا تحرق

فقد استطاع الشاعر ان يجيء بفعل الشرط وجوابه معا في مصراع واحد ، وهذا ضرب من الانتصار • وتستطيع ان تلمس ذلك ايضا فيهذه الافعال المكسورة ، وفي هذه الممنوعات المصروفة •••

لسنا نريد ان نتتبع مثل هذا ، لانه يخرجنا عن دائرة بحثنا ، وانما نريد ان نقرر بان هذه المقطوعة استطاعت ان تعطينا صورة مصغرة ، ولكنها واضحة ، عن كيفية فرار يحيى بن عبد العزيز الحمادي من بجاية ، وعن موقع بجاية الجغرافي ، وعن شجاعة جنود عبد المؤمن الذين كانوا كالقدر المحتوم ، لا يمرون بارض الا فتحوها ، ولا يتقاتلون مع جيش الا هزموه وانتصروا عليه •

(15)

اننا لا نحسب اننا أحطنا الماما بكل العناصر الحسنة في كتاب الجيلالي ، فمثل هذه الدراسة العابرة العامة لا تتيح لنا ذلك وتمكننا منه، ولكننا جاهدنا نفسنا جهادا شاقا لنتبين بعض مواطن الاجادة والتوفيق في تاريخ الجزائر العام ، فاثبتناها عاجلين •

(16)

واما الان فنود ان نعود الى الكتاب تارة اخرى ، وننظر اليه نظرة اخرى تختلف كل الاختلاف عن النظرة الاولى ،لندلل فيه على مواطن ضعف وقصور ، بعد ان دللنا على مواطن قوة وتجويد •

واول مواطن الضعف في هذا الكتاب ، ان صاحبه لم يعن فيه عناية فائقة بالخرائط الجغرافية التي تضطرب فيها الحوادث اضطرابا • فلا تزال الجغرافية مضطربا للوقائع التاريخية ، اذ كانت تشكل في الدراسات التاريخية العنصر المكاني ، في حين ان الحوادث تمثل العنصر الزماني •

ولعل من حق قارىء التاريخ على المؤرخ ان يرسم له الامكنة التي كانت مدارا للوقائع ، التاريخية على اختلافها . وما كان للقارىء على المؤرخ هذا الحق ، حتى كانت الدراسة التاريخية شديدة الارتباط قوية الصلة ، وثيقة العلاقة بالخرائط الجغرافية التي ينبغي ان تكون بمثابة الضياء الذي يضيء ما حوله من احياء واشياء .

والناس عامةاشد الماما بالتاريخ منهم بالجغرافيا ،بالقياس الىالاماكن البعيدة التي لم تقع عليها اعينهم ، لان التاريخ يشبه ان يكون قصة انسانية متصلة الحلقات ، على حين ان الجغرافيا علم قائم بنفسه لا يتقنه الا من درسوه وعنوا به عناية شديدة . فكان من اجل ذلك رسم الخرائط التاريخية في مثل هذا الكتاب الذي نتحدث عنه امرا محتوما .

حقا ، لقد حاول الجيلالي ان يرسم بعض الخرائط في كتابه ، ولكن عددها كان قليلا جدا . ولو انصف المؤرخ قراءة لرسم لهم لكل دولة حكمت الجزائر خارطة ، ولا اطمع ان اقول : لكل معركة تاريخية نشبت على تراب الوطن الجزائري .

واحسب انني لا اجد من يخالفني في هذا الرأي ، لان التاريخ شديد الارتباط ، كما اسلفت ، وكما يعرف الناس جميعا ، بالجغرافية .

(17)

وقد وقع الجيلالي في بعض ما وقع فيه الميلي ايضا : من اهمال لذكر المصادر التي استقى منها ، او اهمال لصفحاتها في حال ذكرها . ولنأخذ مثلا لذلك حين يذكر الجيلالي نصا لبيروني دون ان يومىء الى الكتاب الذي ذكره فيه بيروني ، ولا الى صفحة الكتاب قبل ذلك [١] .

وقد تكرر مثل هذا مرارا ، ويستطيع الباحث ان يعثر عليه فياماكن متفرقة من هذا مرارا هذا الكتاب [٢] .

---

(١) المصدر السابق : ١٨٩/١ .

(٢) المصدر السابق : ٣٠٠/١ ، فإنه أغفل هنا رقم صفحة كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لادم متز المستشرق السويسري الجنسية ، الألماني اللسان .

اما المخطوطات التي كان الجيلالي يستقي من بعضها . فلم يحسن
ربىء الى مواطن وجودها بتاتا . مع انها اهم واثمن من المطبوعات . ومن
حق القارىء الباحث ان يعرف مكـانها . فقد يفيد منها اعظم الفـائدة
واكبرها [1] .

وعلى ان من الانصاف ان نعترف بان مثل هذا الاهمال لذكر المصادر
وصفحاتها . لم يك ديدنا متبعا في سائر مواطن الكتاب . بل ان الجيلالي
كثيرا ما كان يشير الى المصادر اشارة علمية مدققة . ولكن هذا لا يمنع
تقرير ما قررنا من قبل . لانه حقيقة ثابتة في الكتاب .

(18)

ومن عناصر الضعف في هذا الكتاب خلوه من التحليل العلمي او
المنطقي لسير الحوادث التاريخية التي كان الجيلالي يمر بها او يعالجها .
مع انه كان قد وعدنا في مقدمته [2] بانه سيحلل الحوادث ويعللها تعليلا .
فقد كان المؤرخ كثيرا ما يجتزىء بعرض الحوادث دون تعليق دقيق . ولا
تعليل عميق . ولولا التعليق على الوقائع التاريخية وتعليلها . لكان التاريخ
قصة خيالية لا مجال فيها للعقل ولا للعلم .

انظر اليه حين يتحدث مثلا عن اصطدام الدعوة الشيعية بالاموية في
الجزائر ، فانه يعرض وقائع كثيرة دون ان يبين اسبابها ومسبباتها ، ودون
ان يوضح علل هذا الاصطدام المذهبي العنيف الذي نشأ عنه اصطـدام
عسكري . يقول الجيلالي :

كان المغرب العربي في اوائل القرن الرابع الهجري محط انظـار
الدعوات السياسيين من الامويين والشيعة ، يزدحمون عليه ويتسابقون
بينهم في مد ايديهم اليه ، فانه بعد ما تمكن العبيديون من دولة الادارسة
والاغالبة بالمغرب ، وبلغت دولتهم الى شواطىء المحيط وسبتة ، واخذت
تهدد الاندلس . وكان الثوار في الاندلس يومئذ يفاوضون العبيديـن
ويتآمرون معهم على الدعوة لهم ، اسرع عبد الرحمن الناصر الخليفـة
الاموي الى دفع هذا الخطر عن دولته فنزل بساحل افريقية ، وفتـح

---

(١) المصدر السابق : ٢/٢٠٠ (ذيل) .
(٢) المصدر السابق : ١/٧ .

مليلة سنة ٣١٤ هـ ٩٢٤ م. وبث دعاته هناك فاخترقوا المغرب الى بلاد الجزائر فلباهم صاحب ارشقول فرضة تلمسان .. وهو يومئذ ادريس بن ابراهيم ، واقتفى اثره في ذلك الحسن بن ابي العيش صاحب جراوة ، وموسى بن ابي العافية صاحب المغرب الاقصى ، ومحمد بن خرز المغراوي عاهل زناقة ، فنشبت يومئذ حروب بين الشيعة ودعاة الاموية في هذه الامارات المذكورة ، فانهزم فيها هؤلاء وخضعوا للشيعة ، ثم عادت زناقة الى الدعوة الاموية لما كان للامويين عليها من الولاء من عهد هجرة اميرها الخير بن خزر ، وحميد بن يصل على رفض دعوة العبيديين ، فحوصرت يومئذ تيهرت ، واحتلت وهران ، واقيمت بهما دعوة للامويين سنة ٣٣٣ هـ ٩٤٥ م. واخذت البيعة للخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله صاحب قرطبة . وكان العبيديون يومئذ في شغل عن هذا مهتمين بحروب ابي يزيد الخارجي . وبعد ما قضوا عليها ، عمدوا الى القضاء على الدعوة الاموية القائمة بالمغرب ، فخرج المنصور بنفسه سنة ٣٣٦ هـ ٩٤٧ م ، ونزل بسوق حمزة - قرب البويرة من عمالة الجزائر - ومعه زيرى الصنهاجي في جموعه . وهناك اخذ الخليفة في حشد الجنود ، وجمع العساكر مندفعا نحو تيهرت ، فاخرج حميد عنها ، وعقد المنصور عليها ليعلى بن محمد اليفرني كما انه عقد لزيرى بن مناد الصنهاجي على قومه ، وسائر بلاد صنهاجة (١) .

(19)

فمثل هذا النص يثبت لنا بان الجيلالي لم يكن يعنى بشرح الاسباب والعلل ، وانما كان ينهمك في عرض الوقائع وحشدها بصورة عابرة خالية من التعليق الشخصي ، والتحليل العلمي المنطقي .

فما هي الدوافع التي دفعت ابا يزيد الخارجي للثورة ضد العبيديين؟ واذا كان ديدن الخوارج معروفا لدى الخاص والعام ، وهو الثورة ، فما هي علة انتصار العبيديين على هؤلاء الخوارج ؟ وما هي علة انهزام الخوارج امام جيوش العبيديين ؟ فهل كان ذلك عائدا الى قلة في العدد ، او الى

---

(١) المصدر السابق : ٢٩٤/١ - ٢٩٥ .

ضعف في القوة ، او الى سوء قيادة ، او الى كل ذلك جميعا ؟

ثم ما شأن الامويين في الاندلس بالجزائر والاستيلاء عليها بقوة السيف ؟ ولم استطاع العبيديون ان يستعيدوا امارات الامويين بسهولة ويسر ؟وكيف ركب المنصور نفسه في المرة الثانية ليحارب ولم يجتزىء بارسال جيشه وحده ؟

ان كل هذه الاسئلة وكثيرا مثلها ، ظلت قائمة في ذهن القارىء بدون جواب . ولو عمد الجيلالي الى تحليل هذه الوقائع التاريخية الغنية الخصبة ، تحليلا علميا لافادنا كثيرا من العلم ، ولقدم بين ايدينا دراسة ممتعة للعقل والشعور جميعا .

والذي يقدم اليك الخبر التاريخي بدون تحليل كالذي يقرأ عليك اخبارا كثيرة ، في اذاعة منحطة ، حول مظاهرات واضرابات في بلد ،بدون ان يعلق عليها ، ويوضح اسبابها وعللها .

ان فن التحليل والتعليق يجب ان يدرس مع التاريخ ، وذلك ما تحاول الجامعات اليوم ان تفعل ، ولكن الجامعة لا تستطيع ان تصنع للطلاب شيئا ما لم يوسعوا معارفهم ، ويعملوا عقولهم حين يتخرجون .

وعلى ان الجيلالي كان لا يألو جهدا في تحليل بعض الوقائع حين كان يتاح له النشاط الفكري ، والصفاء الذهني . وانت تستطيع ان تعثر على بعض ذلك في عدة مواطن من كتابه . ولكن ذلك لم يكن الا بمقدار [1] .

(20)

ثم ان الجيلالي ذكر الدولة الموحدية اخر ما ذكر من دول في كتابه ، ولو انصف المنهجية العلمية لذكر الدولة الموحدية قبل الدولة الزيانية ، اذ كانت الزيانية تبتدىء حياتها من حيث تنتهي حياة الاخرى ، لان المؤرخ ملزم باحترام التسلسل الزمني .

ثم انه لم يتناول الدولة التركية في الجزائر ، وقد كان ينبغي انيصل بتاريخه الى يوم الاحتلال الفرنسي المشؤوم . ونحن لا نطالبه بمعالجة الاحتلال الفرنسي انئذ ، مخافة ان يكون شديد التقية والاشفاق من

---

(1) المصدر السابق : ٢/٢٠٠ .

المستعمرين فلا تكون كتابته نزيهة حرة • اما عهد الاتراك ، فانه دين عليه حتى يؤديه للقراء • بل اننا لا نتردد اليوم ان نهيب به ليخصص جزءا ثالثا يتناول فيه عهد الاتراك ، وعهد الفرنسيين • فاننا نريد ان تكون لنا عدة مؤلفات في التاريخ الجزائري ، لنقارن بينها ، ولنجد في احدها ما قد لا نجده في الاخر • والبقاء للاصلح •

وقد وجدنا الجيلالي يصطنع عبارات وألفاظا لم تعجبنا ، لانها خرجت عن سنن الاستعمال الفصيح الصحيح ، فمن ذلك انه اعاد الضمير على متأخر في قوله : ثم توالت الغزوات والهزائم على السواحل المغربية ، واشهرها بالجزائر تلك الحملة الشعواء التي ترأسها ، وانفق عليها من امواله الخاصة : الكاردينال كسمينس نفسه [١] ، فقد رأيت انه اعاد ضمير « امواله » على الكاردينال • مع ان هذا الكاردينال كان متأخرا • والاصل في الضمائر المسكينة انها لا تعود الا على متقدم • وقد شاع هذا الخطأ الذي تسرب الى العربية عن طريق الفرنسية بين المذيعين الضعفة ، والكتاب غير الملمين •

ومن ذلك ايضا « احتار » [٢] • وهذه لغة عامية شاعت بين المغنين في المشرق • ولم نقرأ في العربية الصحيحة العالية ، ولا في القرآن الكريم الذي استعمل هذه المادة ايضا ، مصاغة على وزن « افتعل » • وانما الصحيح فيها ان يقال : حار • ومنه قوله تعالى : « كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران » [٣] • وقد قال الزمخشري « حار الرجل في امره فهو حائر وحيران ، وامرأة حيرى ، وهم وهن حيارى • وحيرته فتحير ، وحار بصره •• » [٤] •

(21)

وقد وجدنا العوام في الجزائر يصطنعون هذه المادة اصطناعا فصيحا، فيقول احدهم للاخر : « حيرني امر فلان » ، ويقول : « اني حيران » •

---

(١) المصدر السابق : ١٩٨/٢ .

(٢) المصدر السابق : ١٨٩/١ .

(٣) سوره الانعام : ٧١ •

(٤) اساس البلاغة (حير)

فيا عجبا كل العجب من لغة يصيب فيها العوام ، ويخطىء الخواص •

وهناك هنات اخرى كثيرة نعف عن ذكرها هنا ، ورجاؤنا ان يعود الجيلالي الى لغة كتابه فينقح بعض ما فيها من غث وهو قليل جدا ، ليكون الكتاب في الطبعة التالية اقرب الى الكمال •

(22)

ان هذه الجولة الممتعة التي قمنا بها في ثنايا كتاب تاريخ الجزائر العام للجيلالي ، جعلتنا نذهب الى ان هذا التاريخ ذو شأن أي شأن في النهضة الثقافية الجزائرية المعاصرة • فقد انفق الجيلالي من الوقت ، وعانى من الجهد ، في تأليف هذا الكتاب ، ما تشهد به مادته الخصبة ، ومعارفه الواسعة ••فهو كتاب هام لا غنى عنه لاحد يريد ان يلم بتاريخ الجزائر خلال اطوار التاريخ المتباعدة التي عالجها •

ونحسب مخلصين ، ان الجيلالي قد أدى بهذا الكتاب لنهضتنا الثقافية المعاصرة في الجزائر صنيعا عظيما •

كشاف لاهم الوقائع الادبية التي حدثت بين :

٢٥ ـ ١٩٤٥ [(١)]

١٩٢٥ : صدور جريدة المنتقد الاسبوعية لابن باديس (توقفت بعد ثمانية عشر اسبوعا) .

١٩٢٥ : صدور جريدة «الجزائر» للزاهري .

١٩٢٥ : ظهور « الشهاب » خلفا للمنتقد التي صادرها الاستعمار الفرنسي .

١٩٢٦ : صدور كتاب « قرطاجنة في اربعة عصور » لاحمد توفيق المدني .

١٩٢٩ : صدور كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي .

١٩٣١ : صدور كتاب الجزائر لتوفيق المدني .

١٩٣١ : تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بنادي الترقي بالجزائر في ٥ مايو .

١٩٣٥ : ظهور جريدة البصائر الاولى .

١٩٣٩ : توقف مجلة الشهاب لابن باديس ، وهي المجلة التي عمرت نحو خمسة عشر عاما .

١٩٣٩ : توقف جريدة البصائر الاسبوعية لقيام الحرب العالميةالثانية

١٩٤٠ : وفاة ابن باديس بقسنطنة (في ١٦ ابريل) .

١٩٤٥ : وقوع أول ثورة شعبية قتل الاستعمار فيها من الشعب الجزائري ستين ألف مواطن .

١٩٤٦ : وفاة الشيخ مبارك الميلي متاثرا بمرض السكر والسرطان[(٢)]

١٩٤٧ : تأسيس معهد ابن باديس بقسنطينة .

---

(١) لم ارد ان التفت الى الحوادث السياسية ، لان ذلك يخرجني عن الغاية التي اردت من وراء اثبات هذا الكشاف في هذا المقام . وعلى انه من الممكن ان تكون هناك وقائع ادبية هامة اغفلتها ، ولعلي ان اتدارك ذلك في حين اخر ان شاء الله .

(٢) وقبل سنة ١٩٤٥ (انظر البصائر : السلسلة الثانية ـ العدد ٦ ، ص ٢ .

١٩٤٧ : صدور أول رواية عربية جزائرية (غادة أم القرى لحوحو)

١٩٤٧ : صدور جريدة البصائر من جديد ، باشراف الابراهيمي •

: صدور مجلة افريقيا الشمالية •

١٩٥٣ : صدور كتاب « مع حمار الحكيم » لرضا حوحو بقسنطينة

١٩٥٤ : صدور كتاب « صاحبة الوحي وقصص اخرى » لحوحو ايضا بقسنطينة •

١٩٥٤ : قيام الثورة المباركة التي ادت الى استقلال البلاد (في فاتح نوفمبر) •

١٩٥٦ : استشهاد الكاتب حوحو ، بعد ان قتله الفرنسيون بقسنطينة في محنة عظيمة •

اهم مصادر هذا البحث

١ ــ مجالس التذكير لابن باديس : قسنطينة (الجزائر) ١٩٤٨ •

٢ ــ الشهاب (مجلة ــ وهي مجموعة ضخمة تقرب من مائة عدد)

٣ ــ البصائر (جريدة اسبوعية ــ وهي مجموعة ثلاث سنوات ٤٧ ــ ٤٩) •

٤ ــ افريقيا الشمالية (مجلة شهرية كانت تصدر في الجزائر) •

٥ ــ تفسير ابن باديس : نشر دار الكتاب الجزائري ١٩٦٤ الجزائر

٦ ــ تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي ، نشر مكتبة النهضة الجزائرية ــ الجزائر : ١٩٦٣ •

٧ ــ تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي : نشر شركة مرازقة ، الجزائر : ١٩٦٥ •

٨ ــ كتاب الجزائر لتوفيق المدني : دار المعارف بمصر : ١٩٦٣ •

٩ ــ الموسوعة العربية : القاهرة ١٩٦٥ •

١٠ ــ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام ، تحقيق محمود محمد شاكر ــ دار المعارف بمصر : ١٩٥٢ •

١١ ــ عيون البصائر لمحمد البشير الابراهيمي : دار المعارف بمصر ١٩٦٣ •

١٢ ــ نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة : لمحمد علي دبوز ، المطبعة التعاونية : ١٩٦٥ •

١٣ ــ مع حمار الحكيم ، لاحمد رضا حوحو : قسنطينة : ١٩٥٣ •

١٤ ــ صاحبة الوحي وقصص اخرى ، لحوحو ايضا : قسنطينة : ١٩٥٤ •

١٥ ــ حماري قال لي لتوفيق الحكيم : مطبعة السعادة بمصر :١٩٤٥

١٦ ــ معجم البلدان لياقوت الحموي ، مطبعة السعادة بمصر : ١٣٢٣ هـ ــ ١٩٠٦ •

١٧ ــ الجيش : مجلة تصدر بالجزائر ، اعداد مختلفة •

١٨ ــ القبس : مجلة تصدر بالجزائر في الوقت الراهن (اعداد

مختلفة) .
١٩ ــ المجاهد الثقافي : مجلة تصدر دوريا في الجزائر (عدد ١ــ٨)
٢٠ ــ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : نشر مكتبة دار الحياة، بيروت : ١٩٦٣ .
٢١ ــ رسالة الشرك ومظاهره لمبارك الميلي : مكتبة النهضة الجزائرية ١٩٦٦ .
٢٢ ــ القصة في الادب العربي القديم ، لعبد الملك مرتاض : نشر شركة مرازقة : الجزائر ــ ١٩٦٨ .
٢٣ ــ ابن باديس الرجل الذي ايقظ امة : لعبد الملك مرتاض (مخطوط) .
٢٤ ــ انتشار الاسلام والعروبة في القارة الافريقية ، تاليف الدكتور حسن ابراهيم حسن : القاهرة : ١٩٥٧ .
٢٥ ــ البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق السندوبي ، الطبعة الثالثة : القاهرة ــ ١٩٤٧ .
٢٦ ــ الحيوان للجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة : ١٩٣٨ ــ ١٩٤٥ .
٢٧ ــ اصلاح المنطق لابن السكيت ، دار المعارف بمصر : ١٩٥٦ .
٢٨ ــ تراث ابن باديس ، اعداد عمار الطالبي ، نشر شركة مرازقة ، الجزائر : ١٩٦٨ .
٢٩ ــ البينة (مجلة مغربية انقطعت عن الصدور بعد ان صدر منها عشرة اعداد فقط ، آخرها صدر بالرباط في رمضان ١٣٨٢ ــ فبراير ١٩٦٣) .
٣٠ ــ حرب الثلاثمائة سنة لتوفيق المدني : الجزائر ١٩٦٨ .
٣١ ــ ديوان المتنبي شرح عبد الرحمن البرقوقي ، القاهرة .
٣٢ ــ القرآن الكريم .
٣٣ ــ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة : ١٩٣٩ .
٣٤ ــ الكامل لابي العباس المبرد ، القاهرة (نشر المكتبة التجارية الكبرى) .

٣٥ ـ ديوان عنترة : تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي ـ القاهرة
٣٦ ـ اساس البلاغة للزمخشري ، نشر دار صادر بيروت : ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥ ٠
٣٧ ـ لسان العرب لابن منظور ، مصور عن طبعة بولاق ـ القاهرة
٣٨ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ، تحقيق احمد امين ـ الابياري ، القاهرة : ١٩٤٠ ـ ١٩٥٣ ٠
٣٩ ـ الكشاف في التفسير للزمخشري ؛ بيروت : ١٩٤٧ ٠
٤٠ ـ مصارع العشاق لابي محمد جعفر بن احمد الحسن السراج، بيروت : ١٩٥٨ ٠
٤١ ـ سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ـ المطبعة الجزائرية الاسلامية
٤٢ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان
تعريب نبيه امين فارس ـ منير البعلبكي
دار العلم للملايين بيروت ـ ١٩٦٥
٤٣ ـ هذه هي الجزائر لاحمد توفيق المدني القاهرة ـ ١٩٥٩
٤٤ ـ قصة الجزائر تأليف محمد بن عبد القادر الجزائري ـ تعليق د٠ ممدوح حقي ـ بيروت ـ ١٩٦٤
٤٥ ـ المعرفة (اعداد مختلفة)
٤٧ ـ القبس (اعداد مختلفة ٠٠٠)
٤٨ ـ المجاهد الاسبوعي (اعداد مختلفة)
٤٩ ـ المقاومة (جريدة اسبوعية كانت تصدر ابان الثورة ٠٠ اعداد مختلفة) ٠
٥٠ ـ المجاهد (جريدة اسبوعية خلفت المقاومة وكانت تصدر بتونس) ٠
٥١ ـ الحركة الوطنية الجزائرية د٠ ابو القاسم سعدالله ـ بيروت
٥٢ ـ تاريخ الادب الجزائري محمد التمار ـ نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ٠



أهم المصادر والمراجع

١) **الكتـــب :**

ـ الألـف ـ

١) آثار ابن باديس ـ تحقيق الدكتور عمار طالبي ـ نشر شركة مرازقة الجزائر : ١٩٦٨ .

٢) أدباء من الجزائر للدكتور ابراهيم الكيلاني (سلسة اقرأ) رقم ١٩٢ (دار المعارف بمصر ١٩٥٨) .

٣) أساس البلاغة لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ـ دار صادر وبيروت ١٣٨٥ - ١٩٦٥ .

٤) الاستقلال للجزائر ـ لريمون آرون وانطوني ناتنغ ـ ترجمة جان غبريل بيروت ـ ١٩٥٨ .

٥) الاسلام في حاجة الى دعاية وتبشير لمحمد السعيد الزاهري ـ مطبعة الاعتدال ـ دمشق ـ ط ٢ : ١٩٣٣.

٦) الامام عبد الحميد بن باديس للدكتور محمود قاسم ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة : ١٩٦٨ .

٧) تاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمار ـ ش. و. ن.ت. الجزائر ١٩٦٩ .

٨) تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) للدكتور أبي القاسم سعد الله ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٧٠ .

٩) تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن محمد الجيلالي (الجزائر) وقد طبع هذا الكتاب ثلاث طبعات أولها كانت بالجزائر في سنة ١٩٥٥ .

١٠) تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلي (١٩٢٩ - ١٩٣٢) بقسنطينة ثم طبع طبعة ثانية في سنة ١٩٦٣ .

١١) تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان ـ ترجمة أمين فارس ـ منير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٥ .

١٢) تاريخ الصحافة في الجزائر للزبير سيف الاسلام : ش . و . ن . ت . ١٩٧١ .

١٣) تحفة الزائر ، في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر لمحمد بن عبد القادر الجزائري ـ تحقيق الدكتور ممدوح حقي ـ دار اليقظة العربية ١٩٦٤ .

١٤) تفسير ابن باديس (تحقيق محمد الصالح رمضان وتوفيق شاهين) نشر دار الكتاب الجزائري ـ الجزائر ١٩٦٤ .
١٥) الجزائر حتف الاستعمار تأليف ليون فيكس ، ترجمة محمد عيتاني ـ نشر مكتبة المعارف بيروت (أهمل تاريخ الطبع) .
١٦) الجزائر في مرآة التاريخ ، تأليف عبد الله شريط ومحمد الميلي ـ نشر مطبعة البعث بقسنطينة ١٩٦٥ .
١٧) الجزائر في معركة التحرير ـ توزيع دار الكتب الشرقية ـ تونس ١٩٥٧ .
١٨) جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة .

ـ الحـــاء ـ

١٩) حرب الثلاثمائة سنة لأحمد التوفيق المدني ـ نشر مطبعة البعث بقسنطينة : ١٩٦٨ .
٢٠) الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور أبي القاسم سعد الله ـ بيروت دار الآداب ١٩٦٩ .
٢١) حماري قال لي لتوفيق الحكيم ـ المطبعة النموذجية ـ القاهرة ١٩٤٥ .
٢٢) حنبعل (مسرحية) لأحمد توفيق المدني ـ المطبعة العربية الجزائر : ط ١ ـ ١٩٥٠ .

ـ الخـــاء ـ

٢٣) الخنساء (مسرحية تاريخية) لمحمد الصالح رمضان (مخطوط يوجد بمكتبتنا) .
٢٤) دراسات في الأدب الجزائري الحديث للدكتور أبي القاسم سعد الله ـ دار الآداب ـ بيروت ١٩٦٦ .
٢٥) دراسات في الشعر الجزائري الحديث للدكتور عبد الله ركيبي ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة (أهمل تاريخ الطبع) .

ـ الـــذال ـ

٢٦) ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب لعبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، المطبعة العربية ـ الجزائر ١٩٣٣ .

ـ الـــراء ـ

٢٧) رسالة الشرك ومظاهره لمبارك الميلي . مكتبة النهضة الجزائرية ـ الجزائر ١٩٦٦ .
٢٨) رسالة الضب لمحمد البشير الابراهيمي ـ (سحبها على الآلة الساحبة بالجزائر محمد الطاهر فضلاء : ١٩٧٢) .
٢٩) رواية الثلاثة (مسرحية هزلية شعرية) لمحمد البشير الابراهيمي (سحبها الشيخ الجيلالي بن محمد الفارسي على الآلة الساحبة : ١٩٧٢) .

ـ السيـــن ـ

٣٠) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، تحرير محمد البشير الابراهيمي نشر جمعية العلماء ـ الجزائر ـ طبع المطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة : ١٩٣٥ .

- الشيـــن -

٣١) شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، لمحمد الهادي السنوسي طبع المطبعة التونسية - تونس : ١٩٢٦ .

٣٢) الشيخ عبد الحميد بن باديس للدكتور تركي رابح - ش. و. ن.ت. الجزائر ١٩٧٠

- الصـاد -

٣٣) صاحبة الوحي وقصص أخرى لأحمد رضا حوحو - طبع المطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة : ١٩٥٤ .

٣٤) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) تأليف اسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - طبع دار الكتاب العربي بمصر ١٩٦٥ .

- العيـن -

٣٥) العقائد الاسلامية من الآيات القرآنية لأبن باديس - تعليق وجمع محمد الصالح رمضان - الشركة الجزائرة (مرازقه) : ١٩٦٦ .

٣٦) عنبسة (مسرحية تاريخية) لأحمد رضا حوحو نشرت بمجلة الحلقة - الجزائر في أبريل ١٩٧٢ .

٣٧) عيون البصائر لمحمد البشير الابراهيمي - دار المعارف بمصرط ١٩٦٥ .

- الغيـــن -

٣٨) غادة أم القرى (قصة طويلة) لأحمد رضا حوحو - مطبعة التليلي - تونس ١٩٤٧ .

- الفـــاء -

٣٩) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا لأنو الجندي - الدار القومية القاهرة : ١٩٦٥ .

٤٠) فن المقامات في الأدب العربي للدكتور عبد الملك مرتاض تحت طبع ش. و. ن. ت. الجزائر صدر في ١٩٧٥) .

٤١) في سبيل الخلود سلسلة الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو تأليف عبد المجيد الشافعي - طبع بالمطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة : ١٩٦٤ .

- القــاف -

٤٢) القاموس المحيط للفيروز أبادي - نشر مصطفى البابي الحلبي بمصر ط٢ : ١٩٥٢ .

٤٣) القرآن الكريم .

٤٤) القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر للدكتور عبد الله ركيبي - دار الكاتب الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة : ١٩٦٧ .

- الكـاف -

٤٥) كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني - المطبعة العربية - الجزائر ١٩٣١ ، وطبع طبعة ثانية في سنة ١٩٦٣ - نشر دار الكتاب الجزائري - الجزائر .

- الـــلام -

٤٧) لسان العرب لأبن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (نسخة مصورة عن طبعة بولاف) .

٤٨) ليل الاستعمار لفرحات عباس - ترجمة أبي بكر رحال - مطبعة فضالة (المحمدية حاليا) المغرب (أهمل تاريخ الطبع) .

- الميــم -

٤٩) مجالس التذكير لعبد الحميد بن باديس - جمع أحمد بوشمال - طبع بالمطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة : ١٩٤٨ .

٥٠) مجموع النسب والحسب ، والفضائل والتاريخ والأدب ، لبلهاشمي بن بكار - مطبعة ابن خلدون بتلمسان : ١٩٦١ .

٥١) محمد العيد آل خليفة لأبي القاسم سعد الله - دار المعارف بمصر ١٩٦١ . (ط الثانية) .

٥٢) مذكراتي للأمير محمد سعيد الجزائري - نشر شركة مرازقة - الجزائر : ١٩٦٨ .

٥٣) المسرحية في الأدب العربي الحديث للدكتور محمد يوسف نجم - دار بيروت - ١٩٥٦ .

٥٤) مضار الجهل والخمر والحشيش والقمار (مسرحية اجتماعية) لمحمد العابد الجلالي (مخطوط يوجد بمكتبتنا) .

٥٥) المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد - مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٢ .

٥٦) الموسوعة العربية - القاهرة ١٩٦٥ .

٥٧) المولد النبوي (مسرحية دينية) لعبد الرحمن محمد الجيلالي - المطبعة العربية - الجزائر : ١٩٤٩ .

- النـــون -

٥٨) الناشئة المهاجرة (مسرحية دينية) لمحمد الصالح رمضان . مطبعة ابن خلدون بتلمسان : ١٩٤٩ .

٥٩) النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي للدكتور محمد صادق عفيفي - نشر دار الفكر - ط ٢ : ١٩٧١ .

٦٠) نماذج بشرية لأحمد رضا حوحو - نشر دار البعث بتونس - ١٩٥٥ .

٦١) نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة لمحمد علي دبوز صدر الجزء الأول في دمشق : ١٩٦٥ والثاني بالجزائر في ١٩٧١ .

- الهـــاء -

٦٢) هذه هي الجزائر لأحمد التوفيق المدني - مكتبة النهضة المصرية (اهمل تاريخ الطبع) .

- اليـــاء -

٦٣) يوغورطة (مسرحية تاريخية) لعبد الرحمن ماضوي نشر : ش. و. ن. ت. الجزائر ١٩٦٩ .

٢) **رسائل الكتّاب** :

٦٤) رسالة من أحمد بن ذياب ، كتبت في ١٩٧٢/١١/٢٢ .
٦٥) رسالة من أحمد توفيق المدني ، كتبها الي من «اسلام أباد» في ١٩٧٢/١١/٢٠ .
٦٦) رسالة من حمزة بوكوشة ، كتبها الي من الواد في ١٩٧٣/١١/٣ .
٦٧) رسالة من عبد الرحمن العقون ، كتبها الي في ١٩٧٥/٢/٢٨ .
٦٨) رسالة من علي بن يسعد خيران (صاحب جريدة الليالي) كتبها الي من الجزائر في ١٩٧٤/١/٢٨ .
٦٩) رسالة من علي مرحوم من الجزائر في ١٩٧٤/٣/٨ .
٧٠) رسالة من محمد الصالح رمضان ، ولم يرسلها الي بالبريد ، وانما سلمنيها شخصيا في تيزي وزو حين انعقاد الملتقى الاسلامي السابع . (١٩٧٣) .
٧١) وثيقة مخطوطة سلمها الي الدكتور محمود الربداوي بوهران في ١٩٧٥/٥/٢٣ (وهي تتعلق بالكاتب الشهيد أحمد رضا حوحو) .

٣) **المجلات والصحف** :

ـ أ ـ

٧٢) أبو العجائب (١٩٣٤ ـ ١٩٣٥) جريدة أسبوعية أصدرها محمد العابد الجلالي بقسنطينة .
٧٣) الاخلاص : (١٩٣٢) جريدة أصدرها المولود بن الصديق الحافظي الأزهري .
٧٤) الاصلاح : (١٩٣٩ ـ ١٩٤٨) جريدة كانت تصدر كل نصف شهر ، ثم أخذت تصدر أسبوعيا . وقد أصدرها الطيب العقبي بعد ان انفصل عن العلماء وهي الاصلاح الثانية . أما الأولى فقد كانت صدرت في سنة ١٩٢٧ وتوقفت حوالي سنة ١٩٣٠ .
٧٥) افريقيا الشمالية (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) مجلة شهرية كان يصدرها اسماعيل العربي بالجزائر .

ـ ب ـ

٧٦) البصائر (الأولى) (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) أصدرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر .
٧٧) البصائر (الثانية) (١٩٤٧ ـ ١٩٥٦) أصدرتها جمعية العلماء أيضا ، خلفا للأولى .
٧٨) البلاغ الجزائري (١٩٢٧) جريدة أسبوعية أصدرتها هيئة الزاوية العلوية بمستغانم .

ـ ت ـ

٧٩) التلميذ (١٩٣١) مجلة شهرية أصدرتها الجمعية الودادية للتلاميذ المسلمين بافريقية الشمالية بالجزائر .

ـ ث ـ

٨٠) الثقافة : مجلة تصدرها وزارة الاعلام والثقافة بالجزائر .

- ج -

٨١) الجحيم (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) جريدة أسبوعية صدر منها سبعة أعداد فقط وعطلت .

٨٢) الجزائر (١٩٢٥ ـ ١٩٢٦) جريدة أسبوعية أنشأها محمد السعيد الزاهري بالجزائر .

٨٣) الجيش : مجلة تصدرها وزارة الدفاع في الجزائر (اعداد مختلفة) .

- ح -

٨٤) الحياة : مجلة أصدرتها هيئة الكشافة الاسلامية الجزائرية وكان يحررها محمد العسيري وآخـرون .

- ر -

٨٥) الرشاد (١٩٣٨ ـ ١٩٣٩) : أصدرتها هيئة اتحاد الزوايا الجزائرية بالجزائر .

- س -

٨٦) السنة المحمدية (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) : جريدة أسبوعية أصدرتها جمعية العلماء .

- ش -

٨٧) الشريعة المطهرة : (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) هي ثانية جرائد العلماء .

٨٨) الشعب (جريدة يومية جزائرية) اعداد مختلفة) .

٨٩) الشعب (ملحق ثقافي) كان يصدر عن جريدة الشعب الجزائرية كل خمسة عشر يوما (اعداد مختلفة) .

٩٠ الشعلة ١٩٤٩ . ١٩٥١ . جريدة أسبوعية .

٩١) الشهاب ١٩٢٥ ـ ١٩٣٩) مجلة أنشأها عبد الحميد بن باديس ، بقسنطينة .

- ص -

٩٢) الصراط السوي (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) هي ثالثة جرائد العلماء .

٩٣) صوت المسجد (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) أصدرتها هيئة اتحاد الأئمة الجزائريين «الرسميين» .

- ع -

٩٤) العروة الوثقى (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥) كان يحررها محمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني ، وقد طبعتها دار العرب بالقاهرة (١٩٥٧) .

- ق -

٩٥) القبس (الجزائر) مجلة شهرية كانت تصدرها وزارة الأوقاف (مجموعتها الكاملة) .

- ل -

٩٦) لسان الدين (١٩٣٦) جريدة أسبوعية أصدرها قادة بوجلال بمستغانم .

٩٧) لمحات (ع١ ـ ٤) مجلة تصدرها اللجنة الوطنية الجزائرية لليونسكو بالجزائر .

- م -

٩٨) مجلة تاريخ وحضارة المغرب (اعداد ١ ـ ٥) أصدرتها كلية الآداب في جامعة الجزائر .

٩٩) المعرفة : مجلة كانت تصدرها وزارة الأوقاف الجزائرية .

١٠٠) المغرب العربي (١٩٤٧ ـ ١٩٥٧) جريدة كان يحررها محمد السعيد الزاهري .

ـ ن ـ

١٠١) النجاح (١٩١٩ ـ ١٩٥٧) جريدة أصدرها عبد الحفيظ الهاشمي .

ـ هـ ـ

١٠٢) هنا الجزائر : مجلة كانت تصدر عن اذاعة الجزائر .

ـ و ـ

١٠٣) الوطن (١٩٤٨) جريدة نصف شهرية أصدرها فرحات عباس بالجزائر .

* * *

فهرس الكتاب

	صفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة	٩
الباب الاول ــ النهضة الفكرية	١٧
الفصل الاول ــ الصراع بين العربية والفرنسية	١٩
الفصل الثاني ــ المراكز الثقافية في الجزائر قبل الثورة	٣٩
الفصل الثالث ــ ابن باديس	٦١
الباب الثاني ــ النهضة الصحافية والادبية	٩٣
الفصل الاول ــ الصحافة العربية في الجزائر	٩٥
الفصل الثاني ــ محمد البشير الابراهيمي	١٢٣
الفصل الثالث ــ محمد رضا حوحو	١٥٥
الباب الثالث ــ النهضة التاريخية	١٨٥
الفصل الاول ــ مبارك بن محمد الهلالي الميلي	١٨٧
الفصل الثاني ــ احمد توفيق المدني	٢٠٧
الفصل الثالث ــ عبد الرحمن الجيلالي	٢٢١
كشاف لاهم الوقائع الادبية	٢٣٩
اهم مصادر هذا البحث	٢٤١
أهم المصادر والمراجع	٢٤٥

طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مركب الطباعة ـ رغاية
الجزائر : 1983



980

السعر في الجزائر : 19.60 د.ج